الأمير العاشق

تاريخ ومغامرات في قصور الفراعنة



أنتوني آرمسترنج

الامير العـــاشق

انطوني آرمسترنج

السلسلة الشعبية للقصص العالمية



قصة تاريخية غرامية جرت حوادثها في مصر القديمة

تأليف

أنطوني آرمسترنج

منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة
(دار مكتبة الحياة - بيروت)

مقـــدمة

رسالة من آرثر رولي

مضى الآن نيف وثمانيةعشر شهرا على وفاة ارثر رولي . وقد ترك لي هذا الرجل بصفتي صديقه تحفة أدبية هي حزمة من الاوراق استطعت في النهاية أن.أهيىء ما بها واخرجه للناس في صورة ملموسة .

كنت دائما في جوار ارثر رولي ، قلما أبتعد عن فراشه ومع ذلك لم يفه لي بكلمة واحدة — أوفي الواقــع لاي أحد — عن سر كتاباتــه في الليــل البهيم او عن احلامه القريبة المدهشة التي كانت تتمثل أمامه في خلال ساعات الظلام ، والتي كان يدونها بحالة غريبة دون أن يفته منها شيء .

كانت أول اشارة تلقيتها عن سره — زيارة شقيقته لي بعد تشييع جنازته بقليل. وشقيقته هذه هي التي حملت الي حزمة الاوراق الكبيرة التي أشرت اليها قائلة أن شقيقها ترك أوامر خاصة بارسال هذه الاوراق الي في أقرب وقت بعد وفاته — وهذه الاوراق هي الاصل الذي بنيت عليه هذه الرواية .

وأذكر انني زعمت أولا ان حزمة الاوراق هذه تشتمل على تذكار صغير أراد

ارثر المسكين أن يرسله الي ولكن لما فتحتها في مساء ذاك اليوم في غرفة مطالعتي لم أجد في داخلها غير قصاصات ورق لا عداد لها ، من كل حجم وشكل .

وكانت هذه القصاصات مكتوبة كلها بخط سحري غير جلي بالمرة . وكان في بعضها بضعة سطور فقط في حين كان غيرها مكتوباً من الوجهين وفي الهامش أيضا . وكانت كلها مكتوبة بالقلم الرصاصي ومعظمها ملوثاً في حين كان نصف صفحاتها منمراً بالمداد في زاوية الورقة لارشاد القارىء على ما يظهر الى ترتيبها.

أخيراً عثرت في نهاية الاوراق القذرة على خطاب معنون باسمي جلى على الاقل شيئاً من غوامض هذه التركة الغريبة .

وقبل أن استطرد في ذكر قصتي هذه انتهز الفرصة في هذه النقطة لأقدم الى القارىء بعض حقائق عن ارثررولي نفسه بطل هذه الرواية فأقول :

التقيت بارثررولي لاول مرة في فرنسا والحرب دائرة الرحى ، وكان ملازماً في فرقة مدفعية الميدان وكنت أنا ضابطاً برتبة كبتن في الفرقة الطبية الملحقة بفرقته . وكنا نقطن في انكلترا على مقربة من « سانت جونس وود » ولم يعرف كلانا هذه الحقيقة الا اتفاقاً في يوم صرح لنا فيه باجازة معاً . وكانت هذه الاجازة بداية صداقتنا كما كانت السبب ايضاً في مقابلتي الاولى لوالدته الارملة وشقيقته فيرونيكا وكانتا تقطنان معاً في منزل نمرة ٦٨ « بأكاشيارود » .

رقي آرثررولي فيما بعد الى رتبة كبتن ثم جرح اثناء تقهقر جيوش الحلفاء في شهر مارس جراحاً بليغة نقل بسببها الى مستشفيات لندن ولما سافرت الى هناك عدته بالطبع وقدمت الى اهله فروض العزاء.

وكانت جراحه بليغة تطلبت بتر احدى رجليه من الفخذ والاخرى من تحت الركبة عدا الجراح الخطيرة التي أصابته في الرأس . وهكذا صار ارثر لا يصلح للخدمة مطلقاً . وقد مكث بالمستشفى الى ان نقل بعد التئام جراحــه الى منزله في « اكاشيارود » وفي اعتقادي ان شقيقته ابتهجت لسبب ما في نفسها بوجوده معها وتحت عنايتها وحدها لانني لم ارفي حياتي شقيقة مخلصة متفانية في خدمة شقيقها كما كانت فيرونيكا رولي .

ولما وضعت الحرب اوزارها وسرح الجيش عدت الى عملي القــديم في « سانت جونس وود » وفي خلال تلك المدة كنت أزور ارثر رولي كلما وجدت لدي فراغــاً من الوقت ، مدفوعاً بعاملين هــما حبي للرجــل ، ولانني كنت اشعر بشيء من القلق نحوه .

وفي الواقع اثر بتركلتا رجليه في صحته العامة والمجموع العصبي فأخذت حالته الصحية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم بحيث لم اجد مندوحة في النهاية من ان ابلــغ والدتــه وشقيقته انني — والاطبــاء الذين استدعوا لملاحظة رولي — نرى انه في حالة خطرة جداً .

لم نخطىء في حكمنا هذا اذ لم يمض اكثر من شهر حتى استدعيت في ساعة من ساعات الصباح القصيرة . وكانت شقيقة رولي قد سمعت صياحاً في غرفة شقيقها فهرعت اليه فوجدته جثة هامــدة . والظاهر ان المنيــة داهمته فجأة بسبب نزيف في الدمــاغ اصابــه وهو جالس في فراشــه يكتب فحدثت الوفاة فجأة .

لم استطع ان افعــل شيئــاً أللهم الا ان اعرب لشقيقة رولي عن عطفي الكبير والاهتمام بها لانه كان قد أغمي عليها على أثر وقوفها على الحقيقة المحزنة عن سبب وفاة شقيقها .

جاءتني فيرونيكا رولي بعد تشييع جنازة شقيقها بقليل بتلك الحزمة الغريبة من الاوراق – كما ذكرت ذلك من قبل – ومعها الخطاب المطول التالي بخط ارثر رولي نفسه وقد كتبه قبل وفاته بيوم اوبيومين فقط وقد جاء فيه ما يلي :

« صديقي العزيز

« لا يصلك خطابي هذا حتى اكون قد انتقلت الى عالم جديد آخر . ولعمري اعتقد اني سأكون مسروراً – اذا استثنيت حزني لمفارقة شقيقتي فيرونيكا لانه مهما تكن الحياة الاخرى فانها ستكون خيراً من هذه الحياة الملعونة التي يقضي الانسان فيها يومه يفكر في جميع الاشياء التي كان يستطيع القيام بها وقد عجز الآن عنها .

« والآن اذكر لك الغرض من هذا الخطاب واشرح لك ما في تلك الاوراق العديدة التي لا بد ان تكون قد سببت لك بعض الحيرة فأقول :

« منذ عام تقريباً – او بالحري في ليلة ٥ أغسطس سنة ١٩١٨ – عند ما اخذ الجرح الذي في رأسي يؤلمني ألماً مبرحاً طول النهار – رأيت حلماً غريباً جداً . وكان جلياً لذيذاً بحيث لما استيقظت من نومي اردت ان ادونه لكي يبقى عالقاً بذاكرتي ولكن لم اكد آتي بالقلم والاوراق واتهيأ للكتابة حتى وجدت ان ذاكرتي لاتعي شيئاً منه.

« وكنت قد اعددت في الليلة الثانية أدوات الكتابة فرأيت في الليلة الثالثة حلماً يشبه الحلم الاول . وفي هذه المرة – كالمرة السابقة تماماً – استيقظت على اثر انتهاء الحلم مباشرة فشرعت في الكتابة وانا لا ازال شبه نائم .

« يأتي الآن الجزء المهم . فقد تولتني دهشة عظيمة في الصباح عندما القيت

نظري على ما كتبت . وفي الواقع شاهدت لأول وهلة أن الورقة مكتوبة بخط سحري . على انني لما نعمت النظر اليها طويلا رأيت اثني عشر سطراً مكتوبة – ولكنها لم تكن مكتوبة بخطي – وفوق ذلك كانت مكتوبة من اليمين الى اليسار بدلا من اليسار الى اليمين فزاد ذلك في صعوبة ادراك كنهها . وفي الحقيقة كانت مكتوبة بخط سحري مهزوز كما يتبين لك ذلك من الاوراق المرسلة اليك مع هذا الخطاب .

« على ان الغريب المدهش انها كانت مكتوبة بخطي لانني اذكر عندما تناولت القلم بيدي ولان الكلمات التي عبرت بها عن افكار حلمي كانت امامي بلهجة المتكلم .

« حدث في الليلة التالية ما حدث في الليلة السابقة واستمر الحال على ذلك ليالي عديدة بعدها . فكنت أرى احلاماً معينة واستيقظ عند انتهائها ثم اقوم وأنا شبه نائم فأدون بذاك الخط الغريب كل ما حدث بالضبط كما لو كنت اقوم بتلك الحوادث في ذاك الوقت بنفسي .

« لاحظت بعد بضعة اسابيع امراً آخر غريباً ، ذلك ان الاحلام التي كانت في البداية متقطعة صارت متصلة بعضها ببعض ثم استمرت كأنها كلها حلقات في سلسلة واحدة . ولا تزال مستمرة الى يومنا هذا.

« لم اذكر كل هذا لاي شخص لانني لا أريد ان يسخر مني أحد ولكن لما كان لدي وقت طويل للتفكير كما تعلم شرعت اهتم بالامر اهتماماً شديداً .

« اكتشفت اذ ذاك امرين : الاول انني كنت الشخص نفسه في كل حلم رأيته . ثانياً كان هذا الشخص وهو انا يتقدم كلما تقدم الوقت في حلمي . وقصارى القول كنت انتقل فى هذه الحياة التي رأيتها في حلمي

خطوة خطوة كل ليلة كما يعيش الانسان في حياته العادية وفوق ذلك كنت أدون بدافع غريب كل ما أراه في احلامي كما لو كان يقع فعلا

« هالتني هذه الحقيقة كثيراً واربكت عقلي بحيث مرضت – ولا اخالك نسيت يوم ارسلت اليك فيرونيكا على عجل – ولكني أخذت في النهاية اسوي الامور في عقلي وبدأت اشعر باهتمام مدهش بهذا الشخص الآخر الذي كنت أنا وهو شخص واحد في احلامي . وسترى ان وقته كان مملوءاً بمظاهر الابهة والجلال والقلاقل اكثر من حياتي ومع ذلك لم يكن شخصاً آخر يختلف عني بل كان انا نفسي . وعلى ذلك من الطبيعي ان أشعر بهذا الاهتمام الكبير نحوه .

« حرت بعد مدة فيما يجب ان أفعل بعد انتهاء احلامي لانني أدركت تماماً ان حياة الشخص الذي أراه في احلامي لا يمكن ان تستمر الى الابد الى ان شعرت فجأة منذ اسبوع بنذير وهو انه متى قتل الشخص الذي أراه في احلامي أو توفي فان نهايته ستكون نهايتي كذلك في هذه الحياة. وأظن انني لا أريد ان اعيش بعد أن يقع ذلك – واعلم الآن من احلامي ان النهاية ستحين بسرعة .

« ولهذا السبب جمعت كل الاوراق وكتبت اليك هذا الخطاب اشرح لك فيه ما رأيت متوخياً الايضاح ما استطعت . وقد وضعت التدابير اللازمة لارسال الاوراق اليك على يد فيرونيكا حتى الأوراق الاخيرة التي لم أدونها بعد فقد تجد بها ما يبعث في نفسك الرغبة على تحويلها الى قصة يقرؤها العالم لان فيها مواقف مشهودة عديدة .

« ولا استطيع ان اشرح لك السر في تغيير الخط ولكني لم أعد اهتم بهذا الامر كثيراً بعد ان تحول جل اهتمامي الى الحلم نفسه . وكذا لا أدرك

كثيراً من امر تلك الحياة التي أراها في احلامي كذلك . وأجلى عبارة أراها صالحة لتفسير هذا السر هي انني كنت اعيش على مـــا يظهر عيشتي الخاصة ولكني فقط كنت شخصاً آخر في تلك الحياة . وكانت حياتي في بعض الاحيان اسعد كثيراً من حياتي الحالية — والآن ألا ترى ان لنظرية تقمص الارواح التي لا أعرف عنها شيئاً غير اسمها علاقة بقصتي هذه ؟

« أما البلاد التي أراها في احلامي فهي بلا ريب مصر — ولو انني تعودت ان اذكرها باسم خم (وهو اسم مصر القديم) مهما كان معنى ذلك — لانني أعرف اسم الفراعنة والاهرامات وكذا اسم « رعمسيس » الذي يؤخذ من التاريخ انه كان أحد فراعنة مصر .

« وفيما عدا ذلك ادع لك كل شيء لكي تتصرف فيه كما تشاء . ولا أريد ان اطيل الكلام بشأنه لانني أراه حقيقة لا مراء فيها . وعدا ذلك اخذت الحياة التي أراها كل ليلة في احلامي تنتهي وربما انتهت الليلة فتنتهي معها حياتي في هذا العالم .

« يخيل الي ان من المضحك ان تنتهي حيــاتي على هذه الحال بعد نجــاتي من الاخطار العديدة في ساحة القتال بفلاندر .

« استودعك الله — صديقك »

« ارثر رولي »

١١ اغسطس سنة ١٩١٩

لم اكد أفرغ من تلاوة هـــذا الخطاب حتى تشوشت افكاري كما يدرك ذلك

القاريء بسهولة . فقد بدت المسألة كلها غريبة الى حد يتعذر على الانسان معه الاعتقاد بصحتها ولكن كانت قصاصات الورق امام عيني. وكان رولي بلا مراء حافظاً لقواه العقلية لان خطابه ليس خطاب رجل معتوه وكذا لا يتكبد رجل حسن الادراك مشقة كتابة كل ذلك – وهو على فراش موته – على سبيل التسلية . والآن لا يسعني الا الاعتراف بعجزي عن ادراك معنى ذلك كله .

على انني عدت الى الخطاب فقرأته ثانية فاسترعت اهتمامي تلك الجملة عن النظرية الخاصة بتقمص الارواح . وكنت في ذلك الوقت لا أدري شيئاً عن تلك النظرية ولكنني اهتممت بالامر فوقفت على معلومات كثيرة .

لم اهتد من تلك المعلومات الى شيء معين ولكنها أدت بي الى النظرية التالية التي اضعها أمام القارىء الآن . ولا يبعد ان تكون نظريتي هذه غير صائبة ولكنني لم استطع ان أجد غيرها يتفق مع الحقائق وعلى كل حال استنتجت هذه النظرية من الحقائق التي استخلصتها من تصريحات رولي .

اما النظرية فتتلخص فيما يلي : اذا سلمنا جدلا باننا نعيش على الارض اكثر من مرة في اجسام مختلفة – كما يقول المعتقدون بتقمص الارواح فان من الممكن لرجل في حالة رولي – مصاب بجرح في الرأس ، يعيش عيشة خاصة – ان ينسل كما يقولون ويعيش ثانية في شكل حلم جزءاً من حياة ماضية . ثم لا يبعد ان تزداد الرابطة التي تكونت بهذه الحالة بين الحياتين وثوقاً بسبب اهتمام رولي الكبير بحياته هذه السابقة وطول تفكيره بها اثناء ايامه الخالية من الشواغل .

قد يكون ما رآه رولي اكثر من حلم بالمعنى الذي يفهمه الناس لاستمراره ليالي متوالية عديدة بحالة قد يدرك كنهها الذين درسوا علم الاحلام . وعلى كل حال ما ذكرت هذه النظرية — نظرية تقمص الارواح — الا لانها في رأيي تلائم قصة رولي كلها .

وهناك نقطة اخرى خطرت ببالي فيما يتعلق بنظريتي هذه ، وهذه النقطة هي حب الفتاة نح — تل — كا التي سيرد ذكرها فيما بعد .

يعتقد الذين يؤمنون بتقمص الارواح ان المحبين الصادقين يلتقون ثانية في حياتهم المقبلة لان الحب الصادق لا يفنى وأظن أن هذا محتمل جداً . واذا تبسطنا قليلا في هذه النقطة أمكن القول ان فيرونيكا شقيقة رولي هي نفس « نح — تل — كا » كاهنة آمون في هذه الحياة . فقد كانت تحب شقيقها اكثر من العالم اجمع حباً غريباً في قوته . وفي الواقع كانت تتمنى قطع يدها اليمنى فقط لو كان في ذلك ساعة يقضيها رولي في سعادة وهناء واعلم أيضاً علم اليقين ان الفتاة لم تهتم لحظة واحدة بطالبي الزواج مفضلة البقاء في جوار شقيقها . ولولا علاقتها الخاصة في هذه الحياة لجعلت فيرونيكا شقيقها بلا مراء اليفها المعبود . وفي الواقع توفيت الفتاة بعد وفاة شقيقها بشهر واحد حسرة عليه .

أما فيما يتعلق بالاوراق التي استغرقت بالطبع وقتاً طويلا في حل رموزها والتي تتضمن تاريخ حياة شخص كتبها بنفسه — فأقول انه لما كان ارثر رولي كتب هذا التاريخ وهو شبه نائم فقد دونه وهو لا يزال تحت تأثير حياته الاولى وعلى ذلك لا غرابة اذا كان خطه يشبه الخط الذي كانوا يكتبونه في مصر أثناء حياته الاولى . وفي الواقع تبين لي من البحث والتدقيق أن كتابته تشبه تماماً كتابة قدماء المصريين وهي مكتوبة من اليمين الى اليسار .

واخيراً أرى انه وان كانت وفاة رولي حدثت لاسباب طبيعية فقد ارتبط بحياته السابقة بالاحلام بحيث توفي أيضاً في الوقت الذي توفي فيه في الازمنة الغابرة .

اما فيما يتعلق بصحة الاسماء والحقائق التي ستذكر فيما بعد فانني لا استطيع أن أقول شيئاً كثيراً عنها لانني لست متضلعاً في تاريخ مصر القديم . وكانت أسماء الاشخاص مختصرة كثيراً نظراً لمعرفة الكاتب بهم وعلى ذلك اضطررت في كثير من الاحيان الى الحدس والتخمين فيما يتعلق بشكلها ونطقها الاصلي .

واني مدين للاستاذ جلنز الرحالة الشهير والعالم في الاثار المصرية في معرفة الحقائق التي ذكرت او أشير اليها ولما قدمه الي من المعلومات الثمينة فانتهز هذه الفرصة لاعلن عن امتناني له .

ويؤخذ مما قاله الاستاذ جلنز ان وقائع هذه الرواية حدثت في أواخر حكم الاسرة العشرين المصرية نحو ١١٠٠ قبل الميلاد وهي تتفق كثيراً مع الحوادث المعروفة في تلك المدة عدا بعض نقط قليلة يرون بشأنها نظريات متضاربة . وعلى ذلك لا يمكن الحكم بصفة باتة بانها غير صحيحة .

وهناك اشياء كثيرة أخرى لا يستطيع الانسان أن يعلم بصددها شيئاً ولكن اذا حكمنا من الحقائق الاخرى التي ثبتت صحتها فانه ليس ثمة ما يحول دون أن تكون هذه الامور حقيقية كذلك .

ويقول الاستاذ جلنز أن القصة في مجموعها تبعث على الاعتقاد بانها صحيحة يمكن الاعتماد عليها وعلى ذلك فهي تكشف كثيراً من غوامض تاريخ

تلك الازمنة . على أن المدهش في ذلك كله أن رولي نفسه لا يعرف شيئاً مطلقاً عن مصر القديمة أو تاريخ المصريين – حتى ولا كلمة « خم» التي كانت تطلق قديماً على مصر . وعلى ذلك أدع الرأي العام يكون فكرته في هذه المسألة لان غرضي الوحيد هو أن اقدم ما تضمنته الاوراق الى العالم كما تلقيتها تماماً .

أما فيما يتعلق بالاوراق نفسها فقد استغرقت مدة طويلة في حل رموزها ومدة أخرى أطول في ترتيبها لان نصفها فقط كان منمراً . وأكاد لم أعدل فيها شيئاً أو ادخل عليها تغييراً اللهم الا اذا تطلب الامر دمجها لجعلها كلها قصة واحدة متصلة ثم تقسيمها الى فصول مساعدة للقارىء وبعض شروح قليلة في الهامش وضعتها بمعاونة الاستاذ جلنز .

وأخيراً تركت الفراغ الذي عثرت عليه في القصة كما هو . ومن المحتمل جداً انه لم يقع شيء يستحق الذكر اثناء ذلك لان الحقائق المهمة والحوادث كلها مذكورة كما هي .

ويحزنني أن أقول انني عثرت في القصة على جزء مكتوب بقلم رصاص خفيف على بضعة اوراق ملوثة بحيث لم استطع لا انا ولا أصدقائي أن نحل رموزها ولذا سيبقى ما كان مكتوباً بتلك الاوراق سرا الى الابد . على انه لا يسعنا الا الابتهاج لاننا لم نعثر على كثير من هذه الاوراق التي لم نستطع قراءتها .

بهذه المقدمة الوجيزة أقدم الى القراء القصة التي اشتملت عليها قصاصات الورق التي أرسلها الي ارثر رولي الذي كان ضابطاً بفرقة المدفعية الملكية والذي في اعتقادي ولد منذ ألوف من السنين وعاش ثم مات في أرض الفراعنة المملوءة بالغرائب والعجائب .

١

اوراق آرثر رولي

جلست فوق صخرة بارزة فوق نهر النيل اتمتع باشعة الشمس المنعشة التي يرسلها المعبود رع ، اله الشمس ، على أرض مصر اليانعة الجميلة . وكان جالساً الى جانبي الصبي منتنخ — وكان من سني — فأخذنا نراقب معاً جماعات العبيد وهم يشتغلون بقطع الاحجار على الشاطىء الآخر من النيل . وكان الصبيان الذين في سني يجدون دائماً ابتهاجاً في مشاهدة هؤلاء العبيد التعساء ويزيد ابتهاجهم لافلاتهم من الاعمال التي تنتظرهم في المنزل . وكنا في صباح هذا اليوم شديدي الاهتمام بصفة خاصة بما يجري امامنا .

وكان رؤساء المحجر قد أتموا منذ أيام قليلة نحت تمثال كبير أمر فرعون المقدس أن يوضع خارج معبد « رع » في مدينة « آن » وكان الرجال في هذه اللحظة مشتغلين بجذب هذا التمثال فوق الطريق المرصوفة المؤدية الى حافة النهر .

وكان في وسعنا ونحن جالسين في مكاننا هذا ان نرى كل شيء بوضوح وجلاء فقد كانت أشعة الشمس الباهرة تنعكس من ظهور عمال المحجر اللامعة

وهم يشتغلون بكد في جذب التمثـال الضخم والعرق يتصبب من اجسامهم لان الثيران التي جاءت بالتمثال من المحجر حلت قبل ان تصل الى الطريق المرصوفة الملساء .

وكان العبيد يشتغلون تحت اشراف جماعة من الرؤساء الذين كـنا نرى سياطهم وهي تهوي على أجسام كل من يظهر تراخياً في القيام بمهمته من العبيد في حين كانت أصوات هؤلاء المساكين تصل الى اسماعنا من بعيد .

رأينا وراء هؤلاء العبيد فصيلة من الجند برماحهم اللامعة وخوذاتهم وكانوا من الجنود الزنوج المأجورين من سكان (كوش) بلاد الحبشة على ما اعتقد . وكانوا واقفين يتولون الحراسة في جماعات صغيرة وهم يمثلون قوة فرعون المقدس وسلطانه .

أخذ هؤلاء الجنـد يضحكون ويتحـدثون فيما بينهم بينما كان التمثال الضخم يجذب فوق الطريق المرصوفة الملساء. وكانت أوامر رئيس المحجر وهو راكب فوق التمثال وجلبة العبيد وصياحهم ووقع السياط على اجسامهم – كانت كل هذه تجتاز مياه سيحور (النيل) الهادئة وتصل الى آذاننا جلية واضحة .

رأينا هذا المشهد كثيرا من قبل – لأن مراقبة رجال المحجر كان من اعظم دواعي الابتهاج لدي ولدى منتنخ كلما استطعنا الافلات من العمل – ومع ذلك كان اهتمامنا به في كل مرة لا ينقص عن اهتمامنا الاول . ولا عجب فقد كنا نرى كثيراً من الحوادث . واتفق مرة ان رأينا مسلة كبيرة سقطت فقتلت ثلاثة من العبيد كما حدث مرة ان انزلق حجر ضخم كان معداً لبناء باب أحـــد الهياكل فسقط في الماء بحيث اضطروا الى تركه بعـد ان اشتغلوا شهوراً عديدة في نحته . وفي وسع الانسان ان يرى قمم كثير من التماثيل والمسلات بارزة فوق سطح الماء بعد انتهاء الفيضان .

مكثت مع رفيقي على هـذه الحال نراقب العبيـد وقد التفوا حول التمثال كالنمل الى ان جاء فريق آخر من العمال لاستبـدال رفقائهم في المرحلة الاخيرة. وكان جماعة أخرى من الرجال يهرعون في خلال ذلك الى نهاية الطريق المرصوفة حيث كانت تطفو مجموعـة من خشب الارز اعـدت لنقـل التمثال في النهر الى مدينة « رع » المقدسة واعني بها مدينة « آن » ذات المعابد الكبيرة .

على انه لم يكد يصل الى آذاننا تصفير عال وهو الاشارة لبذل المجهود الاخير لجر التمثـال حتى سقط خيـال بيني وبين الصبي وسمعنـا صوت اتسمار مربيـتي العجوز وهي تقول :

— تعال هنا يا لنزور أيها الكسول ! اين كنت هذا الصباح ؟ هل هربت من المنزل لتقضي وقتك في الكسل .

ثم تحولت نحو الصبي رفيقي وخاطبته قائلة .

— ان أباك يبحث عنك يا منتنخ .

فهرع الصبي لان اباه كان سريع الغضب ولما توارى عن الانظار عادت مربيتي العجوز الى الكلام فقالت بلهجة أخرى .

— تعال يا لنزور . ان هنـاك أعمالا كثيرة اليـوم تتعلق بي وبك. تملكتني الدهشة لتخلصي بهذه الوسيلة من عبـارات الزجر والتأنيب التي كنت انتظر سماعها فتبعتها الى القرية الصغيرة التي كان يقطن بها ولي امري وهو رجل كان يشتغل بقطع حشائش البردي وربطها .

لم نكد ندخل كوخها الصغير حتى جذبتني العجوز اليها واخذت تفتش في صندوق خشبي أخرجته من مـكان خفي ثم خاطبتني بلهجة سرية غريبة قائلة :

ـ أتدري ما هذا اليوم ؟.

فأجبتها بلهجة الاستغراب قائلا .

كلا يا أماه .

فاستطردت العجوز في حديثها قائلة :

لقد مضى خمسة عشر عاماً الى هذا اليوم من شهر « باشون » على مجيئك الي لاول مرة وانت طفل ـ ولا تسل عمن جاء بك الي ـ وتوليتي تربيتك والاهتمام بك ـ فأمامنا اليوم شيء كثير .

فاهت مربيتي العجوز بهذا القول وأخرجت من الصندوق ملفاً من اوراق البردى وخاتماً صغيراً على شكل المعبود « خفيراً » اله الصحراء الغربيـة الذي يقطن على شكل جعران ثم قالت .

ـ ألم تر هذه الاوراق وهذا الخاتم ؟ حسن . لقـد أخذتها من اليـد نفسها التي جاءت بك الى هنا . وقد نقش هنا الاسم الذي استقر الرأي على ان ندعوك به واعني به اسم لنزور ولكني لا اظن ان هـذا الاسم هو اسمـك الحقيقي . ثم نقشت أيضاً هذه الكلمات وقد قرأهـا لي احد كهنة مدينـة « منف » وهي : « يؤتى بالصبي بعد خمسة عشر عاماً الى هيكل المعبود الاكبر « بتاح » في منف حيث ينال الشرف والكرامة ، وسيكون الخاتم العلامة التي يعرفـبها » . وفي الواقع كلما جاء كاهن « بتاح » في اليـوم التاسع من شهر « ثوث » كل عـام لمفاوضة رئيس قريتنا يختلي بي أثناء زيارته ويقول لي : « لا تنسي خاتم خفيرا » . هذا كل ما هنالك . ان الامر غريب ولا أدري ما يـدل عليه ولكن يحتمل ان هنالك فائدة مالية .

أبرقت عينا العجوز طمعاً وهي تطوي أوراق البردي ثانية وتخفي الخاتم

بين طيات ثيابها . على انها لم تلبث ان استطردت في حديثها قائلة :

– ربما كنت من أبناء الاشراف فلا تنس اذن مربيتك المسكينة العجوز . سنذهب اليوم الى مدينة منف لنرى هنالك ما يكون وعلى ذلك عليك ان تتأهب للسفر .

تولتني الحيرة في الحال لهذا اللغز وما يحيط به من الاسرار الرهيبة . أأكون ابن احد الاشراف أو ابن احد كبار موظفي بلاط فرعون او ابن كاهن أو قائد في الحرس ! ارتبك فكري لهذه الاحتمالات وضايقتني مضايقة شديدة .

ولكن من الغريب انني شعرت بارتياح لدى فكرة مغادرتي القرية لان نفسي كانت تعاف جداً الاشتغال بحشائش البردى . ومع انني تربيت بين أهل القرية فقد امتلأت نفسي من نحـــوهم بشيء من الضجر والسآمة بحيث لقبوني « بالمتكبر » . وفوق ذلك لم أر في حياتي مدينة« منف» التي اشتهرت باسوارها البيضاء وابراجها العالية اللامعة في الشمال .

لم يستغرق تأهبنا للسفر مدة طويلة لان مربيتي العجوز كانت قد خاطبت ولي امري في أمر سفرنا واتفقت مع احدى جاراتها على ان تقدم اليه الطعام عند عودته من العمل . وعلى ذلك لم تمض مدة وجيزة حتى أعد كل شيءفتناولنا طعامنا وذهبنا لاستعارة زورق او استئجاره .

وكانت مربيتي بخيلة شديدة الطمع بحيث تولاني الضجر والسآمة لما اظهرته من المماطلة في مساومة صياد أرادت ان تتفق معه ليأخذنا في زورقه الى مدينة منف . وكان شغفي شديداً لمغادرة القرية بحيث حاولت التدخل بينهما مرات عديدة فكانت تمنعني بكلمـــات قاسية الى ان أذعن الرجل في النهـــاية لشدة الحاحها ولملله اكثر من اي سبب آخر .

وكانت الشمس قد أخذت تميل نحو الغرب عندما سار بنا الزورق في النهاية فوق مياه « سيحور » الهادئة . وكان تيار المياه يساعدنا على المسير فلم تمض مدة وجيزة حتى وصلنا الى اطراف مدينةمنف ولو انه خيل إلي ان الرحلة كانت بطيئة لما تولاني من الرغبة الشديدة لمعرفة ما سيصيبني على ايدي كهنة المعبود بتاح .

اخذت اتنقل بملل في الزورق الصغير الى ان أمسكت العجوز بحزمة الاوراق الثمينة وأمرتني بلهجة شديدة ان الزم السكون والا غرقنا كلنا في النهر في حين صاح الصيادقائلا: خير لي ان اشتغل بأحد المجاذيف .

لزمت السكوت عندما نالني هذا التوبيخ وقلت في نفسي يجدر بي ان أطيع مربيتي مدة وجيزة أخرى اذا كنت سأصير بعد قليل من أشراف مصر .

أخيراً انتهت الرحلة لفرحي وسروري فرأيت امامنا أسوار المدينة البيضاء وقد صبغتها الشمس عند غروبها بلون احمر ووصلنا الى محط رغبتي .

رأيت المعابد والقصور والاسواق والامكنة الفسيحة المزدحمة وثكنات الجنود فأخذت احدق اليها النظر وقد تولتني الدهشة، والزورق يسير بنا ببطء امام المدينة الى ان وصلنا الى مرفأ بجوار سوق صغير حيث ربط الصياد زورقه فنزلنا الى البر فحاولت مربيتي البخيلة مرة اخرى مساومة الرجل .

وكان الظلام قد أخذ يخيم على الشوارع الضيقة عند ما أخذنا نسير في طريقنا الى منزل صديق لمربيتي حيث قالت اننا سنبيت عنده الليلة وقد وافقت على هذه الفكرة مرغماً لانني كنت اود الذهاب تواً الى هيكل المعبود بتاح .

على ان رغبتي هذه الشديدة لم تلبث ان خفت أو ضاعت على أثر رؤية المناظر الغريبة التي تمثلت امام عيني في المدينة . ولا عجب فانني لم أر في

حياتي بلدة أكبر من القرية التي تربيت فيها . وعلى ذلك اغمضت عيني تلك الليلة ونمت في الزاوية التي اعدت لي عند وصولنا الى المنزل الذي استقر الرأى على المبيت فيه واعني به منزل منميرو النحات الذي يشتغل في هيكل المعبودة « سخت » التي يشبه رأسها رأس هرة .

سرنا في المدينة في بكور اليوم التالي قاصدين هيكل المعبود « بتاح » لان مربيتي اتسيار أرادت ان تحضر الحفلة اليومية هناك قبل ان تأخذ أوراق البردي والخاتم الى الكهنة . وكنت من جهة اخرى أرغب في رؤية أشياء جديدة من المدينة وجلال المعبد المشهور الذي سمعت شيئاً كثيراً عنه في قريتنا الصغيرة .

لم نقض مدة طويلة في التفافنا حول الأبنية العديدة حتى وقعت أعيننا على أعمدة الهيكل الضخمة الخارجية . وكان فوق كل عمود منها أربعة قضبان لحمل الاعلام التي انعكست عليها اشعة « هورس » أي الشمس المشرقة .

اجتزنا باباً صغيراً بين كتلتين كبيرتين من الصخر قائمتين على شكل اسدين منحوتين واختلطنا مع جماعة اخرى من المتعبدين الذين جاؤا مثلنا لرؤية حفلة الصباح التي تسمى حفلة كشف النقاب ثم دخلنا رحبة صغيرة مرصوفة بحجارة حمراء ملساء .

وكان الظل يغطي نصف هذا الفناء القرمزي في حين كانت اشعة الشمس الذهبية تغشي النصف الآخر وفي الوقت نفسه تضيء على قواعد الاعمدة الضخمة المصنوعة من الجرانيت الاسود قبل ان ترسل بهاءها الى الاروقة المظلمة التي وراءها .

لم يكن في وسع الانسان ان يسمع شيئاً اللهم الا وقع الاقدام الخفيف اثناء سير المتعبدين الذين صرنا ضمن عدادهم في فناء المعبد لانه لم يكن يجرؤ احد على

التكلم داخل الهيكل الا بصوت خافت .

اجتزنا في الجانب الآخر باباً ثانياً مغشى بنقوش وكتابات غريبة . وكان هذا الباب يؤدي الى القاعة الكبرى الخارجية للهيكل نفسه ، وكان سقفه محمولا على اعمدة تنتهي برؤس تشبه زهرة اللوتس وينعكس داخله ضوء النهار المنبعث من الكوات الصغيرة المرتفعة في اعلى الجدران .

وقف الناس في هذا الجانب من القاعة فأشارت الي اتسمار ان اتبعها فسرنا الى ان وصلنا الى الصفوف الامامية نحو اليمين واذ ذاك همست مربيتي في اذني قائلة :

— لم يكن يسمح في الايام السابقة لعامة الشعب بالوصول الى هذه القاعة او الى الفناء الخارجي الا في ايام الاعياد ولكن « خورهمت » رئيس كهنة « بتاح » سمح اخيرا لهم بحضور حفلة « كشف النقاب » كل يوم على شرط ان لا يتجاوزوا الصف الثالث من الاعمدة .

وكانت الحفلة قد بدأت عند وصولنا اذ شاهدت في قاعة داخلية — لا يفصلها عن القاعة الخارجية غير صف من الاعمدة — جماعات من الكهنة وكانوا يحملون ادوات ورموزاً مختلفة في ايديهم وهم واقفون جامدين خارج باب صغير مزين زينة بديعة تتدلى عليه ستارة قرمزية .

أحدقت النظر واخذ قلبي يدق بشدة خوفاً ودهشة . ولا عجب فانني لم اشهد في حياتي حفلة كبيرة مثل هذه غير الحفلات الصغيرة التي كنت اشاهدها فى قرية ولي امري .

ارتفع من وراء الستار القرمزية صوت ترتيل مع نغمات حلوة رقيقة كانت تنبعث من وراء صفوف الاعمدة المظللة حيث رايت خيال صبيان وفتيات في

سني بثياب بيضاء .

تلاشت الاغنية وساد السكون واخذت سحب خفيفة من الدخان ترتفع ببطء من مباخر يحملها الكهنة .

تعالت الاصوات بالغناء والترتيل ثانية وسجد الكهنة ثلاثاً وعلى اثر ذلك فتحت ستائر المقصورة الداخلية فجأة وظهر من خلالها رئيس الكهنة فوقف مولياً وجهه ورفع يديه الى السماء .

وكان رئيس الكهنة رجلا معتدل القوام مملوء الجسم تجاوز الخمسين ، حليق الرأس واللحية حسب عادة جميع القديسين . وكان يلبس حول عنقه وجسمه رموزاً وصوراً دينيـة مختلفة وقـد عرفت من بين هـذه الرسوم بصفة خاصـة « الزورَق المقدس » للمعبود «خونسو» حامي قريتنا المقدسة. في حين كان فوق ردائه جلد فهدناعم صنععلى شكل ثوبخارجي .

وقف رئيس الكهنة على هذه الحال هنيهة فتقدم اليه احد الكهنة ووضع شيئا ملفوفاً في قطعة من الكتان الابيض في يديه فتناوله رئيس الكهنة ثم اختفى ثانية وراء الستارة .

سألت مربيتي بصوت خافت عما يجري فقالت ان رئيس الكهنة أخذ تمثالا صغيرا للمعبودة « معات » الهة الحقيقة ليقدمه الى المعبود « بتاح » العظيم . وكانت العجوز تتكلم برهبة فقالت ان هذا اعظم جزء مقدس في الحفلة لان المعبود يعود الى الحياة في تلك اللحظة كل يوم ولو انه لا يرى « كشف النقاب » داخل المقصورة احد غير رئيس الكهنة وحده .

اوقد الكهنة في هذه اللحظة اربع مباخر اخرى فتصاعد البخور فجأة وملأ الهيكل برائحة زكية وعندها ظهر رئيس الكهنة ثانية قائلا .

ــ مرحباً بالمعبود بتاح القوي المجيب ذي الاشكال المتعددة ، بتاح الخالق ، متعدد الوجوه . لقد صحا المعبود !

تعالت اصوات الغناء والترتيل اذ ذاك فجأة فانبطح الجميع على وجوههم وخروا ساجدين فوق ارض المعبد المصنوعة من الرخام . وكان قد تطرق الى نفسي في ذاك الوقت شيء من جلال هـذه الاعمال ورهبتهـا فانبطحت عـلى وجهي كذلك واخذت أصلي الى المعبود « خونسو » ليتوسط بيني وبين المعبود الاكبر « بتاح » .

جلست مع مربيتي اتسيار في كوة منحوتة في الجدران الضخمة بسكون بينما اخذ المتعبدون يقدمون القرابين من الخبز والخمر الى الكهنة . وقد قضيت وقتي في فحص الاعمدة الضخمة والنقوش البديعة التي حولها باهتمام شديد . اما مربيتي فكانت تمسك الخاتم بحرص وهي جالسة في الظل تنتظر بصبر حتى ينتهي الكهنة من اعمالهم .

أخيراً مر بنا كاهن حليق الرأس فلما وقع نظره علينا سألنا عمـــا نريد فاخرجت أتسيار عندها ملف الاوراق والخاتم وارتهما اياه واخذت في الوقت نفسه تشرح له مهمتها . فتملكته الحيرة على ما يظهر ولكنـه امرنا مع ذلك بلهجة لا تخلو من الشدة ان ننتظر خارجـاً في فنـاء المعبد ثم اختفى من باب صغير جانبي يؤدي الى القاعة الخارجية .

على انه عـاد بعد مدة وجيزة وبرفقته شاب يرتدي ثيـــاباً فاخرة مزركشة طويلة وعلى رأسه قلنسوة طويـلة مزينة بالريش المـلون ومحبوكة بعصابة قرمزيةاللون . وقد أخبرنا الكاهن ان هذا الشاب من كتبة معبد بتاح وعلى ذلك أرته مربيتي اتسيار اوراق البردي بعد تردد طويل .

فحص الكاتب الاوراق بدقة وكـذا الخاتم ثم نظر الي نظرة طويلة حـادة

شعرت على اثرها بشيء من الخجل لظهوري بثيابي الرثة أمام مثل هذا الشاب النبيل الذي يرتدي مثل هذه الثياب الفاخرة .

أخيراً اشار الشاب الينـا لنتبعه فأذعنـا لأمره عن طيب خاطر وسرنا الى اليمين نحو المدخل الداخلي ومنه الى دهليز طويـل به أعمدة عديدة قائمـة حول القاعة الخارجية ومن ثم الى سلسلة غرف مملوءةبادوات غريبة . وقـد رأيت في كثير من هذه الغرف كهنة كانوا يشتغلون بهذه الادوات أو بالكتابة والتصوير على اوراق كبيرة من الجلد.

أخيراً دخلنا غرفة صغيرة بها دواليب من خشب الارز، داخلها مئات من ملفات ورق البردي . وفى الواقـع لم ار في حيـاتي مثل هذا العدد من الكتب لان الرجال في القرية التي تربيت بها قلما يملكون ملفاً من الاوراق واذا وجـد معهم اخذوه الى مدينة منف لقراءة ما فيه .

غادرنا الشاب في هذه الغرفة وحدنا وسار في طريقه مجتازاً بابا اسدلت عليه ستارة قائلا « انتظروا » وكانت مربيتي اتسمار مضطربة في ذاك الوقت على ما يظهر اذ رأت نفسها في مكان من المعبد لم تزره من قبـل . اما انا فلا انكر انني شعرت بدهشة وارتباك .

عاد الكاتب المقدس بعـد قليل وبرفقته شيخ تحف يه المهابة على رغم تقوس ظهره ، له عينان سوداوان حـادتان . وقـد عجبت من امر هاتين العينين لانهما كانتا واسعتين حالكتي السواد . ومع ان الشيخ كان في الحقيقة ينظر الي وجها لوجه فقد خيل الي ان عينيه تخترقان جسمي وتنظران الى شيء ما وراءه .

صاحت اتسمار على أثر دخوله بصوت مضطرب قائلة :

ـ تحية وسلاماً ايها السيد خرهب(ومعناها الساحر الاكبر)العظيم الشأن .

ثم القت نفسها على الارض بحالة اضطراب، أما انا فبقيت واقفا على قـدمي لاأدري من يكون هذا الرجل .

مكث الشيخ بضع دقائق وهو يفحصني بعينيـه الثاقبتين ويهز رأسه ببطء علامة القبول في حين أخـذت اشعر بالخوف يتسرب الى قلبي شيئـاً فشيئاً من نظراته .

أخيراً تحول الرجل وخاطب الكاتب ببعض كلمات فاخرج الشاب عندها من ثيابه كيساً صغيراً من الكتان به نقود ذهبية ثم اشار الى مربيتي ووضعه في يدها المضطربة .

قال الكاهن الشيخ بصوت هادىء خافت .

– لقد قدمت الى المعبود الاكبر بتاح خدمة جليلة . الان اذهبي .

فقالت مربيتي ويداها تمسكان بكيس الذهب .

– اذا كان لنزور قد صار نبيلا عظيما فلا ريب ...

أن لنزور سيمكث هنا ولا ترينه بعد الآن .

انتفض جسمي عند سماع هذه الكلمات فخاطبني الكاتب عندها قائلا وهو يبتسم :

– كلا لا تخف ايها الصبي . لا يصيبك أذى .

ثم تحول الى مربيتي العجوز وقال :

– هل سمعت ؟ .

فقالت اتسار :

– نعم ايها العظيم ولكن ولدي ...

– لم يعد ولدك بعد الآن . انه مدعو لأمور عظيمة .

ترددت العجوز مع ذلك بدافع حي على ما يظهر فشعر قلبي بميل كبير نحوها لم اشعر به في خلال الاعوام العديدة التي اكرهتني فيهـا على العمل لاجلها ولاجل بعلها .

استطرد الشيخ في حديثه قائلا :

– لقد نلت مكافأة على خدمتك فاذا انصرفت الآن دون كلمة ولزمت الصمت فيما يتعلق بهذا الامر فانك تنالين مكافأة كهذه كل عام في التاسع من شهر ثوث على يد الكاهن الذي يأتي من منف الآن اذهبي ! .

تحولت مربيتي اذ ذاك وانصرفت دون ان تفوه بكلمة واحـدة ودون ان تلقي على وجهي نظرة فأدركت اذ ذاك لاول مرة أن الذهب حياتها الوحيدة وولدها الوحيد ومعبودها الوحيد ولم أرها بعدها .

صرف « خرهب » الكاتب على أثر ذهاب مربيتي ثم أمرني بالجلوس بصوت حنون فجلست في طرف مقعد غريب منحوت وقد تملكني الاضطراب .

جلس الشيخ بجانبي ثم قال :

– لنزور .. لان هذا اسمك الى اليوم – لقـد بلغت الان الخامسه عشرة من عمرك فمن الصواب أن تعلم شيئاً عن نفسك والشرف الذي استدعيت له .

تغلب عجبي على عواطفي لما اظهره الشيخ نحوي من الحنان فسألته قائلا :

– هل انا ابن احد نبلاء قصر فرعون ؟

فلم يجيبني الشيخ بكلمة بل نظر الي بعينيه السوداوين الى ان شعرت بخجل وخوف من السر ومعرفة السر الذي أخفي عني .

عاد الشيخ الى الكلام بعد هنيهة دون ان اقاطعه قائلا :

– لقد فرغت منذ الان من حياتك الريفية فهي الآن في عـداد الماضي فلا تذكرها بعد . انك استدعيت كما قلت لك لامور عظيمة – لاحظ أيها الصبي انك استدعيت ولم يقع عليك الاختيار – وستمكث هنا في هيكل بتاح سبع سنين لتتعلم في خلالها ما يؤهلك للمركز الذي ستشغله . وسيلقنك ولدي ساست – الذي سيكون خرهب رئيس سحرة الهيـكل بعـد انتقـالي الى احضان اوزوريس – سر بتاح الخالق وطقوسه الدينية وسيعلمك بيق رئيس الكتبة كتـابة الكهنة وسأعلمك انا تاريخ مصر القـديم وواجبات الملوك والامراء والاشراف وفوق ذلك سيعلمك ولدي الآخر امينمحمت كيف تكون جندياً ماهراً تقاتل بالقوس والنشاب والرمح والسيف والصولجة .

امسك الشيخ عن الكلام هنيهة في حين اخذت اتململ في مقعدي ، لا أكاد اتملك عواطفي من شدة الابتهاج والفرح . اخيراً عاد الرجل الى الكلام فقال :

– ستقضي سبعة اعوام على هذه الحال التي وصفتها لك ، حافظاً عقلك من الشرور ، جاعلا جسمك مستقيما قوياً وروحك نقية طاهرة امام الآلهة . فاذا سلكت بعد انتهاء هـذه المدة سلوكاً حسناً صادقاً استشير في امرك الكاهن الاكبر النبيل خورهمت فيعلن لك كل شيء وعندهـا تشغل المـكان المعد لك . اما اذا كنت من معدن وضيع منحط القيمة .

أمسك الرجـل عن الكلام فجـأة ثم نظر الي مرة اخرى نظرة شديدة من تحت حاجبيه الاشيبين الى ان تملكني الرعب فقفزت وصحت قائلا :

– سأبذل اقصى جهدي وحق المعبود خونسو .

تبسم الشيخ لقولي هذا ثم وقف ووضع يده على رأسي وتمتم قائلا :

– انك لا تزال شاباً صغيراً ولكنك بطل الرواية التي ستمثل بعد بضع سنين في ارض مصر .

قضيت بقية ذلك اليوم مع ساست وامينمحعت ابني خرهب وكلاهما يزيد عمره عني عشر سنوات فأصدرا امرهما بحرق ثيابي الرثة واعطياني بدلا منها ثياباً تليق بمركزي الجديد وعرفاني اين آكل واين انام . على انهما لم يشرعا في هذا اليوم في القيام بشيء من واجباتي بل قضيا الوقت فقط في شرح الطريقة التي اسير عليها في المعبد .

ومع انهما كانا يعاملاني في اغلب الاحيان كما يعامل المعلم تلميذه الا انهما كانا في بعض الاوقات يخاطباني بلهجة تنم على الاحترام والاجلال لشخصي. ولعمري تولتني الحيرة وقلت ترى مـن اكون حتى يظهر لي مثل هـذين النبيلين دلائل الاحترام والاعظام مع انني لست الا ربيب رجل فلاح قضيت حياتي في القرى.

صليت تلك الليـلة في غرفتي الصغيرة التي اعـدت لي – الى المعبود بتاح الذي صرت الان تحت عنايته ان يجعلني جديراً باحترامهما – خصوصاً احترام ساست .

شرعت أتلقى دروسي في اليوم التـالي فأخذت في الصباح أتعلم بارشاد ساست تاريخ آلهة مصر : ارزوريس وست وايزيس وقوة بتاح العجيبة .

رأيت ايضاً – ولو ان ذلك لم يكن ضمن دروسي – ان عيني ساست تشبهان تماماً عيني أبيه خرهب الساحر اللتـين ادركت في اليوم السابق مـا لهما من التأثير والنفوذ . وقد زاد اعجابي به ثلاثة اضعاف عندما اخذت ادرك مبلغ ما في تينكما العينين من القوة التي تدل على ان صاحبهما يعرف اسرار الالهـة ويعرف كيف يستخدمهما

لما فرغ ساست من القاء دروسه اخذ بيتي رئيس كـتبة الهيكل يعلمني فائدة كتابة الكهنة وقراءة اللغة الهيروغلوفية القديمة . وقد شعرت بميل شديد الى تعلم الكتابة وزادت رغبتي في الوقوف على مـا تضمنته ملفـات البردي العديدة التي رأيتها مع مربيتي اتسهار في الغرفة الصغيرة وكذا كنت اتوق الى حل رموز الكتابة المنقوشة على اعمدة الهيكل وجدرانه وهكذا كان في وسعي أن أزيد معلوماتي بمجهوداتي .

ذهبت بعد الظهر الى امينمحعت وهو مقاتل قوي الجسم عريض المنكبين يختلف عن شقيقه ساست الذي كان طويل القامة نحيف الجسم والذي كانت قوته في روحه لا في جسمه

لم تمض مدة وجيزة حتى عرفت بارشاد امينمحعت الاسلحة المختلفة التي يستخدمها الجنود وكيفية استعمالها . وكنت اقضي ساعـات طويلة ممـلة في التدريب على الرماية بالقوس والنشاب والصولجة في مكان فسيح وراء الهيكل الى ان تغرب الشمس وراء الافق .

زرت « خرهب » الشيخ مرة اخرى فأخذ يعلمني تاريخ مصر القديم من اوراق البردي وكنت اميل الى معرفة تاريخ بلادي اكثر من كل شيء آخر . ولا عجب فان تاريخ مصر العزيزة ومجدها العظيم قد زرع في قلبي حب الخير لها والتفاني في خدمتها ..

(وهناك يوجد فراغ في القصة يتنـــاول حوادث نحو سبع سنوات على ما يظهر)

٢

كنت جالساً صباح ذات يوم في غرفة الكتب ادرس ملفات اوراق البردي الخاصة بحروب رعمسيس المقدس الذي كان فيما مضى فرعون مصر والذي انضم الان الى احضان اوزريس — اذ جاءني احد الكهنة واخبرني ان خرهب المقدس يريد مقابلتي .

ذهبت في الحال الى الغرفة التي كان يقطنها خرهب الشيخ قبل موته وهو الساحر الاكبر الذي يشغل وظيفته الان ابنه ساست صديقي .

اخذ ساست عند قدومي يضع بضع ملفات من الرق عليها نقوش ورموز سحرية كان يشتغل بها في امكنتها ولما فرغ من ذلك جلس امامي وقال :

— لقد أرسلت في طلبك أي لتزور لكي اخاطبك في امر جليل الشأن فعليك ان تلاحظ ما سأقول . تعلم ان هذا شهر « باشون » وهو الشهر عينه الذي جئت فيه الى هذا المعبد منذ سبع سنوات . وقد تعلمت في خلال هذه المدة كل ما يجب معرفته وتهذبت على يدى والدي الذي ذهب الان الى احضان اوزوريس في آمنتي (مسكن الارواح عند المصريين القدماء) وعلى يدي امينمحعت أخي ويدي بيتى الشيخ . وقد اظهرت في خلال مدة تعليمك من

الصفات ما أثار اعجابنا بك وارتياحنا . وبناء على ذلك قد رضي «خورهمت» نفسه عنك وامرني أن اتكلم وعلى ذلك من اللائق يا لنزور ان تعلم —بعد ان بلغت سن الرشد — من انت وما الذي استدعيت لأجله .

امسك ساست عن الـكلام هنيهة ثم مال نحو المنضدة وعــاد الى الكلام فقال :

— هل تريد ان تخدم وطنك المحبوب مصر ؟

فأجبته قائلاً :

— نعم حتى ألفظ النفس الاخير .

ولا عجب فقد تملكني حب بلادي المحبوبة الجميلة ، ارض الشجعان والنبلاء والنساء الحسان « ارض الاديان والاسرار التي يرجع عهدها الى العصور المظلمة التي حكم فيها ابناء «هورس» الارض، ارض آبائي واجدادي، ارض خم الخصباء .

ابرقت عينا ساست ابتهاجاً وقال :

— اعلم ذلك . لم اعلمك وحق ازوريس كل هــذه المدة الطويلة عبثاً وفوق ذلك اخبرني شقيقي امينمحعت انك اظهرت مهارة فائقة في ضروب الحروب والقتال .

ضحكت ابتهاجاً لان مكانتي علت في نظري الان وقد مضى وقت تجربتي وفي الواقع هذا ما يشعر به الشاب اذا كانت امامه اعمال جليلة لان الانسان لا يستطيع ان يرقى المناصب العالية ويحتفظ بها اذا كان يعتقد في قلبه ان هناك كثيرين آخرين يستطيعون القيام بها خيراً منه .

ولعمري كنت مقاتلا شديد البأس بآلة الحرب التي تسمى الصولجة (وهي

آلة مكورة الرأس تستخدم لكسر الدروع) وجعلتها سلاحاً رهيباً في يدي بما اضفته من الاسنة الشائكة في رأسها الثقيل . وقد اظهرت كذلك مهارة كبيرة في القراءة والكتابة وتعلمت فوق ذلك شيئاً من السحر من ساست الذي كان مثل ابيه يحل الاسرار الخفية كأنه يقرأ في كتاب مفتوح . وعدا ذلك كانت لديه روح تساعده كثيراً فتظهر له في الاحلام وتخبره كثيراً من الاشياء التي تخفى عن انظار البشر .

اخيراً قال ساست بعد ان نظر الي ملياً :

— لا اخالك تجهل يا لنزور ان الامور في مصر اليوم ليست كما يجب فقد ضعف مجد ابناء رعمسيس ، المعبود العظيم كما يضعف نور القمر بعد ان يكون بدراً الى ان صار الملك رعمسيس الثاني عشر الذي يحمل الان تاج مصر المزدوج ألعوبة لشيخوخته وضعفه ، لا يمتلك الا شيئاً ضعيفاً من السلطة الملكية . على ان هذا مع ذلك لا يدعو الى الاسف — لانه كثيراً ما حكم الوزراء في الايام السابقة بالحكمة واصالة الرأي في حالة ضعف الملوك — لولا كهنة آمون الذين يقبضون على زمام ذاك الملك ويحركونه كما يشاؤون .

ثم تغيرت لهجته بلهجة الجد وقال :

— ليس كهنة آمون الذين يوجد هيكلهم في مدينة « ني — آمون » الجميلة — مثل كهنة بتاح ، لاننا — كما رأيت في حفلة كشف النقاب — لا نمنع احداً من الحفلات الدينية والوقوف على اسرار الآلهة لكي يستمد الجميع القوة والعزاء من الدين . أما كهنة آمون فلا يريدون الا الاستئثار بالسلطة واخفاء الدين عن الشعب لكي يرهبوا بذلك الناس ويخضعوهم لارادتهم . ولعمري طمع حرحور رئيس كهنة آمون في العرش عند موت فرعون ، وله الحق في ذلك لانه من الاسرة الملوكية .

فسألته قائلا :

– وكيف ذلك ؟

فأجابني ساست قائلا .

هكـذا : تزوج ابوه آمـون – حوتيب وكان رئيس كهنـة آمـون قبـل حرحور .. بالسيدة آست وهي اميرة من الاسرة الملوكية وابنة رعمسيس السادس فرعون مصر في ذاك الوقت وشقيق الملك الحالي الاكبر وعـلى ذلك يكـون حرحور على رغم تقدم سنه ، ابن شقيقة فرعون الاميرة آست وفوق ذلك من أسرة عريقة .

فسألته قائلا .

– ولكن أليس لفرعون ولد من زوجته الملكة يحول بين هذا المغتصب وبين العرش ، لانه مغتصب بلامراء ؟

– يوجد فعلا أمير يستطيع أن يدعي انه ولد فرعون وهذا الامير يدعى سيتو ولكن لا اهمية له .

– ولأي سبب ؟

لانه لم يولد من الملكة بل من امرأة اخرى هي شقيقة حرحور الكبرى وعلى ذلك فهو من زمرة خاله . وفي الواقع من المعروف جيداً انهم اتفقوا على ان يتنازل سيتو الذي لا تهمه سلطة الملك والقوة – عن جميع القابه وحقوقه لخاله حرحور . ولعمري سلك الامير سيتو سبيل الحكمة لانه لا يستطيع الوقوف في وجه خاله لكي يحول بينه وبين العرش اذا ما انتقل ابوه الى احضان اوزريس .

– اذن يؤخذ من قولك هذا،ان حرحور هذا، رئيس كهنة آمون، سيصير فرعون مصر على كل حال بعد موت فرعون المعبود لانه من الاسرة الملوكية من ناحية امه ومنافسه الوحيد ابن اخته الذي تنازل له عن حقوقه .

فهت بهذه الكلمات بامتعاض شديد ولا عجب فقد كنت انا ايضاً أمقت كهنة آمون في قلبي كغيري من الذين يعبدون « بتاح » . وعندي صدق ساست فيما قال فقد كان هؤلاء الكهنة خادعين غادرين يعملون لمصلحتهم دون خير الشعب ورفاهيته . وفـوق ذلك لديهم ثروة طائلة في البلاد ونفوذ عظيم خصوصاً في طيبة حيث يقيم الفراعنة منذ اجيال عديدة .

فكرت هنيهة ثم عدت الى الكلام وقلبي مفعم بالغضب قائلا .

– يخيل الي اي ساست انه اذاجلس كاهن من كهنة آمون على العرش فان الامور تجري سيئة فيما يتعلق بالمعبود بتاح واتباعه الذين يسعون دائماً لعمل الخير لان كهنة آمون ذوو نفوذ عظيم وفوق ذلك سينضمون الى كهنة رع مدينة آن المقدس .

فقال ساست مرة أخرى .

– لقد نطقت بالصواب .

وقد لاحظت انه يراقبني بدقة وانا اقلب المسألة في فكري . وكان غضبي يزداد ثورة كلما فكرت في ان الامور ستجري على هذا المنوال في بلادي المحبوبة

استطرد صديقي في حديثه قائلا .

– يجب ان لا يكون ذلك .

فقلت،وقد غلى مرجل غضبي .

– بلا وحق الآلهة . ولكن من ...

رأيت اذ ذاك كيف استخدم ساست شعوري بواجبي وحبي لبلادي فقادني الى الغرض الذي يرمي اليه اذ لم يلبث ان قام من مقعده وسجد امامي وصاح فجأة بصوت كالرعد قائلا .

– انت ! انت اي رعمسيس ، الامير الوراثي ووارث ارض مصر العليا والسفلى ، انت وليد الدم الملوكي ، ابن فرعون ومن بيت «ست–ان–خوتى» الشريف .

قفزت مذهولا ووقفت فاغراً فاي جاحظ العينين ، ينبض دمي في عروقي بشدة وخيل الي ان الغرفة الصغيرة تميد بي

مكثت لحظة لا اصدق ما سمعته اذناي . ولا عجب فقد ذهلت وغاب ادراكي لهذا النبأ المدهش – اذا كان حقا . ومع ذلك كان ما قاله ساست اكبر من ان يكون فرية افتراها – اذن هي حقيقة .

ترى ما الفائدة من تعليمي كما لو كنت اميراً من الامراء ؟ وما السر فيما كان يظهره المعلمون والكهنة لي من الاحترام والاجلال ؟ وما السبب في المجيء بي الى معبد بتاح ؟ وجدت في الكلمات التي فاه بها ساست شرح كثير من الاسرار التي حيرت فكري .

قلت في النهاية بصوت خافت :

– قم ايها الصديق فاني لا اريد رؤيتك على هذه الحال .

قام ساست ثم وقف امامي بسكون .

جلست في مقعدي ثانية خائر القوى وقلت :

– اخبرني الان هل ما ذكرت هو الحقيقة ؟ هل انا حقاً ابن فرعون او هل لست الا شابا منحط المولد جئتم به على هذه الحال لتغتصبوا العرش وتطردوا الذين يخدمون المعبود آمون الاكبر ؟

– بلى انك الامير رعمسيس ابن فرعون كما اخبرتك بذلك الآن . ان قصتك طويلة مملوءة بالغرائب وهذه خلاصتها :

« مات الامير الاول شقيقك قبل ولادتك وقبل ان يتولى ابوك الملك لانه صار فرعون مصر بعد ان شهد فيضان سيحور (النيل) ستين مرة . وقدولدت ايها الامير بعد اربع سنوات من زوجة ابيك الملكة لان اباك كان قوي البنية على رغم تقدم سنه . وبعد ولادتك بقليل حملت شقيقة حرحور بالامير سيتو الامير الحالي وهو شقيقك من ابيك .

« اتقدت نيران الغضب في نفس حرحور عند ولادتك لانك لما كنت مولوداً من الملك والملكة كنت الحائل بينه وبين العرش الذي يتوق اليه منذ ثلاث وعشرين سنة وعلى ذلك اتفق ذات يوم – وانت لا تزال طفلا صغيراً – ان تمكن حرحور هذا من ان يقنع اباك فرعون بان السبع هاتورات – وهن الشقيقات اللائي يتنبأن بمصير كل طفل يولد – زرنه في المنام وتنبأن له بأنك ستكون سبباً في جر الويلات على رأس ابيك فرعون . ولا ادري هل كانت هذه النبوءةصادقة او غير صادقة لان الآلهة تستطيع القيام باعمال غريبةمدهشة لا نستطيع نحن القيام بها كما في وسعي انا « خرهب » المعبود بتاح ان اشهد بذلك .

« وعلى كل حال اضطرب قلب فرعون اضطراباً عظيما . وسواء كانت هذه النبوءة صادقة او غير صادقة فقد لعب حرحور برأس ابيك حتى امر في النهاية بقتلك . وقد كاد هذا الامر يتم لو لم تخفك امك الملكة وكانت فيما

مضى كاهنة للمعبود بتاح في منف — وتقدم طفلا اخر بدلا منك .

« على هذه الحال اذن جيء بك الينا وبواسطتنا اعطيت الى امراة عجوز فلاحة لتقوم بتربيتك ولتكون في مأمن لان كهنة آمون يبثون العيون والارصاد في كل مكان »

وكانت قصة ساست الطويلة قد اعطتني فرصة للتفكير فقلت وانا اكاد اخاطب نفسي .

— اذن لهذا السبب تعلمت وتدربت .

فتمتم ساست قائلا :

— ولا اظن انه ينقصك شيء مما يمتاز به الملوك والامراء

ساد السكون بيننا هنيهة الى ان قلت بحمية :

— متى اتقدم لمواجهة هذا الكاهن المغتصب ؟

القيت هذا السؤال ونيران الحماسة تتقد في نفسي . ولا عجب فقد شعرت في نفسي بعد ان ادركت حقيقة الامور برغبة شديدة لاتمام الغرض الذي لاجله خلقت وتربيت .

اجابني ساست وهو مطرق قائلا .

— هناك امور عديدة يجب القيام بها . فيجب استشارة الالهة اولا في الامر اذ يحتمل ان الوقت لم يحن بعد . ثم يجب بصفتك الامير الوارث للعرش ان تتلقى اسرار المعبود بتاح على يد والدنا الاكبر النبيل رئيس الكهنة المقدس

كما انه يجب ان تتلقى احترام الموالين لنا في بلاد الدلتا واخلاصهم لك . وفوق ذلك يجب اعداد كل شيء للسفر اذ كن واثقاً ايها الامير رعمسيس ان كهنة آمون الذين يبثون العيون والارصاد في كل مكان لا يسمحون بوصولك سالماً الى ني – آمون . ان عرش فرعون ليس بالشيء الصغير فلا يمنع حرحور شيء عن الاستيلاء عليه لنفسه ولنسله . نعم يجب القيام باعمال كثيرة قبل ان تستطيع القيام بمهمتك وستقام بعد ثلاثة ايام حفلة عظيمة مقدسة تقسم فيها امامنا جميعا قسما رهيباً ان تخدم مصر المحبوبة في كل شيء .

فقلت معترضاً :

– ولكن أليس في وسعي ان اشرع في العمل حالا ؟

فاجابني ساست بارتياب قائلا :

– ربما كان في وسعك . من يدري ؟ ان ذلك يتوقف على ارادة الالهة ولكن لا تنس انه لم يعد لاسم لتزور ذكرى بعد الان وانه جاء بدلا منه اسم الامير رعمسيس . ان حياة الامير ليست كحياة صبي فلاح كما ستجد ذلك حالا لان الحياة الملوكية مقرونة دائما بالحفلات وتقديم الفروض والواجبات واقل حرية من احط عبد وضيع لان السلاسل التي تقيد الملك الصالح مصقولة من الشرف لا من الحديد .

فمددت اليه يدي وقلت :

– ولكني لا اخسر اصدقائي يا ساست .

فتبسم وقال :

– كلا . ولكن هذا لانني صديق وقع عليه اختيار خورهمت نفسه بصفتي

رجلا ذا مكانة عالية ، اصلح لمرافقة الامراء . ولو كنت مثلا رفيقاً فلاحاً لك .

هز ساست رأسه ببطء ونظر الي نظرة ابتهاج وسرور . على انه لم يلبث ان رفع صدره وقدم الي فروض التجلة والاحترام ثم قال :

– هل يسرك يا مولاي الامير ان ترى خورهمت المقدس عند غروب الشمس ؟

تملكتني الدهشة لانني لم اكن بعد قد تعودت على اصدار الاوامر خصوصاً الى رجل اجله واحترمه مثل ساست فقلت بلهجة الاستغراب :

– أحقاً ما تقول ؟

فقال ساست :

– نعم يا مولاي .

ثم حنى رأسه وغادرني وحيداً .

قضيت بقية اليوم في ملاحظة التغيير الذي طرأ على سلوك جميع الذين في الهيكل نحوي . فكان الكهنة والكتبة ورجال الموسيقى والكاهنات يقدمون الي فروض التجلة والاحترام اينما ذهبت لان الجميع تلقوا امراً بان لا يخفوا عن انفسهم حقيقة امري . ولعمري اعتقد ان جميع من في الهيكل كانوا يعلمون من انا منذ اول يوم وصلت فيه .

وقعت مظاهر الاكرام هذه في نفسي موقعاً حسناً . لكني بدأت اشعر بعزلة وانفراد لان الذين كنت قد تعودت مصا فحتهم كاصدقاء كانوا يمرون الآن بي بمظاهر الاحترام التي تجب للامراء .

أخيراً استولى علي الضجر والتعاسة فالتجأت الى غرفتي لكي اقضي بها بقية يومي .

جاء خور همت نفسه عند غروب الشمس يرتدي ثيابه الرسمية . ولما شرع يخاطبني ايضاً بالقابي توسلت اليه ان لا يفعل لانني لم اشأ ان اسمع كلمات الاجلال من رجل اجله اجلالا عظيما قلما وقعت عليه عيناي فلبى دعوتي ولما جلست جلس امامي على مقعد، وأخيراً قال :

– لقد راقبتك يا ولدي منذ قدومك الى هنا اي منذ سبع سنوات وانا الذي امرت ساست ليخبرك بما اخبرك به اليوم . والآن لا اخالك تجهل من انت ؟

– نعم يا ابتاه لقد عرفت من انا ومع ذلك اشعر على رغم افتخاري بمكانتي بخوف من جراء ما علمت .

– هذا حسن لان على الملك ان يدرك تماماً ان التاج الذي يلبسه على رأسه مثقل بالتبعة . الآن اعلم يا ولدي انه وان كنت انت الامير الوارث للعرش وانا لست الا رئيس كهنة بتاح فانني طاعن في السن واسع الخبرة في حين لا تزال انت شاباً وعلى ذلك اريد ان القي على مسامعك بضع كلمات عن خبرة ودراية فاعلم انك تحمل على كاهلك من الان فصاعدا جميع متاعب وطنك ، مصر المحبوبة وويلاتها – كما تحمل أيضاً جميع هنائها . انك الربان ومصر السفينة . فلكي تستطيع السفينة ان تتغلب على عواصف الدسائس والاديان الكاذبة واهراق الدماء الذي يحيط بها يجب ان يكون الربان نقياً مجربا مختاراً .

ثم صاح الشيخ فجأة قائلا :

– انظر الآن الى نفسك ايها الربان لان عليك تتوقف نجاة السفينة وسلامة

بحارتها ! .

أمسك الكاهن عن الكلام ليمسح شفتيه ويستجمع قواه لانه كان طاعن السن ضعيف الجسم وبعدها عاد الى الكلام فقال :

— لقد عشت الايام الاخيرة سجينا في هذا الهيكل فلم تختلط بعد بالعالم الذي يجب ان تتوقى شروره . اذ ستجد في مركزك الجديد كثيراً من عوامل الاغراء التي تتهددك من حب الكسل والملاهي والطمع والرغبة في الحياة الهادئة والعزلة — ولكن يجب عليك ان تضع واجبك نحو بلادك وآلهتك في المكانة الاولى . ستجد عوامل الاغراء محيطة بك حتى في تعبدك لان هناك كثيرين جعلوا عبادة الآلهة سلماً يتوصلون به الى اطفاء شهوات قلوبهم واجسامهم لا الى ارضاء الآلهة . وعلى ذلك لا يبعد ان تقع في الشر وانت تظهر بمظهر الخير — ولكن ضع مصر في كل شيء نصب عينيك.

وكان الرجل يحدق النظر الي وانا جالس أمامه مسنداً ذقني بيدي، فسكت هنيهة ثم استطرد في حديثه قائلا :

— وأخيراً عليك يا ولدي قبل كل شيء ان تحذر المرأة — اقول قبل كل شيء عليك ان تحذر المرأة لان حب المرأة سر غريب رهيب . ففي استطاعته ان يرفع الرجل الى مكان النجوم ويجعل منه شيئاً اعظم نبلا وكمالا مما يستطيع ان يفعل بنفسه وحده ، وفي وسعه ان يجذبه الى اسفل سافلين : الى الظلمة ، الى النسيان ، الى جميع انواع الشرور وضروب الرذيلة ، اقول لك يا ولدي ان المرأة على ضعفها واستكانتها أعظم سلطانا من اقوى رجل بيننا . ففي وسعها اذا شاءت أن تثنيك على رغم قوتك وشبابك — وتخضعك لارادتها مالم تحم نفسك بصلواتك وتوسلاتك الى الآلهة من شر خداعها . ان الحب اعجب المنح التي اعطاها اوزوريس للبشر واغربها — ولكن حب الوطن أعظم من حب المرأة بل واقوى واطهر . فمصر يجب ان تكون في المكانة الاولى أيها الامير على

الاراضي العليا والسفلى – يجب ان تكون قبل الشباب ، قبـل الثروة ، قبـل الحب ، بل وقبل الحياة نفسها .

فرغ رئيس الكهنة من كلامه . وكان جسمه ينتفض من تأثير كلماته المملوءة حماسة وغيرة في حين جلست أمامه صامتاً الى ان اجبته في النهاية قائلا :

– لن انسى ما قلته ياأبتاه وسأعي كلماتك واحفظها في صدري لكي اتبعها بالنفس والقلب والجسم . على انني لا اظن ان حب المرأة يثنيني عن غرضي لانه ليس للمرأة علي من سلطان .

فتبسم الشيخ ابتسامة فاترة وقال :

– كلا ايها الامير لاتتكلم بمثل هذا الشطط . لم تر الى الآن الا كاهنات بتاح هنا في الهيكل ولكن لم تقع عيناك على النساء اللاتي يقطن في القرى والمدن . ولعمري يخيل الي احيانا ان الذين تمنحهم الآلهة قلوبا طيبة للقيام باعمال نبيلة في الهيكل وعقولا لا تفكر الا بالآراء النبيـلة البعيـدة عن المطامـع – لا تمنحهم وجوهاً او اشكالا حسنة كذلك . نعم يا ولدي لم تر الى الآن المراة وهي في مكانتها المفردة فاذا رايتها فكن حذراً .ان الرجل يسوس اعماله في اغلب الاحيان بعقله اما المرأة فتسوس اعمالها بقلبها وحده ولا يستطيع احد ان يتكهن بما ستفعل . فاحذر يا ولدي ان تتسلط على اعمالـك وتقودك من قلبك – ان تجربتك من هذه الوجهة كلها امامك .

ضحكت في نفسي من هذا القول ولكني لم افه بكلمة .

اخيراً قام رئيس الكهنة واستطرد في حديثه قائلا :

– ستقضي الايام الثلاثة المقبلة ايها الامير في الصيام والتـأهب والاستعداد

لانك ستطلع على اسرار المعبود بتاح وتقف في حضرته ثم تقسم اليمين الرهيبة وسيستشير ساست الساحر الاكبر النجوم في اليوم الثالث ايضا ويقدم الى الآلهة التماس فيما يتعلق بسفرك الى « ني – آمون » لكي لاتضل الطريق في هذا الامر الخطير الذي يتوقف عليه الشيء الكثير .

٣

تمسكت في خلال الايام القليلة التالية بمراعاة الطقوس الدينية الخاصة بتطهير الجسم واعداد العقل قبل الدخول على المعبود بتاح والوقوف في حضرته فلم اذق شيئاً من اللحم او السمك واقتصرت في طعـامي على أكل خـبز القمح وشرب الماء الصافي وكنت أغتسل مرتين اثنـاء النهار ومرتين اثناء الليـل في ساعات تعينها الكتابة المقدسة .

وكان يرافقني دائماً كاهنان بسكون أينما ذهبت لكي يقوما بجميـع حاجاتي حتى لا تتحول أفكاري نحو العالم . وفوق ذلك حظر على ان افوه بكلمة واحدة بصوت مرتفع بين شروق الشمس وغروبها وكنت اذهب كل صباح الى المقصورة الداخلية في الهيكل لحضور صلاة « كشف النقاب » فأقف وراء رئيس الكهنة مباشرة عدا الاوقات الاخرى التي كنت أذهب فيها للصلاة للمعبود « بتاح » .

وهكذا كنت في جميع اعمالي بعيداً عن مشاغل هذا العالم ، متفرغاً للعبادة ومناجاة الآلهة في جو هادىء ساكن .

قمت في صباح اليوم الثالث قبل الفجر فاغتسلت ثـلاثاً ثم ارتديت ثيـاباً ناصعة البياض طرزت عليها نقوش بديعة ورموز مقدسة وبعدها جاء خورهمت

الاعظم فسرت معه في ظلمة الليل وبرفقتنا الاباء المقدسون والكتبة والكهنة وكانوا كلهم يرتدون ثيابهم الكهنوتيه الى ان صعدنا فوق أعلى برج في الهيكل اذ كان علي اثناء النهار ان أطلب مساعدة الآلهة بتقديم القرابين اليها في الوقت المناسب .

وصلنا الى قمة البرج فرأيت بجانب الشرفة التي تطل ناحية الشرق شخصاً منفرداً أخذ يقترب منا فتبينته فاذا به ساست الساحر الاعظم وكان يقرأ النجوم طول الليل بآيات لا يعرف احد غيره عنها شيئاً .

لم يفه ساست بكلمة أو يبد أشارة الا عند ما أخذ كل منا يقف في المكان المعد له ولكنه قدم فروض الاحترام اولا الى خورهمت رئيس الكهنة ثم ناول رئيس الكتبة ملفاً من الرق وبعد ذلك سادت السكينة بيننا ونحن ننتظر طلوع الفجر .

اخذت السماء تنير شيئاً فشيئاً كلما فر « تيت » (الليل) نحو الغرب امام جيوش حارمخو (النهار) المقدس التي اخذت تنتصر على جيوش الظلام والشر . وأخذت مسلات الهيكل وابراجه المحيطة بنا تزداد وضوحاً في نور الصبح الجميل الى ان بزغ « هورس » (الشمس) فجأة وبان فوق الافق وسقطت اشعته الذهبية الأولى بجلال وبهاء على اعلام البرج الملونة التي كانت ترفرف عالية فوق رؤوسنا .

صاح خورهمت بصوت عال اذ ذاك قائلا :

« سلام اى هورس المنتقم لاوزوريس !

« سلام اى هورس المولود من ازيس !

« سلام اى هورس البازي الابدي !

فردد الجميع هذه التحية وقد اخـذت اشعة الشمس تخـترق سحب الشرق وتكسو رؤوس المسلات التي تخـترق الفضاء بحـلة ملتهبـة وتصبغ جـوانب الاهرامات البعيدة بلون ذهبي جميل في حين كانت اصوات الـكاهنات الرخيمة ترتفع وهن يرتلن قائلات :

« الالهة كلها ثلاثة : اوزريس ورع وبتاح ».

تلاشت النغمات الرائقة الاخيرة وتحولت الى سكون واخذت اشباح المرتلين البيضاء تظهر شيئاً فشيئاً كلما بددت اشعة الشمس سحب الضباب كما اخـذت رائحـة البخور الزكية تتصاعد في الفضاء وقـد وقف الكهنة بثيابهم البيضاء كالاصنام وسط هذا الجلال الرهيب .

قدمت بعد ذلك قرباني الى المعبود « هورس » وبذا تم اعداد كل شيء فنزلنا لحضور الصلاة الخـاصة « بكشف النقاب » حيث رتلت اغـاني خاصة تتضمن استنزال البركات علي والتوسل الى المعبود بتاح لكي يعطينا علامة . ولما قام الـكاهن الاعظم خورهمت بالطقوس الدينية المعتادة قدمت ذبيحتي الى « بتاح » الخالق الاكبر والى المعبودة « سخت » الهة الانتقام والعفة .

وفي خلال ساعات الصباح جاء حاكم مدينة منف ووالي الاراضي السفلى وغيرهما من نبلاء الوجه البحري المعروفين بالولاء فقدموا الي الواحد بعد الآخر فروض الطاعة والاحترام بصفتي الامـير وارث العرش واقسموا يمـين الطاعة والولاء في اجتماع سري عقده رجال الدين .

ولما فرغوا من ذلك خرجت الى فناء الهيكل الخارجي وقدمت قرباني الى المعبود « رع » ذي القوة بحضور الاشراف والكهنة والكتبة والاباء المقدسين والكاهنات والمرتلـين والى ابنائه الذين يجلبون خـيراته وهم جونيت ومـوي وشونز .

بعد انتهاء هذا العمل الديني الجليـل تألف موكب حمـل الكهنة به جميع

الرموز والصور المقدسة ، يتقـدمه خورهمت رئيس الكهنة نفسه فـذهبت في الحال الى الفناء الواقع خلف الهيكل حيث وضع « ابيس» العجل المقدس الذي يقطن داخله — اذا شاء — المعبود بتاح الاعظم نفسه .

وكان حول الفناء مجموعة اعمدة تحيط به ، نقش عليها اشكال مقدسة وهناك وجدت العجل المقدس بين تلك الأعمدة . وكان اسود اللون عـدا غرة بيضاء يحمل بين قرنيه لوحة من الذهب نقشت عليها القابه بكتابة سرية .

وقف الموكب فأخذ العجل يتقدم نحونا ببطء ثم مر أمامنا ثلاثاً الى ان وقف امامي فمد عنقه ومس يدي بأنفه فتمتم الحاضرون عندها فجأة وبعدذلك تحول العجل واختفى في ظل الاعمدة عن الانظار . وقد همس ساست عند ما تحرك الموكب في اذني قائلا ان هذا فأل حسن جداً .

انصرف الاشراف والنبلاء بعد ذلك وذهب الكهنة لتناول طعام الظهر . اما انا — وكنت لا ازال صائماً — فقد ذهبت برفقـة خورهمت رئيس الكهنة وساست رئيس السحرة الى غرفة الكتب وهناك جاء بيتي رئيس الكتبة بالرق المكتوب الذي سلم اليه في بكور ذاك اليوم فوق قمة البرج فتناوله ساست وقال

— هذه ايها الامير النبيل هي الكتابة التي دونتها من اسرار الكواكب الدوارة والتي لا تفنى وهي الكواكب التي بت ليلة امس ارقبها لاجلك ولاجل مستقبلك . وليس من السهل قراءة هذه الاسرار ولكن في وسعي ان استنتج امراً واحداً هو ان مهمتك ستكون مرضية وناجحة في نفسك ولو انها ستتحول الى حـالة غريبة لان نجمك كان يزداد قوة اثناء سيره في الاجواء حتى جاء في النهاية تحت نجم آمون ومنزله . ومن المدهش بعد ذلك ان نجمك كان يزداد بهاء اكثر من ذي قبل مع انه سيكون في مركز يدل على الشر والشؤم وهكذا يبقى مضيئاً لامعاً الى ان يختفي فجأة وراء الافق . هذا كل ما رأيته ايها الامير النبيل وهو

ليس جلياً ظاهراً على رغم انني خرهب ، سيد الاسرار . على انني اظن ان للالهة يداً كبيرة في كل ذلك فوضعت ستاراً على عيني.

وقف ساست عن الكلام ثم ختم بمساعدة بيتي رئيس الكتبة الرق بحضوري وحضور خورهمت الكاهن الاعظم ووضعه في مكان سري في الغرفة وبعدها ذهب الجميع وبقيت وحدي .

قمت بعد ان فكرت ملياً فقدمت قرباني الى ازيس وشقيقتها نفثيس والى حماة الموتى وازوريس وثوث وجميع آلهة آمنتي الى ان حانت ساعة غروب الشمس فصعدت الى قمة البرج مرة أخرى مع الاباء القديسين .

وكانت اشعة الشمس عند غروبها تخضب جميع أبنية منف الجميلة وتكسو مسلات الهياكل وابراجها بحلة قرمزية بديعة . وكانت اصوات الجلبة في المدينة وترتيل الكهنة داخل المعابد واصطدام المجاذيف بمياه النيل وصياح المارة في الشوارع – كانت كل هذه الاصوات وحركة الحياة حولنا تصل الى آذاننا كطنين الذباب .

وقفنا هنيهة صامتين ننتظر حلول الساعة المعينة . وكان سيحور يمتد نحو الجنوب ، ومياهه تحتنا تلتوي كخيط فضي مجتازة الحقول الخصباء التي تشبه الزبرجد ، وهي الاراضي الجميلة التي اعزها واجلها والتي كنت – حتى في هذه الساعة – على وشك الخروج للقتال دفاعاً عنها .

وكانت الاهرامات ترى في ناحية الغرب وهي قائمة على قواعدها الصخرية تحيي ذكر الذين شيدوها في حين كانت الصحراء الليبية وراءها تمتد برمالها العظيمة تحت اشعة الشمس الافريقية الى ان تصل فيما وراءها الى مملكة «آمنتي» الصامتة .

اما الشرق فكان قد خضب بظلال الليل البنفسجية الخفيفة . وكان في وسعي ان ارى القرية التي تربيت فيها وترعرعت على مسافة بضعة اميال على

النهر وامامها المحجر الذي يشتغل فيه الاسرى والزنوج بقطع الاحجار . في حين كانت الزوارق علـى اختلاف انواعهـا ترى هنـا وهناك فـوق سطح مياه سيحور العظيم وهي تسير في النهر مشحونة بمختلف البضائع والسلع . وكانت اشجار البردي تمتد على شاطىء النهر ميلا بعد ميل وقد خضبتها الشمس بلون قرمزي .

رأيت كل هذا المشهد المبهج الرهيب وعلمت انني انا رعمسيس الامير المنتسب الى فرع طويل من فراعنة مصر العظام — سأكون سيد هذه الاراضي ووارثها.

مددت ذراعي بدافع غريزي نحو الحقول الخضراء والقرى الجميلة الصغيرة والنهر ومـا عـلى جوانبه من اشجار البردي وعـلى سطحه من السفن ، ونحو المعابد والمسلات والابراج واسوار المدينة البيضاء — لانني احببتها كلها ، كلها ، كلها ، ثم تحرك في صدري شيء اعظم من نفسي ، اعظم من مطامعي ورغباتي وميولي فصرخت امام الجميع من اعماق قلبي قائلا :

« مصر ! مصر ! ايتها الارض الخصباء منـذ الابـد ! سأكون لـك مدى الحياة كما انت لي . لتمدني الالهة بروح من عندها لاحكمك بالحكمة والعدل الى ان يدعوني الاله انوبيس امام المحصى ثوث وهناك احني الهام في النهاية امام صولجان اوزوريس ! » .

قبل قرص الشمس الاحمر شفتي الافق المتقدتين من ناحية الغرب فأمسك خورهمت عندها بذراعي وقال :

— لقد حان الوقت لتقديم الذبيحة .

فقدمت ذبيحتي في الحال الى « آتن » — الشمس عند غروبها .

رفع رئيس الكهنة صوته على اثر انتهاء الذبيحة ورتل قائلا .

« سـلام عليك اي اوزوريس المـولود البكر من « سب » المقدس واعظم

الآلهة الستة التي ولدتها الأم « نو » !

« سلام عليك اي اوزوريس المحبوب مـن ابيك « رع » اب الآباء وسيد الزمان ورئيس الخلود المعبود القدير ! يا من نزلت من بطن امك كامل النمو فوصلت جميع العروش والتيجان ووضعت على راسك التاج المقدس !

« سلام اي اوزوريس ، الاله المتعدد الاشكال والازياء الذي لا يجوز لاحد ان يفوه باسمه ، يا من القابه لا تحصى واسماؤه مقدسة في كل مكان !

« سلام اي اوزوريس ! يا من لا تشرق الشمس الا بارادته ولا تغرب الا امام جلال مجده .

« سلام عليك اي اوزوريس ! » .

تلاشى صدى صوت رئيس الكهنة القوى في الهواء وبعدها تحول نحوي امام الكهنة والكتبة ثم خاطبني قائلا .

– رعمسيس اي امير بيت « ست – ان – خوتي » رعمسيس محبوب المعبود بتاح الخالـق الصانـع الذي بعقله ابتكر هـذا العالم الغريب وبيديـه صنعه ، رعمسيس اى وارث الاراضي العليا والسفلى يا من سيوضع على جبينه عما قليل التاج المزدوج – رعمسيس هل انت مستعد لحلف اليمين التي سألقيها عليك امام جميع الحاضرين ؟ »

فأجبته بصوت رائق جلي قائلا :

– نعم على اتم استعداد .

سكت رئيس الكهنة هنيهة ثم رفع ذراعيه فوق رأسه وشرع يقول .

– اقسم لي بحق « معات » الهـة الحقيقة والعـدل التي ربـط ريشها فوق جبينك ، وبحـق « انخ » المقـدس (الحلقة والصليب) رمز الحياة ، وبحـق

« الشن » (الحلقة) رمز الحماية التي فوق صدرك ، وبحق آمون ورع وبتاح الثلاثة العظام ، وبحق اوزوريس سيد الذين يقطنون في الغرب وبحق جميع الالهة ، وبحق ازيس الام المباركة وهورس الطفل المقدس – اقسم لي بحق هؤلاء جميعاً ان تخدم مصر بلادك القديمة الابدية وان تخدمها بكل ما في وسعك وقدرتك !

« اقسم امام جميع الحاضرين هنا الآن وأمامي انا آمون بتاح خورهمت (رئيس كهنة) بتاح وامام ساست خرهب بتاح وامام الاباء القديسين والكتبة والكهنة ، اقسم امام جميع هؤلاء ان تضع مصر قبل كل شيء : قبل سعادتك ، قبل هنائك ، قبل رغبتك ، قبل حب الرجل ، قبل حب المرأة ، قبل رخائك ، قبل سلامتك ، قبل حياتك نفسها .

« اقسم بحق اوزوريس وبحق جميع الالهة العظام وفراعنة مصر القدماء الذين انضموا الآن الى احضان اوزوريس واخذوا يحكمون في آمنتي وبحق ابينا مينا الذي جاء من ثيس فأسس مدينتنا منف ذات الاسوار البيضاء ، وبحق خوفو وكفرا ومنقرع الذين شيدوا اهراماتهم على حافة الصحراء ، وبحق حاتشبوا وثوثميس وامينمحعت وملوك اسرة رعمسيس الذين تنتمي اليهم وانت من سلالتهم بحق جميع هؤلاء وبحق جميع الموتى الذين لا تزال ارواحهم حية – اقسم !

سادت فترة رهيبة كنت استجمع في خلالها قوتي لاقسم اليمين المروعة الرهيبة .

اخيراً وضعت يدي فوق الرموز المقدسة واجبت بصوت عال قائلا :

– انني اقسم ! .

فصاح خورهمت قائلا :

– هل سمعتم جميعكم ؟ .

فأجاب المجتمعون فوق البرج قائلين :

- لقد سمعنا .

فقال رئيس الكهنة :

ثم تلا ذلك همس خفيف رهيب من السكون المحيط بنا وكان مملوءاً بارواح مقدسة غير منظورة يقول :

- لقد سمعنا ايضاً .

- اذن بحق الذين دعوتهم انزل عليك لعنة بتاح اي رعمسيس ، فرعون المنتظر مصراذا نسيت قسمك هذا لسبب ما،كما انزل عليك لعنة الموت فيالحياة والموت بعد الحياة ، لعنة بتاح على جسمك وعلى روحك وعلى نفسك وعلى تلك الشرارة المقدسة التي تحملها داخل صدرك الى ان تتجول في امنتي شريداً طريداًملعوناً وتكون فريسة «لآميت» ملتهم الارواح - لقد تكلمت .

سقط خورهمت على اثر ذلك وقد خارت قواه واغمض عينيه فاسنده ساست بذراعه .

اخذ الجميع يقدمون الي فروض الاحترام واحداً فواحداً ويهبطون درجات البرج الى ان وقفت وحيداً تحت اجنحة الليل المظلمة ، وحيد لا يرافقني شيء غير افكاري وقسمي الرهيب .

٤

ذهبت تلك الليلة الى حضرة رئيس الكهنة وكان لا يزال يرتدي ثيابه الكهنوتية فلما وقع نظره علي ابتدرني قائلا :

– عليك ايها الامير ان تقوم الليلة بآخر فرض ديني وهو اهمها كلها واعظمها شأنا لانك الآن وعلى وشك الدخول الى مقصورة المعبود بتاح نفسه فهل انت مستعد ؟ .

فاجبته بشجاعة قائلا :

– نعم على اتم استعداد .

على انني كنت في الواقع اخشى المقابلة الاخيرة المنتظرة التي لا مندوحة منها .

سار خورهمت على اثر ذلك امامي من الغرفة فاجتزنا دهليز الكهنة الى القاعة الخارجية ومنها الى القاعة الداخلية .

وكانت الستائر الكثيفة القرمزية المدلاة على باب المقصورة تعكس اشعة

مصباح كبير من البرنز مدلى من السقف امام الباب مباشرة في حين كان يحيط بالمكان كله رهبة شديدة وجلال يستملك القلوب قد زاده النور الضئيل المنبعث من المصباح الى الاعمدة الرخامية ووجوه التماثيل الجامدة المحيطة بها رهبة على رهبة .

وقف خورهمت امام الباب وصلى بسكون وقدم فروض الاحترام وبعدها رفع الستائر الثقيلة وامرني ان اتبعه .

واسدلت الستارة وراءنا فوجدت نفسي داخل غرفة صغيرة نحتت جدرانها بمهارة فائقة ونقشت عليها قصص الآلهة اوزوريس وست وأزيس . وكانت امامي ستارة اخرى طويلة اخف كثافة من الاولى ذات لون احمر غامق وكانت الغرفة مضاءة بمصباحين صغيرين على الجانبين فصلى رئيس الكهنة مرة اخرى الى بتاح ثم تحول نحوي وقال بصوت خافت :

– يجب ان تقطع الجزء الباقي من الرحلة منفرداً ايها الامير لانني لا استطيع مرافقتك . فتقدم الى الامام وقم بفروض الطاعة والاجلال نحو الخالق القدير الذي يقطن في الداخل وابق هناك كما يملي عليك قلبك . ربما يلهمك المعبود فتخرج في الحال وربما خاطبك هنيهة ، لا ادري . اما انا فسأبقى هنا اصلي داعياً لك بالفلاح ولمصر المحبوبة بالرفاهية والسعادة .

حنيت رأسي اذعانا لامره وبعد ان وقفت هنيهة على عتبة هذا المكان المقدس لافحص قلبي ونقاوته مرة اخرى تقدمت بشجاعة الى الامام .

وكان هناك ضوء ضئيل ينبعث من الغرفة المجاورة ويتخلل الستائر القرمزية الى المكان الضيق الذي وجدت الان نفسي به . وكان الهيكل امامي مباشرة وهو مصنوع من الرخام الوردي اللون وقد نحت بمهارة فائقة من كتلة واحدة ويبلغ ارتفاعه نحو قامتين . وكان داخل هذا الهيكل تمثال بتاح المقدس نفسه

فوق قاعدة من الرخام وكان منحوتا من حجر اسود لامع يشبه في شكله العام المومياء وقد برزت يداه فقط وهما تقبضان على صولجان صنعت يده على شكل مخلب تمساح وقصبته على شكل زهرة اللوتس وطرفه على شكل كلب . وكان الصولجان كله مزينا باللآلىء الغالية يلمع لمعانا بديعاً حتى فيهذاالضوء الضئيل فأدركت في الحال « كاخوفا » المقدس الذي لا يحمله الا الآلهة وفرعون اذ كان في الواقع معبودا .

قلت في نفسي بصوت خافت :

– سلاماً وتحية اي بتاح العظيم .

ثم خررت في الحال ساجدا .

وبينا كنت على هذه الحال منكباً على وجهي وسط هذا السكون الرهيب اخذت افحص قلبي لانزع منه كل خبث وشر وحولت جميع افكاري الى المعبود وحده .

مكثت على هذا الحال مدة طويلة بحضرة المعبود الى ان خيل الي ان هناك تغيراً داخلياً يجري في داخلي . وفي الواقع اخذ شيء لا يمكن تعيينه يتكون في صدري ويزداد قوة وحجما ، شيء هو نفسي تماماً ومع ذلك لم يكن انا . وقد خيل الي انني اناضل للوصول الى راحة لا يمكن الوصول اليها وقنوع لا تصل اليه يدي وانني كلما اقتربت منه جذبتني قوة ما الى الوراء ثانية وقيدت جسمي بالارض .

كدت امسك هذا الشيء ست مرات ، وست مرات اعود ثانية الى الشعور بهذا العالم الى ان شعرت في المرة السابعة بقلبي وهو يتمزق في داخلي وببريق قوي يؤلم عيني المغمضتين وبعدها خيمت الظلمة حولي في شكل ثوب اسود

كثيف .

رأيت هنيهة انني واقف انظر بحالة غريبة الى جسمي وهو ملقى بثيابه البيضاء على ارض الغرفة . وقد خيل الي انني واقف على الارض ومع ذلك لم اشعر بشيء صلب تحت قدمي والظاهر انني تحولت الى شبح من الضباب والافكار .

وكان على يميني شبح اخر يشبهني تماماً بحيث كان كلما حولت رأسي حول راسه كذلك ونظر الي بعيني ...

وقفت على هذه الحال صامتا في حين اخذت الازمنة والحقب تأتي من بعيد وهي تدوي كالرعد وتمر من امامي كساعات الليل الهادئة في حين كنت اسمع الاصوات السماوية وهي ترتل وتغني بجلال وارى اقراصاً من اللهيب ترتفع في جو مظلم — الى ان شعرت في النهاية بنور غير ارضي سطعت الغرفة الصغيرة ببهائه العظيم .

ارتفع صوت غناء بعيد في الهواء لحظة ثم تلاه سكون شديد وبعد ذلك اخذ صوت حنون رقيق ليس من الاصوات الارضية يخاطبني من ذاك الجلال الملفوف داخل الهيكل قائلا ثلاثاً .

— اي روح رعمسيس .

فأجبته في المرة الثالثة قائلا :

— انني هنا ايها المعبود بتاح

لم اتكلم بصوت مرتفع بل كان جوابي داخل عقلي لان الافكار لدي كانت كالكلمات .

اخذ الصوت يتكلم قائلا :

اي روح رعمسيس ! لقد خدمتني في كل شيء خدمة حسنة وعلى ذلك

أمنحك بركتي كما اعطيتها اليك اليوم بواسطة أبيس المقدس . لم امنح هذا الامتياز العظيم الا لقليلين واعني به القوة على مغادرة جسمك والوقوف مع روحك « كا » امام جلالتي . تكلم الان اي روح رعمسيس بما تريد دون خوف او وجل .

فسألته بخوف شديد داخل قلبي قائلا :

— هل حقق اذن امنيتك ؟ .

فأجاب الصوت قائلا :

— ستتم امنيتي ولو انها ربما لا تتم كما تفهم انت لان ما يخيل اليك انك فقدته سيريحني في . كلا ولا يتوقف الامر علي وحدي بل عليك . انك حر اثناء اجتيازك الميتات القصيرة العديدة التي يسميها الناس الحياة ، وانت حر في تكييف غرضك وغرض الالهة الابدية . ستجتاز طريق اللحم اربعة اضعاف لان الروح لا تفنى . لقد اعطيتك هذا الجسم الملقى تحت قدميك الذي يناضل دائماً وراء الشهوات الارضية وكذا اعطيتك روحك «كا» الواقف بجانبك والذي يناضل منذ الابد وراء الرغبات السماوية . وقد عهدت اليك « بخاو » الذي هو فيك وفي جميع البشر والذي يريك الحق من الباطل ويقيك من كل شر .

« وكما ان هورس المنتقم يقاتل منذ الابد « ست » اله الشر فكذلك يناضل الخير والشر في داخلك ولا يعلم احد لمن تكون الغلبة حتى تنتهي المعركة وتقف روحك للمحاكمة امام عرش اوزوريس لان الذي من الالهة لا يمكن مقارنته بما هو من البشر . عند ذلك ستحاكم روحك . وعندها سيتقرر هل تدخل الى الابدية او تعود ثانية الى الارض لتناضل من جديد .

« وكما انني انا الجوهر العظيم اظهر في اشكال متعددة كلها في نفسها آلهة فكذا تظهر روحك في اوقات باشكال متعددة كلها اجسام . ومع ذلك فهي وراء « النقاب » الروح نفسها التي تتخذ بدورها اجساماً عديدة . والاله نفسه

الابدي الذي هو في نفسه آلهة كثيرة .

« ان في قطعة من الكتان صفوفاً عديدة من « اللقطات » ولكن لا يوجد في كل صف منها حسن او رديء غير خيط واحد . وكذا اذا وضع مصباح الحقيقة في غرفة فانه يضيء من خلال كل نافذة فيها ولكنه الضوء نفسه .

« ستعطي لك أي روح رعمسيس اشارة عن اوامري اجابة لصلواتك لكي تعلم ما يجدر بك عمله الآن ولكي تبذل — وانت تذكر هذه الكلمات — أقصى جهدك دائماً في صيانة تلك الشرارة التي ارسلتها مني في صدرك » .

وقف الصوت عن الكلام . ولكن قبل أن يتلاشى النور امتدت اليد التي تحمل الصولجان « كاخوفا » المقدس الى الامام وكتبت بحروف من نار على ارض المكان .

سادت الظلمة الحالكة بعد ذلك حولي مرة اخرى ...

استيقظت فوجدت الظلمة مخيمة على المقصورة الداخلية فوقفت ببطء على قدمي لان جسمي كان متصلباً من برودة الاحجار ثم قدمت فروض الطاعة الى المعبود وخرجت الى الغرفة المجاورة وهناك وجدت المصابيح مطفأة وهناك أيضاً عثرت بجسم على الارض هو جسم رئيس الكهنة الذي استيقظ ايضاً وخاطبني قائلا:

— هذا انت ايها الامير ؟ واأسفاه لقد شخت فكان اليوم طويلا مملا لي ولا بد ان يكون النوم قد تغلب علي بعد منتصف الليل وانا في صلاتي لانك مكثت داخل المقصورة المقدسة مدة طويلة . انظر . لقد طلع الفجر .

ثم اشار بيده الى كوة مرتفعة فوق الستارة في نهاية القاعة الخارجية ، كان ضوء الصبح الضئيل ينبعث منها .

استطرد رئيس الكهنة في كلامه فقال :

— تعال اخبرني عن حديثك مع المعبود وعن الاشارة لانني علمت الآن في

احلامي انه أعطيت لك اشارة.

سار الشيخ بألم ومشقة أمامي فاجتزنا رحبات الهيكل الى غرفتـه وكانت مضاءة بمصباح صغير وهناك امر احد الكهنـة ان يستدعي « خرهب » الساحر الاعظم .

جاء ساست بعد قليل وكانت تبدو عليه سيماء التعب لانه لم ينم اثناء الليـل فاخبرتهما كليهما بقصتي ورويت لهما ما قاله المعبود وفعله .

سألني خورهمت عند انتهاء قصتي قائلا :

– اذن أين التعليمات والاشارة ؟ .

فتملكني العجب كذلك لانني لم اكن الى تلك اللحظـة شاهدت شيئاً .

وكان ساست ماهراً في تفسير مثل هذه الاسرار فتناول المصباح وسار أمامنا الى الهيكل ثانية حيث صلى رئيس الكهنة في الغرفة المجاورة لكي ادخـــل أنا وساست الى المقصورة الداخلية دون خوف .

دخلنا المقصورة ولما مثلت بين يدي المعبـود رأيت ساست يشير الى الارض فنظرت فاذا قد رسم على الحجر اشارة غريبة كما رسمها الصولجان كأنها مكتوبة بحروف من نار .

وكانت هذه الاشارات تشبه قمراً في الافق تحته خط ثم صهريجاً فوق ثلاث موجات والشمس الي الجانب ثم سيفاً مسلولا وأربـع قصبـات وريشة ثم رمزاً آخر لم استطع تفسيره على رغم تضلعي في حل الكتابة والاشارات المقدسة .

أخذ ساست يطيل النظر الى هذه الرموز الغريبة بسكون وبعدها نقلها في لوح كان معلقاً في منطقته .

وقـع اذ ذاك امر مدهش غريب لانـه لم يكد يفرغ ساست من نقـل هذه الرموز ويدع اللوح يسقط بجانبه ثانية حتى طمست الكتابة شيئاً فشيئا وتركت

بلاط الغرفة نظيفاً كما كان .

عدنا الى الكاهن الاعظم فلما اطلع على الكتابة قال :

– حقاً انها كتابة المعبود المقدس لان الذي ياتي من الالهة مباشرة لا يمكن ان يبقى في هذا العالم متى تم الغرض منه .

ذهبنا في نور الفجر الى غرفة ساست الساحر الاكبر حيث أخذ يفحص الرموز التي كتبها على لوحه . اخيراً خاطب رئيس الكهنة قائلا :

– هل تسمح بقراءة الرموز أي والدي المقدس ؟ .

فأجابه خورهمت قائلا :

– نعم اقرأ وفسر لنا تعليات المعبود مهما كانت .

أخذ ساست دون ان يفوه بكلمة يقرأ الاشارات السرية مسترشداً بمعلوماته الغزيرة فقال :

– هذا تفسير ما دونه المعبود ايها الامير النبيل والاب المقدس : ان القمر والخط الذي تحته معناهما الشهر الاول : والصهريج والامواج مع الشمس رموز عن موسم الحصاد : اما السيف المسلول فمعناه ان المعبود يريد ان تقع الضربة سريعا : والقصبات الاربع هي اربعة رفاق : والريشة رمز «اواس» وهو الجزء من مدينة نيامون الواقع في غرب النهر : والاشارة الاخيرة هي رمز الاسم المعبود المقدس بتاح الذي لا يعرفه احد غيري ورئيس الكهنة وهي دليل على ان هذه الرموز هي اوامر المعبود .

وكان التعب قد تملكني بسبب الصيام وعدم النوم والعبء الذي تحملته فسألته بملل قائلا :

– ما معنى كل ذلك اذن ؟ .

فصاح ساست بصوت عال قائلا :

– اذن اسمع أمر المعبود الاكبر بتاح : عليك ايها الامير رعمسيس ان تقوم برحلتك سريعاً في الشهر الاول من موسم الحصاد وهـو شهر « باشون » هـذا الذي لم يبق منه غير ستة ايام . وعليك ان ترافق اربعة اشخاص فقط وتذهب الى نيامون الى بلاط الملك في « أواس » لكي تتم غرض الالهة – هذا ما كتب .

وكان الجوع قد تملكني تماما فخارت قواي وسقطت على الارض شبه مغمى علي . ولم يكن خورهمت او ساست احسن مني حـالا ولو أنهما كانا اكثر مني تعوداً على الصيام لان الساعات كانت قاسية علينا جميعاً .

لم اع شيئاً آخر بعـد ذلك الى ان استيقظت فوجـدتني على فراشي بغرفتي وأمرت أحد العبيد الذين يقومون بخدمتي باحضار الطعام فأكلت وشربت وفي الحال شعرت بقوتي تتجدد لقوة شبابي .

أرسلت الخادم في طلب ساست ثم قمت لارتدي ثيابي ولمـا تأهبت جاءني ساست وقال وهو يبتسم :

– لقد نمت نوماً هادئاً ايها الامير . انظر ان هذه ساعة تقديم قربان المساء .

فأجبته ضاحكاً :

– نعم . ان يوماً وليلة بدون طعام ليسا بالامر الهين لرجل تعود الاكل مثلي وانت ايضاً ايها الصديق كيف حالك لانك لم تذهب الى فراشك الليلة السابقـة ايضاً ؟ .

– قمت من النوم الآن فقط أشعر بقوة وانتعـاش . ولكن ما هي اوامرك ايها الامير لان عليك بعد ان سمعت كلمة بتاح ان تأمر بخير ما يمكن عمله ؟ اما انا فقد انتهى دوري في هذا الامر .

– كلا يا ساست . لا اظن ذلك وحق اوزوريس . الى اين اذهب بدونك أيها المرشد والمستشار والصديق ؟ الم يقل المعبود اربعة رفاق ؟ اذا كان الامر كذلك

فانني سأرافقك الى طيبة ، الى مدينة نيامون ، المدينة الملكية . هـذا اذا سمـح خورهمت بذلك لان عليه على ما اظن ان يقرر هذا الامر .
أبرقت عينا ساست لقولي هذا فرحاً وابتهاجاً وحنى رأسه أمامي وقال :

— لقد فاه الامير بكلمات رقيقة جداً لصديقه لان هذا كان مكتوباً في السماء في الليلة السابقة .

قضينا بقية ذاك اليوم في القيام باعمـال كثيرة استعـداداً للسفر ولم يعارض خورهمت — كما تنبأ ساست — في سفره معي وكذا لم يعارض في اختياري لذاك الجندي الباسل امينمحمت شقيـق ساست وقال انه لا يتمنى اكثر من ان يرافقني بنفسه لو استطاع ذلك وانه بقتاله دفاعاً عني يساعد على فوز قضية المعبود بتاح.

سكت خورهمت هنيهة ثم استطرد في حديثه قائلا :

— نعم كم أود القتال دفاعاً عنك أيها الامير لانني واثق من انه سيقع قتال . انني اعرف حرحور وجميع كهنة آمون وأعرف الامير سيتو أيضاً وهو جندي باسل على رغم انه خالي العقل والمطامع .

ابتهج قلبي لهذا القـول لانني كنـت اتوق الى ان يرى امينمحمت قـوتي في القتال بصوالجتي التي صنعت لها اضراساً حادة .

مكثنا بعد ذلك الى ساعة متأخرة من الليل نضـع الخطـة لسفرنا ونحسب حساب كل ما قد يصيبنا . وأخيراً استقر رأيي على ان اسافر في النهر بعد يومين حاملا معي الى فرعون أبي رقاً سريا اعطاني اياه خورهمت . وهذا الرق كتبته أمي قبل وفاتها دليلا على أنني ابن فرعـون وانني لا ازال على قيـد الحيـاة . وفوق ذلك اخترت أن يرافقني كاهنان شابان هما عاتي وميناس وكلاهما جندي باسل وهكذا يؤلفان مع الشقيقين ساست وامينمحمت رفقائي الاربعة .

(وهنا فراغ آخر في القصة يتناول عدة أيام على ما يظهر) .

... وصلنا عند سدول الظلام الى مدينة صغيرة على شاطىء النهر تبعد عن مدينة نيامون مسيرة يوم واحد في النهر اذا كانت الرياح حسنة .

خاطبني ساست في هذا المكان الجميل بلهجة الجد متوسلا الي ان لا اذهب الى الشاطىء لابحث عن مأوى كما فعلت من قبل وان ابقى على ظهر السفينة حتى يعد لي الخدم مكانا للنوم في عنبر السفينة .

سألته عن سبب الحاحه هذا فلم يقل شيئاً سوى انه رأى في المنام ان هناك شراً يتهددنا في هذا المكان وختم حديثه بقوله :

– ان الشر روح غريبة ليس من الحكمة المجيء تحت ظلها اذا كان في وسع الانسان أن يتحاشاها اذ من يدري هل تمسك فقط بجناحيها او تضربك بمخالبها على اني في الواقع اشعر بوجودها هنا . أظن ان كهنة آمون وقفوا على حركتنا هذهمن جواسيسهم فكمنوا لنا هنالأسرك او قتلك .

على انه اثار غضبي بقوله هذا فلم أعره اهتماماً ولم ارغب في النوم في عنبر السفينة . وفوق ذلك قلت ان قوله هذا لا يتفق مع تنكرنا فقد اقترح ساست ان نقول اننا جنود رخص لنا باجازة لمشاهدة آثار مصر .

وهكذا انتهى الامر بأن نزلنا الى البر لنبحث عن مأوى نبيت فيه كما فعلنا في المرات السابقة وفعلا وجدنا منزلا فأمرنا أهله باعداد كل شيء لنا ثم خرجنا الى المدينة حيث قالوا انهم يشيدون بها هيكلا .

وبينما كنا سائرين في شوارع المدينة المزدحمة اتفق ان تخلفت قليلا وراء رفقائي لكثرة الناس في ساعة غروب الشمس . وكان على مقربة مني فتاة فسقط « صندلها » فجأة فملت لالتقطه ولما ناولته اياها رأيت لدهشتي ان عينيها مغرورقتان بالدموع – ولاحظت انها كانت على رغم التفافها بثوب طويل ، جميلةوجهاً وقواماً .

وقفت الى جانب الطريق وقد شغلتني حالة الفتاة عن مناداة رفقائي الذين واصلوا السير واختفوا في ظلمة المساء ثم سألت الفتاة قائلا :

– ماذا يؤلمك ايتها العذراء ؟ ماذا يؤلمك حتى اراك تبكين ؟

فخاطبتني بصوت خافت لم يسمعه احد من المارة قائلة :

– اواه يا سيدي . انني في حزن شديد وليس ... وليس لدي اين اسند اليه رأسي .

فجذبتها الى مدخل منزل قريب لكي تضع صندلها في قدمها ولكي تتكلم بحرية اعظم . وفي الواقع شعرت في قلبي برغبة غريبة في مساعدة هذه الفتاة وحمايتها بكل وسيلة وهي رغبة طبيعية تولدت في نفس امير نحو رعاياه في المستقبل . وفوق ذلك كانت الفتاة جميلة فتانة يحسن النظر اليها ، ذات شفتين ورديتين وعينين واسعتين نقيتين ، وشعر اسود طويل مسترسل .

سألتها قائلا :

– هل هناك شيء استطيع به مساعدتك ؟

فقالت بصوت تخنقه العبرات :

– أواه انني شريدة وحيدة خائفة لأن عمي في ثورة غضبه لنزاع قام بيني وبينه . الآن لا أدري الى اين اذهب لأنه وان كان منزلي في هذه المدينة فانه خال مهجور لأن والدي ذهبا مع العبيد الى مدينة نيامون ولم يريدا ان ارافقهما فأوصيا عمي بالاهتمام بي .

– ولكن لاريب في ان عمك يلين اذا عدت اليه ثانية ؟

فقالت وهي تنتفض :

– كلا . اعلم جيداً انه لا يرق ولا يلين لأنه يمقتني كما يمقت والدي فقد صب

علي اللعنات الليلة واقسم ايماناً عديدة . ليس معي نقود فما اتعسني .

فأطرقت هنيهة افكر في امرها وأخيراً قلت :

– اذا لم يكن هنــاك احــد تستطيعين الالتجاء اليــه فعليك ان تذهبي الى منزلك الذي تقولين انه في المدينة فهناك على الاقل تجدين مأوى لحمايتك وسقفاً يظلل رأسك .

– واأسفاه ! ليس لي احد التجيء اليه وليس في وسعي الذهاب الى منزلي كذلك لانه خال ، ليس به احديهتم بي وسأكون وحيدة فريسة للخوف . اواه ليتني اجد من يحميني ويرافقني الى هناك ويهتم بأمري !

ثارت في قلبي عوامل الغيرة والحمية لتوسل الفتاة . وفي الواقع من الملائم جداً ان يسعى امير لتخفيف آلام شعبه بكل ما لديه من الوسائل . وعلى ذلك سرنا معا نحو ذاك الجزء من المدينة حيث قالت ان منزل ابيها هناك .

شعرت بثورة شديدة غريبة اخذ لظاها يتأجج في صدري اثناء سيري في شوارع المدينة الضيقة والفتاة تمسك ذراعي بشدة ، نعم شعرت بثورة لم اشعر بها من قبل ولا خطرت ببالي . ولا عجب فقد هاج دمي في عروقي واشتدت ضربات قلبي بجنون كلما شعرت بين فترة واخرى بجسم الفتاة اثناء سيرنا وسط الزحام حتى خيل الي ان جسمي يتقد وتمنيت في قلبي ان تمتد هذه الرحلة الحلوة القاسية الى الابد .

اخيرا وصلنا الى شارع مظلم في طرف المدينة حيث رأيت في الظلام منزلا قائما خلف المنازل المجاورة له قليلا ، غرست حوله اشجار كثيرة . وكان الظلام شديداً في الداخل ولم يبد فيما حوله دليل على الحياة كما قالت الفتاة .

شددت الفتاة الضغط على ذراعي فلم اعارضها لانني رأيت ان في ذلك عزاءها ثم قالت وهي تلهث :

– اواه . كم انا خائفة . انظر الى ظلمة المكان الموحشة !

فطيبت خاطرها قائلا :

– لا تخافي . انك معي ليس ثمت ما يدعو الى الخوف .

على ان شجاعتها كانت قد غادرتها فهزت رأسها .

مكثنا مدة طويلة واقفين بجانب تلك الابواب المظلمة نتحاجج الى ان تمكنت في النهاية من تخفيف روعها لكي تقضي ليلتها سعيدة وذلك على رغم معارضتها .

تنهدت الفتاة تنهداً خفيفاً ثم واجهتني وامسكت بثوبي واسندت رأسها الجميل الصغير الى منكبي وقالت :

– ولكن اذا دخلت معي على هذا الحال وطردت عني مخاوفي فانني مع ذلك سأكون وحيدة خائفة عند – عند ذهابك .

فوضعت يدي في يدها مدفوعا بقربها مني والرائحة الزكية التي كانت تتصاعد من قوامها الرقيق ثم قلت متلعثما :

– كلا يجب ان تكوني شجاعة لأنني لا استطيع ان ابقى معك الى الابد .

فنظرت الي وجهاً لوجه مرةاخرى ثم تنهدت ورفعت ذراعيها البيضاوين بلطف الى ان طوقت بها عنقي وقالت :

– واأسفاه لا تستطيع ان تبقى معي الى الابد – ولكن – يجب ان لا اخاف – في النهار .

اضطرب عقلي اذ ذاك وسكرت من خمر عواطفي فلم اع ما فعلت اللهم الا ان ثورة حبي اخذت تضرب على اوتار قلبي بشدة كانت تتزايد شيئاً فشيئاً . وكانت ذراعاها الجميلتان اللتان تحاكيان اللجين تطوقان عنقي فلم اقاومها بل

بالاحرى طوقت خصرها النحيل بذراعي كذلك .

وكانت عيناها تلمعان ببريق فتان وهي تنظر الي بها في غسق الليل الى ان قالت بصوت خافت :

– انها ليلة جديرة بالحب .

جذبت الفتاة رأسي نحوها بلطف الى ان مست شفتاها شفتي هنيهة ثم بقيت على هذه الحال بين ذراعي الى ان سمعت صوت ساست الجاف فصحوت من حلمي اللذيذ وقفزت هي بعيداً عني بضع خطوات في حين ظهرت اشباح رفقائي الاربعة وكانوا يجرون على ما يظهر .

قال ساست بصوت لا يخلو من الغضب والجفاء :

– لقد وجدتك في النهاية ايها الصديق : هل انت بخير ؟

فأجبته بغضب لتدخله قائلا :

– نعم ولكني لست في حاجة اليك الآن .

– نعم ولكننا في حاجة اليك لغرض لا تجهله – ولانك في خطر لقد رأيت في المنام منذ هنيهة روحي « كا » فقادتني الى هنا وقد خشيت ان يكون قد سبق السيف العزل .

فثار غضبي وصحت به قائلا :

– الا سحقاً لك ولروحك . لا اريد احداً الآن .

لم يفه ساست بكلمة ولكنه اقترب منا ثم اشار الى الفتاة وهي جامدة في مكانها ثم سألني قائلا :

– من هذه الفتاة ؟

فأجبته بشيء من الغلظة قائلا :

– هذه عذراء مسكينة كنت اعزيها .

فضحك امينمحعت وسمعته يقول بصوت خافت في نفسه :

– انك وحق « منتو » رجل قبل كل شيء .

فلم اعر قوله اهتماما في حين استطرد ساست في كلامـه بلهجة تنطوي عـلى الجد قائلا :

– تعال معي ايها الصديق .

فأجبته ببرود قائلا :

كلا .

– انني اريد سلامتك ايها الصديق النبيل قبل كل شيء . الا تريد ان تأتي معنا ؟

فقلت بغضب مرة اخرى :

– كلا . كما قلت لك .

رفع ساست اذ ذاك ذراعيه نحو السماء المظلمة هنيهة كأنما يصلي صلاة سرية ثم احدق النظر الي وطوح يديه يمنه ويسرة امام وجهه ببطء .

اخذت اشعر بعد مدة طويلة بقلق فكري بحالة غريبة ثم شعرت بقواي تغادرني تدريجيا الى ان خطوت في النهاية خطوة نحو ساست بعيدا عن الفتاة التي عندما لاحظت عملي هذا رفعت في الحال يدها الى صدرها.

سل ساست اذ ذاك سيفه من غمده في الحال وحمل على الفتاة فجندلها بسيفه وقد جرى ذلك كله قبل ان يدرك احد ما كان يجول بخاطره .

فقدت صوابي عندها وصرخت في وجهه قائلا :

– تباً لك ايها النذل الجبان قاتل النساء !

وقد كدت أحمل عليه بصوالجتي ولكني رأيت جموده فوقفت هنيهة وفي تلك اللحظة خاطبني قائلا :

– لا تضرب ايها الامير بل اسمع ما يقوله خادمك واصفح عنه لانه لا يحب احد سواك انت وبلاده المحبوبة مصر . ان هذه الفتاة التي لا ريب في انها قصت عليك قصتها ، وهذا الشارع المهجور – دسيسة لايقاعك والمجيء بك الى هذا المنزل الذي لا اكون مخطئا اذا قلت انه مملوء بكهنة آمون . واأسفاه. لقد تربيت داخل الهيكل بعيدا عن النساء حتى صرت الان تفاحة ناضجة تستطيع يد فتاة عذراء جنيها . انظر الى تلك الشيطانة الحسناء !

مال ساست فوق الفتاة ونزع ثوبها عن صدرها فسمع صوت خنجر يسقط على الارض فتمتم قائلا :

– هذا ما زعمته . انظر . الا ترى انك لو كنت طاوعت هذه الفتاة ودخلت معها المنزل لضممت الموت الى صدرك لا قوامها الفتان ولقبلت فولاذاً بارداً لا وجناتها المتوردة ؟ ولعمري لما رأت الآن انك اخذت تخضع لسحري ارادت ان تحمل عليك بخنجرها حتى في هذه الاونة ولو انهم في الواقع كانوا يفضلون اسرك اولا لكي يقفوا منك على اسماء الذين لهم يد في هذه المخاطرة . اسألك المعذرة والصفح ايها الامير لأنني ما فعلت الا ما رأيتهواجباً علي .

لزمت السكون هنيهة، اكاد لاادري ماذا اقول وهل اصدق قول ساست او لا اصدقه . وكان امينمحعت قد تقدم في خلال ذلك فالتقط الخنجر واخذ يفحصه بدهشة ثم قال :

– انه خنجر مسموم . لا اميل الى قتل النساء ولكن الافاعي السامة

يجب سحقها قبل ان تبطش بغريمها .

وبينما كنت واقفا تتجاذبني عوامل الغضب والشك والجحود اذ فتح باب المنزل المجاور الذي قالت الفتاة انه خال وخرج منه شخص يحمل في يده سيفاً مسلولا .

صاح ساست عندئذ قائلا :

– انظر ألا تزال في شك من قولي الى الآن ؟ ان كهنة آمون هم الذين سيداهموننا .

وصاح ميناس قائلا :

– فراراً ايها الامير ، فراراً .

ثم سل هو وعاتي سيفيهما وقفزا امامي لكي يدافعا عني :

لم يفه امينمحعت وحده بكلمة وحمل على الرجل بالخنجر الذي كان يحمله في يده على انه اخطأ المرمى ولم يصب الرجل الا بجرح في ذراعه ولذا لم يكترث هذا وسار في طريقه الينا .

ظهر رجلان آخران واتفق ان ظهر القمر اذ ذاك من خلال السحاب فأضاء على رؤوسهم المحلوقة فلم يتساورني اقل ريب في انهم من كهنة آمون وان ساست قد نطق بالصواب .

لم يكن هناك وقت لتبادل الحديث . وكانوا قد حملوا علينا فلم نر بداً من الفرار لأنهم كانوا اكثر منا عدداً ولم تكن مهمتنا الى نيامون قد تمت بعد . وبينما كنا نجري يتعقبنا اعداؤنا بهمة عظيمة اذ صاح زعيمهم – وهو الذي جرحه امينمحعت بخنجر الفتاة – صيحة شديدة وسقط فجأة على الارض فالتف رفاقه حوله هنيهة وقد اخذ منهم العجب مأخذه لانهم لم يروا احداً منا يضربه

قال امينمحعت :

لقد اصبت في قولي ايها الامير . ان الخنجر مسموم .

وبينا كنا نجري في الشارع المظلم خاطبت ساست قائلا :

– الى المنزل الذي استأجرناه فهو متين البناء وفي وسعنا نحن الخمسة ان نحسن الدفاع عنه .

فأجابني قائلا :

– كلا . انهم يحدقون به ويقبضون علينا بأي عذر لانهم اصحاب السلطة في المدينة في حين لا تكون في مأمن ايها الامير قبل ان تعلن نفسك لفرعون وتنال حمايته . يجب علينا ان لانعرض حياتك ايها الامير الى الخطر بالقتال اذا كان في وسعنا النجاة بالهرب . فالى السفينة فان هناك ريحاً ملائمة .

وهكذا هربنا مجتازين الشوارع على نور القمر ، شاهرين سيوفنا قاصدين النهر يطاردنا كهنة آمون .

أخيراً سبقنا الكهنة بمسافة قصيرة ووصلنا الى ممر ضيق بين اسوار مرتفعة صخرية تؤدي الى المرفأ الذي كان به زورقنا .

قال عاتي فجأة وهو يلهث :

– هل لكم ان تذهبوا انتم الاربعة لكي تأمروا العبيد برفع الاشرعة وسأقف في وجه الاعداء هنا في هذا الممر الى ان تتأهبوا للرحيل ثم انضم اليكم ؟

اردت اذ ذاك ان اعترض عليه ولكن ميناس وساست استحثاني على السير قبل ضياع الوقت . على اننا لما وصلنا الى الزورق لم نجد به غير عبد واحد لان الباقين كانوا قد ذهبوا الى المدينة ولذا قمنا نحن بحل الاشرعة بسرعة فى حين

كان صليل السيوف يسمع من الممر .

دفعنا السفينة في الحال بعيداً عن النهر ثم ناديت عاتي لكي يلتحق بنا ولكنه لم يظهر ولم تخف وطأة القتال فناديته ثانية لان السفينة كانت تبتعد بنا عن الشاطىء بسرعة واخيرا جاءنا الجواب بصوت ضعيف خافت قائلا :

– انج بنفسك ايها الامير اما انا فسأذهب الى احضان اوزوريس .

لم تمض لحظة اخرى حتى سمعنا صيحة وسط الظلام ورأينا كهنة آمون بسيوفهم المخضبة بالدماء على جانب المرفأ – ولكن بعد فوات الوقت .

وبينما كنا نراقب الكهنة بملابسهم البيضاء وهم يصيحون على الشاطىء همس ساست في اذني قائلا :

– لقد مات احد رعاياك الابطال أيها الامير .

وكان امينمحمت قد ترك ميناس والعبد عند شراع السفينة فقاطع حديثنا قائلا :

– هل تظن انهم يستطيعون اللحاق بنا ؟ هل احركهم بسهم من قوسي ؟

ثم تناول قوسه المشهور من كتفه فأجبته قائلا :

– كلا ان جميع السفن راسية كما كان زورقنا واذا شاءوا اللحاق بنا قضوا مدة طويلة فدعهم لاننا نلنا الغلبة عليهم .

وقال ساست :

– لا اظن انهم يقتفون أثرنا بعد الآن لأنهم كهنة المدينة . ولا ريب في ان الاوامر التي تلقوها هي اسرك او قتلك في هذه المدينة لا اقتفاء اثرك بضجة الى ابواب قصر فرعون . أن حرحور داهية لا تفوته صغيرة كما ستجد ذلك حالا .

فتنهد امينمحمت اسفاً لأنه مولع بالقتال وقال :

– اذن نحن في مأمن الآن .

لزمت السكوت هنيهة كنت انظر في خلالها الى مياه النيل وراءنا والسفينة تجتاز بنا المنازل الى العراء .

اخيرا قلت مخاطباً ساست :

–لقد ارتكبت الليلة خطأ عظيما ايها الصديق الحميم اذا كان يجوز لي ان اقول ذلك – فأسألك الصفح والمعذرة لما بدر مني من الكلمات القاسية . لقد أنقذتني من الموت قبل ان تصل الى نيامون .

– كلا . لا تتكلم بمثل هذا الكلام ايها الامير رعمسيس فان الآلهة الابدية قدرت كل هذا من قبل . وفوق ذلك فأنت شاب يجري دمك في عروقك حاراً . ولولا روحي « كا » الذي خاطبني لما عثرت عليك .

ثم تبسم وتحول هو وشقيقه وذهبا الى عنبر السفينة للقيام بالوسائل اللازمة لرحلتنا الفجائية التي اكرهنا عليها .

اما انا فوقفت احدق النظر الى المياه . وقد خطرت ببالي أمور عديدة فذكرت اولا انذار خورهمت الكاهن الاعظم لي وتحذيره اياي من الامر عينه الذي كدت اذهب فريسته بدافع جهالتي وجنون الشباب .

جلست وقد ثار غضبي على نفسي ثم اقسمت ان انظر بعين الارتياب والاشمئزاز الى كل امرأة تخاطبني بكلمات رقيقة بعد الآن ثم لم ألبث ان تملكني الحزن عند ما رأيت كيف يمكن اخفاء الشر والغش في هيكل جميل مثل تلك الغادة الفتانة .

ذكرت بعد ذلك صداقة ساست واخلاصه وحرصه على الغرض الذي وضعه

نصب عينيه بحيث لم يحجم عن ان يجندل الفتاة مدفوعاً باخلاصه لقضيته ومعبوده . على انني ذكرت قبل كل شيء . والحزن يمزق قلبي – ذاك الجندي الباسل عاني الذي ضحى حياته بإلخلاص لكي انجو من نتيجة جهالتي فصليت الى بتاح وتوت ان يخففا حسابه امام المعبود اوزوريس .

٥

سارت السفينة بنا طول الليل فقطعنا مرحلة كبيرة في النهر . وقد مكثت الرياح تهب معتدلة الشطر الاكبر من الليل ولكنها كادت تقضي علينا في النهاية لانها اشتدت قبل الفجر وحملت معها رياحاً مترية من الصحراء الغربية حجبت الجو عن أعيننا وجعلت مهمتنا شاقة متعبة .

على ان المعبود بتاح كان يسهر على سلامتنا فخفت الزوبعة عند الفجر ولم تكد ترسل الشمس اشعتها الاولى حتى رأينا على نورها معابد مدينة نيامون ومسلاتها وقصورها الشامخة من بعيد .

وكانت الحركة شديدة في المدينة عندما رست السفينة في النهاية في احد المرافىء الكبرى . فقد رأينا العبيد يشتغلون بتفريغ السفن التجارية وحمل البضائع المختلفة من الجلود والعاج والسجاجيد والطنافس وانواع التوابل والاواني الثمينة وغيرها، والكتبة وهم يساومون التجار في أسعار البضائع التي ابتاعوها.

رأينا الى جانبنا سفينة تفرغ شحنة من الجواري جيء بهن من بلاد الحبشة . وقد أخبرني شيخ انهن يحسن الرقص وانهن سيرقصن في قصر الملك .

كتب ساست على رق خطابا الى رئيس الكهنة في منف أخبره فيه اننا وصلنا الى نيامون سالمين ثم أرسل الخطاب مع العبد الذي بقي في السفينة وقد

أمره ان يعود في النهار ليأخذ رفاقه الذين تركناهم في الليلة الماضية واعطاه نقوداً .

سرنا بعد ذلك في المدينة مشياً على الاقدام باحثين عن مأوى نتناول فيه الطعام ونزيل عن اجسامنا غبار السفر ونرتدي ثيابنا قبل ان نقوم بأهم جزء في رحلتنا وأعني به الدخول على والدي فرعون ملك مصر كلها .

كان هورس المقدس (الشمس) لا يزال صغيراً في الافق عندما اجتزنا في النهاية الباب الخارجي للقصر ووقفنا في فنائه الاكبر . وكانت اشعة الشمس الافقية تسقط على سلالم القصر المصنوعة من الرخام والسقف والاعمدة المذهبة فكانت ترسل لمعانا بحيث خيل الينا ان القصر يتقد بنيران مقدسة . وكانت الوان الاعمدة والنقوش القرمزية تنعكس على الارض المغشاة بالمرمر تحتها في حين اجتزنا بابا آخر وصعدنا بضع درجات ثم وقفنا في ظل اعمدة كبيرة على شكل ازهار بديعة وهنا اعترضنا الحراس في الحال ومدوا اسنة رماحهم لكي يسدوا طريقنا فثار دم الشباب في عروقي عندها وكدت اعلن لهما نفسي واخبرهم من انا ثم اطلب المثول بين يدي أبي فرعون ولكني رأيت أن كهنة آمون يبثون العيون والارصاد بكثرة حول القصر فاذا علموا من نحن حالوا بلا مراء دون دخولنا على فرعون وسخروا منا اولا ثم دسو لنا السم او القوا بنا في غياهب سجن سري بتهمة ما يلصقونها بنا .

والظاهر ان ساست أدرك من حركاتي ما يجول بخاطري فرفع يده ومنعني من الكلام ثم تقدم الى الحراس وأخبرهم انه ساحر عظيم وانه جاء هو ومساعدوه الثلاثة بسر السعادة الحقيقية لفرعون .

ضحك الحراس لقوله هذا واخبرنا احدهم ان كثيراً من السحرة والقتلة يأتون طول النهار يريدون الدخول على فرعون بمثل هذه القصص .

على ان ساست استخدم اذ ذاك مقدرته السحرية وتسلط على الحارس بحيث

اكرهه في النهايـة على ان يحسن التفكير في الامر ويرسل في طلب ضـابطه . ومن حسن الحظ ان سلف هذا الضابط حكم عليـه بالاعدام لأنه طرد ساحراً ماهرا من مدينة « آن » كان فرعون أمر باحضاره . ولذا خاف ان يصيبه مـا اصاب الضابط السابق فسمح لنا بالدخول وسار أمامنـا فاجتزنا الفناء الداخلي الى القصر نفسه الى ان أدخلنا على وزير القصر لسؤالنا .

وكان الوزير شيخا ثاقب النظر طويل اللحية يرتدي ثياباً فاخرة فلما وقـع نظره على ساست انتفض فجأة ثم صرف الضابط والرجـال الملتفين حولنـا من الغرفة فلما خرجوا خر على ركبتيه دون كلمة وقدم الي فروض الطاعة اذا تبين انه من المخلصين للاسرة الملوكية . وكان قد تلقى انذاراً سريا من الموالين لنا في الاراضي السفلى لكي ينتظر قدومي مع رئيس سحرة بتاح وكان يعرفه من قبل.

تحول ساست نحوي وهو يبتسم ثم قال :

– أنظر ايها الامير . من المأمون دائماً الدخول من الباب الجانبي الذي يفتـح سراً أكثر من الدخول من الباب الامامي حيث لا يعرفنا حراسه . ستجد الآن ان القصر الملكي يختلف بعض الاختلاف عن هيكل بتاح .

استقر الرأي بيننا بعد ذلـك على ان يقدمني الوزير وقت الظهر سراً الى فرعون ، والدي الشيخ الذي لا يعرف الى هـذه اللحظة شيئـاً عن وجودي في الحياة وان يقدمني بصفتي رجلا جئت لحاجـة خصوصية اذ رأينـا من الصواب ونحن وسط اعداء كثيرين أن نضـع مركزي في اقرب وقت عـلى أساس ثابت متين قبل ان يفشى سرنا او يصيبني أذى.

لما حان وقت الظهر ارتديت ثياباً فاخرة وأخذت معي ملف الاوراق التي اعطاني اياها خورهمت رئيس الكهنة ثم سرت مـع أصدقائي في ممرات ودهاليز عديدة الى ان وصلنا الى باب مخفور وهنـا قـادني الوزير – وكان اسمه نيفر – فاجتزنا الباب بعد ان غادرنا الآخرين عند مدخله .

اجتزت العتبـة وفي نفسي شيء من الاضطراب فوجـدت نفسي في غرفـة

صغيرة ولكنها كانت مزينة بأفخر زينة . وكان يستخدمها فرعون على ما يظهر لمقابلاته السرية اذ رأيت في احـد جوانبها عرشاً كبيراً منحوتاً من المرمر قائماً فوق سبع درجات .

على هذا العرش جلس فرعون رعمسيس الثاني عشر بثيابه الملوكية المطرزة بالذهب وهو والدي الذي لم أعرفه من قبل . ولم تكد تقع عليه عينـاي حتى جذبتني نحوه عوامل الحب والشفقة . وفي الواقع كانت تبدو عليه سماء الضعف وهو جالس بثيابه الملوكية الفاخرة ، يحمل في يـده صولجـان الملك وغيره من رموز السلطان والقوة ، وعـلى رأسه تاج مصر المزدوج . وكان وجهـه كثير التجعد لتقدم سنه ولكثرة متاعب الملك لانه شهد في أيام حكمه النيل وقـد فاضت جوانبه سبعاً وعشرين مرة في حين كان هو ينـاهز الرابعـة والثمانين من عمره . وكانت يداه ترتعدان قليلا ، وعيناه تبحثان على ما يظهر هنا وهناك — على رغم ما كان يتجسم فيهما من امارات القوة والسلطان كأنهما تبحثان عن صديق ورفيق لا تجدانه .

وفي الواقع طبعت علامات الوحـدة والتعب والضعف على أسارير وجه فرعون أبي فتاقت نفسي الى الذهاب اليه للوقوف الى جانبه لكي اقدم اليه قوتي وشبابي يعتمد عليهما وقت الحاجة .

كان فرعون في الغرفة وحده اذا استثنينا بعض العبيد وحملة المراوح الواقفين وراء العرش ولكن هؤلاء ليس لهم اهمية لان جماعة العبيد الذين يتولون خدمة الملك يعلمون حق العلم ان اعينهم لاترى وآذانهم لاتسمع .

وقفت على هذه الحال جامداً انظر فيما حولي الى ان قادني الوزير نيفر من يدي الى الامام ببطء ثم صاح قائلا :

— تحية وسلاماً أي فرعون، العقاب الاعظم، محبوب هورس، معطي الحياة كالشمس .

ثم حنى رأسه في حين قدمت ايضاً تحياتي وفروض الطاعة اليه لانه وان كان أبي فانه كان فرعون مصر – وفرعون مصر معبود .

وقف الوزير نيفر جانباً ، فتقدمت الى قاعدة العرش، فاخذ فرعون عندها يفحصني باهتمام بضع دقائق ، لاحظت في خلالها انه ينظر الي بعين الحب والحنان. غير انني كنت ابحث في فكري في خلال ذلك عن طريقة ابلغه بها ما اريد ان اقصه عليه لانني خشيت في الوقت نفسه ما قد يصيبه بسبب شيخوخته اذا انا اطلعته على حقيقة امري مباشرة .

اخيراً تكلم فرعون بصوت خافت قائلا :

– ماذا تريد ايها الشاب ؟ .

فأجبته قائلا :

– أي فرعون يا من لا تنتهي له حياة ، سيد الاراضي العليا والسفلى وحاكم الشمال والجنوب ! لم آت لطلب بل بهدية ولكني اريد اولا ان اقص عليك قصة اذا سمح المعبود الجالس امامي تحف به المهابة والجلال .

فأشار الي لأتكلم فاستطردت في حديثي قائلا :

– يحكى اي فرعون انه كان في احدى البلاد ملك ذو سلطان عظيم وقوة فرزق ولداً بكراً كان يحبه حباً عظيما واراد ان يجعله ملكا بعده ولكن شاء المعبود الاعظم « رع » الذي يخلق ويميت ان يرسل الطفل امام اوزوريس سيد الموتى الذين في آمنتي قبل ان يبلغ الطفل سن الشباب فحزن الملك لذلك حزناً عظيما ولكن شاءت المقادير بعد سنين عديدة فحملت الملكة وولدت ابنا آخر احبه الملك حباً جماً اولا بسبب موت ولده الاول وثانياً لشيخوخته التي انذرته انه لا يستطيع ان يلد اولاداً آخرين كما كان في ايام شبابه .

« على انه اتفق ان كان حول هذا الملك وزراء أشرار قاموا – لغاية في نفوسهم

بضجة عظيمة قائلين ان الآلهة تنبأت بأن الطفل ولد لجلب الشر على رأس ابيه ثم جاءوا الى الملك في وقت معين واغروه حتى امر بقتل الطفل ؟ .

امسكت اذ ذاك عن الكلام لكي اراقب تأثير كلماتي في نفسه فلاحظت لابتهاجي ان الملك بدلا من ان يمل حديثي كان يصغي الي باهتمام شديد وهو يلوي صولجانه المرصع باللالىء بين اصابع يده المضطربة .

استطردت في حديثي بشجاعة قائلا :

– حدث بعد ذلك أي فرعون ان الملك تذكر والاسى ملء فؤاده ان ليس له ولد غير ولد واحد لم تلده الملكة ولذا لا يستطيع ان يدعوه ابناً حقيقياً له . وكان الحزن يتملك قلبه في بعض الاحيان لهذه الذكرى ولكنه – وهنا سكت هنيهة بدهاء ثم قلت – ولكنه كان يفرح كذلك في بعض الاحيان اذ أليس بقتله الطفل قد نجا نفسه من الشر والويلات التي كانت تقع على رأسه ؟ .

فقال فرعون بلهجة سريعة وقد رأيت ان سهمي اصاب المرمى .

– كلا . كلا . ان هذه قصة غريبة بلا مراء ولكني أظن أيها الراوي ان الملك لا بد ان يكون قضى حياته في الحزن

فحنيت رأسي وقلت :

– ليكن ماتقول أيها الملك .

ثم عدت الى قصتي فقلت :

– ثم حدث بعد ذلك ان جاء رسول الى الملك ذات يوم وقال له :

أيها الملك . لدي نبأ عن ولدك الذي تزعم انك قتلته وهو طفل . ان الملكة زوجتك استسلمت لعواطفها الوالدية فعصت امرك وأخفت الطفل وعلى ذلك فولدك لا يزال على قيد الحياة وهو الآن شاب في مقتبل العمر . والآن أي

فرعون ، هلا يغضب الملك لهذا النبأ ويلقي رسول الشر الى الجب ويرسل مـن يقتل هذا الابن بصفة أكيدة لانيدالقدر شاءت ان يجر على رأس ابيه الويـلات والمتاعب ؟ .

ابيضت أصابع فرعون النحيلة وهو يشدد الضغط بها على ذراعي العرش ثم اجابني قائلا :

—كلا . لا اظن أيها الشاب ان الملك لا يعد هذا النبـأ شراً بالمرة وأرى ان عليه ان يرسل في الحال في طلب ابنه ويرده اليه لكي يشغل المكان المعد له بين الاشراف والنبلاء ثم يقدم فروض الشكر الى الالهة على مـــا اولته من رحمـة وشفقة . وفوق ذاك ارىأن على الملك ان يعد الرسول بمكافأة عظيمة .

— ثم نظر الي نظرة غريبة — اذ جاء ببرهان يثبت صحة روايته .

رأيت الآن ان فرعون أدرك معنى قولي وعلى ذلك أخرجت الرق من بين طيات ثيابي ووضعته في يده قائلا :

— ها هو البرهان ايها الملك الحاكم والحارس على ارض مصر .

فتح فرعون الرق بيد مضطربة . ولما قرأ ما كتبته الملكة — وقد استغرق في ذلك مدة طويلة لشيخوخته وشدة لهفتـه — صرخ صرخـة عظيمة وسقط صولجانه فجأة الى الارض فخرج من مقبضه حجر من الياقوت وتدحرج فوق درجات العرش الى ان وقف تحت قدمي .

صاح فرعون قائلا :

— اين هو ؟ اين ولدي الذي فقدته . سيكون نصيبك شيء كثير من الذهب والفضة اذا جئتني به .

تقدم الوزير نيفر اذ ذاك وعيناه الحادتان تلمعان ثم حنى رأسه وقال :

– انه يقف الآن أمامك أي فرعون .

ثم أخذ يدي وعاد الى الكلام فقال :

– هذا هو ولدك رعمسيس الامير الوارث لعرشك وولي عهدك الذي قضى السنين السبع الاخيرة في هيكل بتاح بمنف يتعلم جميع العلوم والفنون والاسرار التي تليق بالامراء .

أحدق أبي النظر الي مدة طويلة وهو لا يستطيع الكلام واخيراً قام عن عرشه وهرع الي على رغم شيخوخته وطوقني بذراعيه وضمني الى صدره على مرأى من الوزير والعبيد ودموع الفرح تنحدر على خديه الجعدين .

تحمل نيفر في تلك اللحظة التبعة فأمر جميع الخدم والعبيد بمغادرة الغرفة على رغم وجود فرعون نفسه ثم خرج هو ايضاً وغادرني مع ابي وحدنا مع فرح اتحادنا ثانية .

جلست بعد ذلك على درجات العرش تحت قدمي أبي فرعون وبعد ان شرحت له ما جرى لي وتحدثنا كثيراً تذكرت رفاقي فذهبت الى الباب وعند ذلك عاد نيفر والعبيد الذين لم يلاحظ فرعون غيابهم على ما اعتقد – ثم عدت مع ساست وامينمحعت ومبناس فقبلوا صولجان فرعون ثم قصوا عليه ما تكبدناه من الاخطار في الليلة السابقة وموت عاتي الشجاع فثار عندها غضب فرعون وقال :

– لعمري لو كان اولئك الكهنة مسوك بأذى يا ولدي لقتلتهم على بكرة ابيهم ولسمتهم سوء العذاب ولا أستثني حرحور نفسه ولو ان آمون يصب على رأسي ناراً جزاء فعلتي فاني وأيم الحق أمقت هؤلاء الكهنة واخشى شرهم لانهم يأتون الي دائماً بنبوآتهم واحلامهم التي اشبه شيء بأوامر يلقونها علي ،اما الامير سيتو الذي يدعوني اباه وكان عليه ان يساعدني في شيخوختي فانه لا يمدني بشيء من المساعدة لانه يعاون خاله حرحور في كل شيء . وفي الواقع تنازل له عن

حقه في تولي الحكم بعدي بدلا من ان يناضل عنه وليس لدي وا أسفاه القوة لتنفيذ أوامري . الا تعلم يا ولدي ان حرحور يجري في عروقه دم الملوك ايضاً وانه بعد وعد سيتو له اخذ يلقب نفسه بالامير الوارث للعرش » ؟ ومع اني شيخ طاعن في السن فانه ليس هناك من يناصرني ويشد ازري غير نيفر وبعض الثقاة من المستشارين العبيد والحرس الملوكي .

فأجبته قائلا :

– لا أجهل شيئاً من ذلك أي فرعون أبي، وهذا هو السبب في مجيئي الى هنا مع اصدقائي فان ساست رئيس سحرة بتاح سيكون ندا لأي كاهن من كهنة آمون بسحره وامينمحعت بسيفه وقوسه اللذين يعرف كيف يستخدمها . أما انا فسأكون اليد اليمنى والقوة التي سترتكز عليها سلطتك . ولعمري سيعلم حرحور رئيس كهنة آمون ان هناك دماً أشرف من دمه ، دماً سيدافع عن حقوقه مهما كان يثق ذاك الكاهن بقوته .

فصاح ابي بفخار قائلا :

– احسنت القول يا ولدي . احسنت القول . لقد شددت أزري وجددت قوة جسمي الضعيف على انني اشعر الآن بضعف لما أصابني وعليه سأتناول الطعام معك ثم استريح . لا يفه احد بكلمة عما جرى لانني اريد مخاطبتك فيما بعد .

ثم تحول فرعون نحو الوزير – وكان قد التقط حجر الياقوت الذي سقط من الصولجان – ثم قال :

– حذار يا نيفر ان تذاع كلمة واحدة عما جرى في هذه الغرفة وكل من يخالف أمري هذا جزاؤه الموت .

وقع نظره على حجر الياقوت فصاح قائلا :

– ماذا ، ما هذا ؟ .

فقال الوزير :

– هذا حجر من الياقوت سقط من صولجانك عندما عانقت ولدك فقال فرعون :

– هذا فأل حسن . مر بوضع هذا الحجر في خاتم يلبسه الامير رعمسيس عند غروب الشمس غداً تذكاراً لهذا اليوم السعيد .

فقال نيفر اعترافاً بالاوامر التي تلقاها .

– فرعون حياتنا .

ثم غادرنا الغرفة في الحال .

٦

سرت خلف فرعون مع رفقائي ظهر ذاك اليوم الى قاعة المحاكمة الكبرى في القصر . وكان بتلك القاعة عرش الملك الرسمي ، وهو مصنوع من العاج المرصع بالذهب والاحجار الكريمة ، يخفر درجـاته أسدان رابضان من الابنوس لهما أعين من الياقوت . وكان فوق العرش مظلة قرمزية اللون موشاة بخيوط ذهبية طرزت عليها رموز كثيرة .

وكان في وسع فرعون وهـو جالس فوق العرش ان يرى جميع الرجـال الجالسين في القاعة بين الاعمدة والتماثيل الصامتة ثم الفناء الواقع خارج القـاعة بجدرانه المدهونة وارضه الرخامية الملساء .

وكان الوزير نيفر أعلن بين رجال القصر اننا جماعة من الرسل جئنـا من هيكل بتاح لاعلان رؤيا رأيناها ولذا وضعنا بين زمرة من اصحاب الملك فلما دخلنا القاعة مع رجال البلاط على مسافة وجيزة من العرش امام العبيد أخذ كثيرون ينظرون الينا نظرة دهشة واستغراب .

ولا عجب فان العبيد الذين لم يشهدوا ما جرى بيني وبين والدي فرعون كانوا يريدون معرفة ما جرى ولذا سرعان ما ذاعت في القصر عنـا اشاعات غريبة مختلفة .

لما فرغ القوم من تقديم فروض الطاعة والتحية الى فرعون وقف الجميع على اقدامهم. وكنت قد تعودت رؤية مظاهر الابهة والفخار فأخذت اجول بنظري أثناء تلاوة العرائض المقدمة الى الملك واقلب الطرف فيمن حولي من الاشخاص الذين كانوا ملتفين حول العرش ايضاً يرتدون ثياباً فاخرة .

ساعدني ساست على معرفة كثير من رجال البلاط لانه كان يعرفهم من لباسهم وشاراتهم كما كان يعرف من منهم المخلص للملك ومن هم انصار سيتو وحرحور .

كان اول شخص وقعت عليه عيناي رجلا متوسط العمر كان يطيل الينا النظر منذ دخولنا ويفحصنا باهتمام بعينيه الثاقبتين . وكان قصير القامة ضخم الجسم حليق الرأس : يلعق شفتيه دائماً بلسان كلسان الافعى، وفوق ذلك كان في خلال مراقبته ايانا يكتب كثيراً في لوحة كأنما يدون ملاحظاته عن حركاتنا وسكناتنا . وقد خيل الي انني رأيته من قبل مرة ولو انني لم اذكر ان رأيته إلا أن همس ساست قائلا انه اوسر (رئيس سحرة) آمون الذي زار منف منذ ست سنوات لمهمة دينية .

استطرد ساست في حديثه بصوت خافت قائلا :

— انظر . انه يعرف من نحن والظاهر انه أدرك انك الامير . لا ادري كيف ذاع السر ولكني اظن ان كهنة آمون يعرفون كل شيء يتعلق بالامر قبل أن نغادر منف . وهو رجل ذو قوة عظيمة في السحر قضى مدة طويلة رئيساً للسحرة — اي منذ قتل بسحره قائد حملة الرماح الملكية فسمع فرعون جدك به وعينه « خرهب » آمون .

أشار ساست بعد هنيهة الى رجل طويل القامة عريض المنكبين متوسط العمر اسمر اللون مقوس الانف ثم عاد الى الكلام فقال :

– هذا بسار حاكم نيامون وهو من سلالة ملوك الهكسوس (ملوك الرعاة) ومع ان اباه وجده من قبل شغلا مركزه هـذا فانـه يحاول دائماً ان ينضم الى الفريق الاقوى وعلى ذلك فهو الآن من انصار كهنة آمون .

« اما حرحور نفسه فـلا اراه هنا ولكنـه سيأتي بلا ريب فيما بعـد ومن المحتمل انه الآن يدبر دسيسة سرية للقضاء علينا ..

« اما ذاك الشاب الطويل الذي يرتدي ثياباً ملوكية ويلبس على رأسه تاجاً ذهبياً وهو الذي يخاطب الوزير نيفر ، فهو الامير سيتو اخـوك من ابيك وابن شقيقة حرحور . وهو مقاتل كبير ليس لا وسيلعب فقط دور سنان الرمـح في هذا النضال الذي عليك فيه ان تكسر قصبة الرمح واليد التي تحركه والرأس الذي يدبره . ولعمري سلك سيتوسبيل الحكمة بتنـازله عن حقوقه في العرش الى خاله حرحور اذ لو لم يفعل لقضى عليه ونبذ جانباً. أما هؤلاء الآخرون ..

فقاطعه امينمحعت وكان واقفاً خلفنا قائلا :

– من هذه الفتاة الطويلة ذات الجدائل المضفرة والجلال التي تحـدق النظر الى أميرنا ؟ .

فأجابه ساست بعد هنيهة قائلا :

– لا ادري . انها من سيدات القصر بلا مراء .

فقال امينمحعت :

– انها لا تبغضك أيها الامير . هذا على الاقل ما أراه من عينيها – هذا هو الكتاب الوحيد الذي أحسن القراءة فيه .

وفي الواقع كانت الفتاة المذكورة – كما قال امينمحعت – تنظر الي باعجاب عظيم جلي بعينيها السوداوين الجميلتين . ولما نظرت اليها أيضاً تبسمت ابتسامة حلوة

كشفت عن اسنان بيضاء بين شفتين ورديتين على ان ابتسامتهـا هـذه على رغم رشاقتها وجمالها أثارت عواطفي بحيث صرت مثل وحش ضار لا يكبح له جماح .

امسك ساست عندها وتمتم قائلا :

– كن على حذر ايها الامير واذكر الفتاة الفتانة التي لقيتها أمس – حذار من النساء .

وكان امينمحعت لا يزال يراقب الفتاة ويقدرها كما لو كانت حيواناً او سلعة وهذه خطته دائماً نحو النساء وكثيراً ما كان يقـول : « السيف للحرب والمرأة للسلم » . ولا عجب فقد كان امينمحعت جنديا خشناً تختلف طباعه عن طبـاع اخيه ساست .

نظر امينمحعت الي نظرة غريبـة وضحك بغلظـة وكأنه لم يشأ ان يترك موضوعه فاستطرد في حديثه قائلا :

– أظن انها أصيبت بسهام ملاحتك الفتانة ايها الامير . لعمري تبدو عليها سيماء فتاة عاشقة لا تحجم عن شيء فيه شفاء غليلها . وعندي لا تحاول خداعك كما يفعل النساء احيانا – هذا اذا كنت على علم في هذه المسائل .

في تلك اللحظة وقعت ضجة في طرف القاعة واخـذت جموع الحاضرين من الرؤساء والتجار وأصحاب القضايا وغيرهم يفسحون الطريق بسرعة امام سيـد كبير قادم مع حاشيته .

همس ساست اذ ذاك قائلا :

– اظنه حرحور .

وفي الواقع لم تمض لحظة حتى ظهر جسم حرحور الضخم الطويل وهو يمشي الخيلاء يتقدمه زنجيان ويتبعه كثيرون يحملون اعلاماً جميلة مزركشة عليها قرص آمون وغيرها من العلامات والرموز اللامعة .

نظر حرحور بجسمه الطويل وعينيه المتقدتين فيما حوله وكانت تبدو عليه سيماء الامارة اذ كان يجري في عروقه دم « آمون – حوتب » والده و «رعمسيس نختو » جده من جهة ودم والدته الاميرة آست ابنة رعمسيس السادس من جهة اخرى .

أخذ رئيس كهنة آمون يقلب الطرف بازدراء في جماعة من النبلاء والكهنة ورجال البلاط كما لو كانوا اشياء قذرة تحت نعاله الى ان التقت عيناه بعيني وأنا واقف مرفوع الرأس شامخ الانف مع رفاقي خلف العرش .

التقت أعيننا لحظة وجيزة الى ان حول حرحور عينيه الى عيني اوسر رئيس سحرة آمون والقى عليه نظرة استفهام أجابه عليها باحناء رأسه .

سار حرحور غريمي الى ان وصل الى قاعدة العرش فحنى رأسه في حين اصطف عبيده على اليمين واليسار ثم خاطب والدي باسمائه والقابه الكاملة بصوت جهوري قائلا :

– تحية وسلاماً اي فرعون يا من لا تنتهي له حياة ، تحية وسلاماً يا ابن الشمس امينمحعت – رع ، ملك الاراضي العليا والسفلى وسيد الجميع ، تحية وسلاماً اي حارس مصر ، بهاء الشمس ومحبوب هورس ، الابدي !

فمد فرعون اليه صولجانه فقبله حرحور ثم وقف منتصباً في حين رد فرعون عليه التحية ببطء وخاطبه كذلك بالقابه قائلا :

– تحية وسلاماً لك اي حرحور رئيس كهنة آمون والرفيق الاعظم في البلاد كلها . والقائد العام للشمال والجنوب .

وقف حرحور أمام ابي هنيهة وقد وضع يديه على صدره . وكنت اراقبه في خلال تلك الفترة فلاحظت امرين : الاول ان ابي كان في الحقيقة يخاف هذا الرجل القوي الذي وقف أمامه بقحة مقنعة على هذه الحال . وثانياً ان

حرحور كان يعلم هذه الحقيقة ويستخدمها لفائدته . وقد ادركت أيضاً بشعور داخلي ومن همس النبلاء حولي ان الشعور في القاعة كان ضد الملك وفي جانب الكاهن الاكبر فغلى دمي عندها في عروقي ولا عجب فقد كنت مولعاً بالقتال وخيل الي انه لا تمضي مدة وجيزة حتى يقع ذلك .

قال حرحور باقدام وشجاعة :

لدي التماس اي فرعون النبيل اريد عرضه في هذه الساعة التي عينتها للنظر في شئون رعيتك .

فقال فرعون ابي وهو يوجس خيفة على ما أظن .

– تكلم .

– هذا هو التماسي اي ابن الشمس: علمت ان عصابة من الرجال الاشرار حملوا ليلة امس في تلك المدينة التي تبعد عن هنا نحو نصف ساعة الى الشمال – على جماعة من كهنة آمون فقتلوا اثنين منهم وجرحوا كاهنين آخرين جراحاً بليغة . وقد علمت فوق ذلك ان هؤلاء الاشرار هم الآن في مدينة نيامون . والآن بصفتي رئيس كهنة آمون اطلب العدالة ايها القاضي العادل .

اعجبت بهذه الضربة المنطوية على الاقدام وهمست في اذن ساست قائلا :

– حقاً لم يضع حرحور لحظة في النزول الى الميدان .

فهز ساست رأسه وقال :

– ولكن اظن اننا في سلام اذا اظهر والدك قوة كما استقر عليه رأيه صباح اليوم لاننا تحت حماية فرعون . ان عزيمته الجديدة – التي لا تبقى طويلا – تناضل الآن ضد خضوعه الذي تعوده .

قال فرعون :

– ستجري العدالة مجراها .

تحول حرحور اذ ذاك ونادى كاهنين كانا بين حاشيته فتقدم الرجلان وقدما الى الملك فروض الطاعة . وقد لاحظت انهما مصابان بجراح بليغة وفي الواقع لف جسم احدهما بعصابات بحيث لم يظهر منه غير عينيه .

ضحك امينمحعت في اذني وقال :

– ها . أرى ان عاتي ابلى بلاء حسناً فقد قتل وحده منهم رجلا وجرح هذين الرجلين .

فلم أجبه لانني كنت اصغي اذ ذاك الى القصة الملفقة التي كان الكاهنان يقصانها فذكرا كيف انهم كانوا سائرين في احد شوارع المدينة فانقض عليهم خمسة رجال قتلوا اثنين منهم وجرحوا الآخرين ثم فروا . وكيف انهم اقتفوا اثرهم – مع انهم عزل من السلاح – الى ان وصلوا الى مرفأ على النهر حيث قتلوا احدهم بالاحجار .

قال فرعون على اثر فراغ الكاهنين من هذه الفرية مخاطباً حرحور :

– هل قبضت على الرجال الذين اقترفوا هذا العمل ؟

– كلا ايها الملك العظيم ولكني اعلم اين هم .

ثم حول عينيه نحونا بوحشية .

فسأله فرعون قائلا :

– أين ؟

فمد حرحور ذراعه وأشار الينا وصاح قائلا :

– ها هم .

ارتد الذين حولنا الى الوراء قليلا وهم يتمتمون وينظرون الينا بعين المقت . اما فرعون فتبسم ابتسامة صغيرة لانه كان يعلم حقيقة القصة فأدرك كيف ان حرحور حولها لفائدته .

قال فرعون في النهاية :

– تقدموا .

فتقدمنا امامه مقابل حرحور وانصاره وقد رأينا اوسر رئيس السحرة وراءه وهو يبتسم ابتسامة تنم على الخبث والدهاء ويتحدث باهتمام مع الامير سيتو . وهكذا وقعت الضربة الاولى وقد وقعت بسرعة .

خاطب فرعون ساست لانه لم يخاطبني الى تلك اللحظة لغاية حسنة في نفسه قائلا :

هل هذه التهمة حقيقة ؟

فقال ساست :

– كلا اي ابن الشمس المقدس .

ثم اخذ يقص على فرعون القصة كما وقعت تماماً . غير انه لم يذكر مسألة الفتاة الامر الذي ابتهجت له في نفسي . وقد ختم ساست حديثه وسط سكون رهيب قائلا :

– وهكذا ترى ايها الملك النبيل الذي لا تنتهي له حياة انه لا لوم علينا لاننا لم نكن الا مدافعين عن أنفسنا . وفوق ذلك ليس بيننا هنا احد مس كاهناً من كهنة آمون لان رفيقنا الذي مات هو الذي قتل الكاهن وجرح هذين الاثنين وسقط الآخر من جرح بسيط اصابه بخنجره المسموم لاننا لا نحمل شيئاً من ذلك .

ثم اشتدت لهجة ساست فقال :

– والان احكم اي فرعون هل قص عليك هؤلاء الرجال الحقيقة لانهم يقولون انهم كانوا عزلا من السلاح وانهم قتلوا رفيقنا رجماً بالحجارة . انظر الى اثر قبضات السيوف التي كانوا يحملونها أخيراً في ايديهم .

ثم اشار في الحال الى يدي الكاهنين اليمنيين حيث كانت آثار قبضة السيوف الحمراء ظاهرة جلية .

تعالت اصوات الاستحسان اذ ذاك من جانب ضباط فرعون لهذه الضربة المنطوية على المهارة ورأيت الوزير نيفر وهو يبتسم الي .

تملك الغضب حرحور عند ذلك واستولت عليه الدهشة واراد ان يتكلم ولكن فرعون رفع صولجانه فلزم رئيس الكهنة الصمت .

فكر فرعون في الامر قليلا وهو ينظر من فوق رؤوس الجميع الى الفناء الخارجي واخيراً قال :

– أرى اي حرحور شيئاً كثيراً من الكذب في هذا الجانب او ذاك . ومع انه لا يبعد ان يكون هؤلاء الرجال كاذبين ولا ريب في ان كهنة آمون المقدسين لا يرتكبون مثل هذا العمل فانه لا مندوحة لي مع ذلك ان احكم بما أراه . اسمعوا ايها الكتبة ودونوا اقوالنا لكي يذاع حكمنا في هذه القضية في جميع انحاء البلاد ولكي يبقى ابد الدهر .

« يخيل الي انك يا ساست ورفاقك قد قتلتم وجرحتم كهنة آمون لان الطرفين متفقان في هذا الامر . ان هذه خيانة خطيرة وعلى ذلك مهما كانت العوامل المثيرة لغضبكم فان دفاعكم لا ينفع ولا نحكم لكم بل ندع الحكم لكهنة آمون » .

حنى حرحور عند ذلك رأسه ابتهاجاً بفوزه وهو يزعم بلا ريب ان فرعون لا يزال تحت نفوذه . على انني كنت اراقب عيني والدي وهو ينظر الي من وقت

الى آخر فرأيت غير ما يزعمه حرحور . وفي الواقع استطرد فرعون في كلامه في الحال قائلا :

— ولكن فيما يتعلق بالقصاص فان الذي ارتكب جريمة القتل والجرح قد نال جزاءه بموته، وعلى ذلك لا ننزل القصاص بآخرين . وفوق ذلك أرى أي حرحور ان كهنتك قد استخدموا السيوف فعلا في المدة الاخيرة، ولو اننا لانستطيع القول الى الان هل استخدموها ضد هؤلاء الرجال او ضدغيرهم، وعلى ذلك نؤجل الحكم لك ايها الكاهن الاكبر للمعبود آمون الى ان تأتي أمامنا هنا في قاعة المحاكمة بجثة الرجل الذي قتله كهنتك فاذا ما عرفه زملاؤه، عليك ان ترينا انه قتل رجماً بالحجارة لا بتقطيع السيوف — لقد تكلمنا .

ساد سكون رهيب لحظة، واكفهر وجهه حرحور، ولو ان علامات الدهشة كانت بادية على وجهه بحالة جلية . ثم تلت ذلك ضجة عظيمة، فكان بعضهم يقول شيئاً والبعض شيئاً آخر الى ان اضطر ضباط فرعون في النهاية الى اسكاتهم وكان حرحور قد تملك عواطفه في تلك الفترة، فحنى رأسه ثم قال :

— فرعون منبع الحياة . لقد سمعت كلمتك أي بهاء الشمس .

ابتهج والدي بهذا الفوز على رئيس الكهنة — وهو الفوز الاول الذي ناله على ما علمت منذ مدة طويلة — ثم تشجع بفوزه هذا فقال ثانية :

— لدي كلمات أخرى اقولها لكم يا من اجتمعتم هنا حول عرشي ، كلمات ذات اهمية كبرى، تبتهجون لها كل الابتهاج. فاعلموا ان الابن رعمسيس الذي ولد لي منذ ثلاث وعشرين سنة، وأمرت بقتله وهو طفل، لم يقتل بل لا يزال على قيد الحياة ، وهو بينكم الآن وقد نجا من الموت بخدعة تمت ضد اوامري ، أصفح عن مرتكبيها في فرحي وابتهاجي .

بدت علامات الدهشة على وجوه الجميع ونظر كثيرون بذهول نحونا . اما

حرحور واوسر واصحابهما فلم تأخذهم الدهشة لهذا النبأ لانهم كانوا يعلمون كل شيء .

مد فرعون بعد ذلك صولجانه الي فتقدمت وجثوت تحت قدميه فقبلني في جبيني،ووضع على رأسي تاج الاسرة الملكية الذهبي، وكان الوزير نيفر قد توقع ذلك فجاء به معه .

صاح فرعون بعد ذلك قائلا :

– انظروا هذا ولدي الذي فقدته والان قد وجدته ، أمير الاراضي العليا والسفلى . والان اسمعوا هذا امرنا الملوكي فدونوه ايها الكتبة وأذيعوه اي قواد فرعون مصر وضباطه في جميع انحاء البلاد وهو : اننا لا نعتبر نبوة هاتور القائلة ان ولدنا سيكون سببا في جر الويلات على رؤوسنا : وان حرحور رئيس كهنة آمون الذي كان الى الان يدعى بناء على طلب الامير سيتو – الوارث الملكي لم يصر بعد الان حاملا لهذا اللقب ولم يعد له الحق بعد اليوم في تسمية نفسه « وارث الاراضي العليا والسفلى » و « الامير الوارث للعرش » وهما اللقبان اللذان سيكونان منذ الان حقاً لولدنا الامير رعمسيس دون سواه – لقد تكلمنا .

صاح الجميع اعترافاً بالامر قائلين :

– فرعون منبع حياتنا ! .

صاح الجميع بهذا القول ، على رغم ما كان يبدو على وجوههم من علامات الدهشة لتجرؤ فرعون الشيخ الضعيف على مناوأة رجل صاحب حزب قوي مكث مدة طويلة تحت سلطته .

حنى حرحور رأسه أمام العرش وامامي ايضاً – وكنت جالساً على يمين أبي اذ ذاك – ثم صاح هو ايضاً قائلا :

– فرعون منبع حياتنا ! .

على انني رأيت في هذه اللحظة انني أواجه في الواقع خصما عنيداً استطاع أن يتملك عواطفه حتى تحت تأثير مثل هذه الصدمة القوية .

قام فرعون على اثر ذلك وغادر قاعة المحاكمة وهو يتكيء على ذراعي الى جناح القصر الخاص به في حين سجد الجميع امامنا .

وبينما كنت خارجاً اذ وقع نظري فجأة على وجه الفتاة الحسناء التي اشار اليها امينمحعت، وكانت لاتزال تنظر الي ،فعجبت فينفسي كثيراً من أمرها لان امارات الاعجاب وشيئاً أكثر من ذلك كانت مكتوبة بخطوط جلية واضحة على وجهها . على انني رأيت أيضاً أعين الشر التي كان يرمقني بها حرحور وأوسر وبسار وغيرهم فعلمت أن اعدائي ليسوا قليلين في قصر الملك .

٧

قضيت بقيـة ذاك اليوم في النوم والراحة، وفي المسـاء وقعت حركة كبيرة لاعداد الغرف الخاصة بي والعبيد والحرس وغير ذلك من الانظمة والترتيبات اللازمـة لمكانـة ولي العهد . عـلى انني لم أعر كل ذلك اهتماماً، وابلغت الوزير ورجال التشريفات ان يعملوا ما يروق في أعينهم، لانني اشعر بتعب شديد من جراء سفري الى نيامون وما شهدته من الحوادث المشهودة ليلة امس واليوم .

وفي صباح اليوم الثاني فحص كتبة القصر ملف الاوراق الذي جئت به من هيكل بتاح، وسألوا ساست هل انا الامير حقاً . وهذا العمل لم يكن مندوحة منه حتى لا يقول احد من الناس في المستقبل انني محتال،ولما لم يجد الكتبة غشاً او خداعاً ارسلوا في الحال امر فرعون لكي يذاع في جميع انحاء مصر .

جلست بقية الصباح والجزء الاكبر من بعد الظهر في جلسة رسمية بجانب فرعون ابي، حيث جاء اعيان نيامون وقواد الجيش ورؤساء القضاة ورؤساء الكهنة في جميع الهياكل والمعابد وكثيرون غيرهم وقدموا فروض الطاعة الي بصفتي الامير الوارث للعرش واقسموا بين يدي يمين الاخلاص .

وقد لاحظت ان بعض هؤلاء كانوا يقسمون يمين الولاء بابتهاج كبير في حين كان كثيرون يقسمون بخبث وخداع ، ولكنهم مع ذلـك أقسموا كلهم لأنهم لم

يسمحوا بما كانوا يكنونه في قلوبهم ان يظهر على وجوههم . وفي الواقع جال بخاطري ان الحياة في القصر تشبه قشرة ثمرة حلوة ، فرعون ساقها في حين يشبه حرحور وانا دودتين تناضلان وتتنافسان في قلب تلك الثمرة الفاسدة ،فاذا ما كسر ساقها ، سقطت الثمرة وبان ما بداخلها من التعفن والفساد الذي قد تنمو منه ثمرة أخرى جديدة سليمة .

هـذا مـاجال بخاطري وانا جـالس اراقب النبلاء وهم يحنون لي رؤوسهم ويقسمون يمين الطاعة والاخلاص ، وقد ابتهجت نفسي بما أصاب حرحرر الذي حاول امس فقط وهو يعرف من انا ،ان يوقفني موقف القتلة المجرمين .

لما فرغنا من تناول العشاء في المساء بعد انتهاء هـذه الحفلة ذهبت مـع ابي فرعون لتقديم فروض الشكر والتعبد مع جميع الاشراف والنبلاء في هيكل المعبود آمون العظيم الساكن في الابدية . أمـا ساست ورفيقاي الآخران فـلم يرافقوني لانهم اعطوا غرفاً في مكان آخر من القصر ،وعلى ذلك لم ارهم منذ بعد ظهر اليوم السابق لما كنا في قاعة المحاكمة الكبرى .

وجدت انهم أعطوني عدداً كبيراً من العبيد المدربين الامناء وحرساً خاصاً من الجنود وكثيراً من الجواري كذلـك للقيـام بالواجبات الخـاصـة بالغرف ولتسليتي وسروري ،ولكني كنت اخشى الاقتراب منهن واخاف خبثهن — ولانه لم تكن بينهن واحدة جميلة يميل الانسان الى النظر اليها .

لم يكد يقترب زورق « رع » الذهبي (الشمس) من سمائهالغربي، حتى كنا نسير مجتازين شوارع طويلة مظللة في موكب رهيب ، يتقدمه لواء من الجنود لافساح الطريق ،يتـلوه جماعة من الكهنة بثيابهم البيضاء، في حين كان يحمل هودجنا عبيد غلاظ، ويحيط بنا من الجانبين حملة الاعلام والطبول والدفوف . وكان خلف حاشيتنا جماعة اخرى من الكهنة يحملون رموز مختلف المعبودات والآلهـة ثم يـلي ذلـك هودجي وهودج الامير سيتو مـع جميع النواب بحليهم

اللامعة ،ثم يأتي في النهاية جماعـة من حملـة الرماح الملكية والجنود المـأجورة ليمنعوا الناس من الاختلاط بنا .

لما وصلنا الى شاطيء النهر – لأن هيكل آمون كان في الجهة الشمالية من المدينة ، وعلى الضفة الشرقية لنهر سيحور (النيل) حدث امر صغير في حد ذاته الا انه كان من الممكن ان يتطور تطوراً خطيراً ، وقددلني فوق ذلك على انني سأجد في حرحور خصما قوياً وغريماً خطراً ذلك ان رجلا من الكهنة المتعصبين صاح ببعض كلمات فيها شيء يمسني اثناء سيرنا وسط الشوارع المزدحمة واتفق ان بسار حاكم المدينة الذي أخبرني ساست انه من اشد انصار حرحور– كان يسير خلفي مباشرة فوثب وسط الزحام قبل ان يتمكن رجال الحرس من القبض على الرجـل ثم امسكـه بيديه وسلمـه الى رجال الحرس وهـو يظهر الاستياء الشديد وامر بجلده .

غير انني لم اقع في الفخ الذي نصبوه لي ،وهو انني لم اعتقد من عمل بسار هذا انه من الموالين المخلصين لي ولوالدي ، لأن ساست كما قلت كان يعرفه لحسن الحظ ويعرف انه من عصبة حرحور . وعلى ذلك لما رأيت يد رئيس الكهنة في هذه المكيدة لم افه بكلمة لبسار عند ما اقترب مني وهو يتوقع مني شكره والاعراب له عن امتناني .

فكرت في الامر كثيراً، فرأيت كيف ان حرحور لما فشل في مكيدته الاولى حاول – وهو يجهل ان ساست يعرف بسار – ان يضع علينا جاسوساً من رجاله نوليه ثقتنا ونطلعه على اسرارنا من البداية .

أخيراً عبرنا النهر في أسطول من الزوارق المزينة الجميلة التي يديرها جماعة من النوبيين الاقوياء، العراة الاجسام، ووصلنا الى هيكل آمون الاكبر في شمال «اوبي» الذي لم يقع منظره في نفسي موقع هيكل بتاح في منف ، على رغم بنائه الضخم وما ادخل عليه الفراعنة من التحسينات البديعة .

وكان حول الهيكل عـدد من الابنية الاخرى ،تحيط بها الاسوار العالية والحدائق،ثم قصور الكهنةوالكاهنات ومصايف النبلاء الاغنياءوالاشراف، كما كانت هناك هياكل أخرى صغيرة للآلهة « ميوت » و « منتو » و « ازيس » وغيرها .

وكان هناك ايضاً هيكل جميل للمعبود « خونس » ابلغني ميريس رئيس عبيدي وتشريفاتي ان جدي رعمسيس الثالث هو الذي بناه . اما الابنية كلها فـكان بعضهـا يتصل ببعض، بممرات طويلة وسط الاحراج وقد نصبت عـلى جوانبها تماثيـل ابي الهـول وكانت توصـل الى هيكـل آمون الثاني في جنوب « لوبي » وهو الهيكل الذي أسسه امينحوتب نفسه .

دخلنا من باب الهيكل الكبير – وكان على يمينه معبد صغير جميل – ثم سرنا مباشرة الى « قاعة الاعمدة » الشهيرة التي كان سقفها محمولا على عدة اعمدة منحوتة متقاربة . ومع انها كانت تنار من الوسط بكوات صغيرة الا انها كانت دائما مظلمة حتى في رابعة النهار في حين كان الكهنة وهم يروحون ويغدون بين الاعمدة، يشبهون اشباحا قادمـة من « آمنتي » . وقد شيد هـذه القاعة – كما اخبرني ميريس ايضاً المعبود سيتي فرعون مصر .

اجتزنا هذه القاعة الى فناء توتميس الاول – وبينما كنا نسير الى قاعة اخرى مزينـة بنقوش بـديعة تتضمن تاريخ اوزوريس رأيت مسلات شاخة انشأتهـا الملكة هاتشيبسو المقدسة، التي كانت ملكة على مصر منذ اعوام عديدة.

وضعت هوادجنا اخيراً في الجزء القديم من الهيكل اي في القاعة الداخلية المجاورة للمعبد المصنوع من الجرانيت وهو معبد عتيق شيده الملك اوسر – تاسن منذ اكثر من الفي سنة . ويقال ان تحت هذ المكان ممرات ودهاليز وغرفا حيث يقطن الكهنة والسحرة الذين يدرسون اسرار آمون وحيث وضعت كنوز ثمينة .

نظرت فيما حولي، فرأيت في المعبد تمثال المعبود الأكبر « آمون –رع » نفسه وقد اختفى قليلا وراء ستارة زرقاء اللون وكان الى جانبه تمثال الام الكبرى ميوت والشاب « خونس » وهو يحمل القمر . ثم رأيت الى جانب هذه التماثيل حرحور نفسه – وكان يرتدي ثياب الكهنوت – ثم اوسر رئيس السحرة والكهنة والكتبة وكثيرين غيرهم قدموا كلهم الينا فروض الطاعة عندما وصلنا الى ارض المعبد المصنوعة من الرخام الجميل .

بدأت بعد ذلك صلاة طويلة قدم حرحور في خلالها – مكرهاً – فروض الشكر الى آمون لرده ابن فرعون الى ابيه بعد ان فقده مدة طويلة . ولما فرغ رئيس الكهنة من صلاته، قدمت انا وابي قرباننا وسكبنا الزيت والخمر وحرقنا البخور وقد فعلت كل ذلك باحترام لانه يجب اكرام جميع الآلهة ولو ان اتباعها ليسوا دائما من الذين عرفوا بالاخلاص وحسن النية .

صليت الى بتاح في نفسي وأخيراً تولاني الملل من الصلوات والتراتيل المتواصلة فخرجت من قاعة الصلات واخذت اقلب الطرف فيما حولي من النقوش البديعة والرموز الجميلة باهتمام شديد .

رأيت في النهاية جماعة من الكهنة ، واقفين الى اليسار في رحبة صغيرة يجتازها صفان من الاعمدة – اعتقدت اعتقاداً صحيحاً انهم جماعة الموسيقيين في الهيكل اذ كانوا يحملون آلات موسيقية مختلفة كانوا يوقعون عليها اثناء التراتيل ويغنون في بعض الاحيان غناء بديعاً .

وبينما كنت انظر الى هؤلاء بشيء من عدم الاكتراث، تملكتني عاطفة غريبة لم اشعر بمثلها من قبل وشعرت برغبة لا تقاوم للتقدم نحوهم والنظر الى وجوههم. ومع انني كنت احول رأسي عنهم كثيراً وانظر الى اجزاء الهيكل المختلفة محاولا فحص النقوش والصور وغيرها من الزينة البديعة فقد كانت عيناي تتحولان دائماً بقوة قاهرة الى جماعة الموسيقيين الواقفين في ظلال الاعمدة

الضخمة .

حرت في نفسي من امر هذا الشعور الغريب، الى ان خطر ببالي انه لا بد ان يكون احدهم قد تسلط علي بسحره لانني كنت واقفاً وسط الرحبة ظاهراً تحت المصابيح المصنوعة من البرنز . وفي الواقع تذكرت كثيرا من الحيل السحرية التي اخبرني ساست عنها ، وكنت اعلم حق العلم ان في وسع الذين يعرفون اسرار الآلهة ان يؤثروا بالقاء افكارهم في الهواء في غير افكارهم واعمالهم ويكرهوهم على الاذعان لارادتهم .

ومع ذلك لم يكن هذا التأثير مما تنفر منه النفس بل بالحرى كان ساراً لذيذاً ملأ نفسي رغبة غامضة وذكرى حلوة غير معينة . وكان مع هذا الشعور رغبة كانت تزداد شدة للنظر الى وجوه الواقفين وراء الاعمدة لانني شعرت يقينا بانني سأجد هناك تفسير ما حير عقلي واربك فكري .

وكانت هذه العاطفة قد اشتدت في نفسي بحيث لما انتهت الحفلة وكاد الزنوج يحملون هوادجنا الى الباب الاكبر الخارجي – أمرت ميريس رئيس العبيد والتشريفات الخاص بي ان يحملني عبيدي ويمرون بي من امام جماعة الموسيقيين بدلا من أن يتبعوا فرعون مباشرة .

اقتربنا من الموسيقيين فرأيت انهم يؤلفون من رجال ونساء من الكهنة والكاهنات – كما هو الحال في هيكل بتاح – وكانوا الآن قد بدأوا يتحركون بعد انتهاء الحفلة ويسيرون في موكب قاصدين قاعة الكهنة .

اخذت احدق النظر الى وجوههم اثناء مرورهم لكي اقف اذا استطعت على معنى هذا الشعور الغريب الذي استولى علي ولو انني لا استطيع ان ادرك السبب الذي حملني على ان اكبد نفسي مشقة هذا العمل الذي كان شيئاً ما فوق شعوري الخاص وخارجاً عن حدوده .

وبينما كان الموسيقيون من يمرون امامي – الكهنة اولا ثم الكاهنات – وهم

ينظرون الي بدهشة وانا مضطجع في هودجي – أخذت اضحك من نفسي واعجب من جهالتي . ومع ان الشعور الغريب الذي تملكني كان لا يزال قوياً فقد كدت اصدر امري بالتحول والذهاب على انه التقت عيناي فجأة بعيني احدى العذارى وكانت تحمل « الجلجلة المقدسة » في طرف الصف .

انتقلت عيناي عن عينيها لحظة قصيرة الى قوامها البديع واجزاء جسمها الرقيق ومنكبيها العاجيتين العاريتين وثوبها الابيض وقد امسك بمنطقة ضيقة تحت انحناء صدرها مباشرة وجدائل شعرها المعصوبة حول رأسها الصغير برباط من فضة .

خيل الي اذ ذاك ان دقات قلبي وقفت، وانفاسي انقطعت، ودمي يضطرب بجنون في عروقي – وبعدها تحولت عيناي الى عينيها ثانية .

احدقت النظر دقيقة كاملة – كما لو كنت تحت تأثير سحري – الى تينكما العينين السوداوين العميقتين وادركت ان التأثير الغريب القاهر الذي شعرت به كان آتياً منها – ومنها وحدها .

تحولت الرغبة الغامضة الغريبة الى نار متقدة – ثم تلاشت لانني وجدت في تلك اللحظة ما كنت ابحث عنه . ولا عجب فقد اشتعلت بيننا فجأة شرارة تفاهم ومعرفة وحب وابدية، وصار كل شيء حولي من الهيكل والكهنة والعبيد مظلماً ومعتماً كمخلوقات في عالم آخر فلم أع شيئاً اللهم الا انني كنت احدق النظر الى تينكما العينين السوداوين العميقتين ...

تمثلت حولي مناظر غريبة حجبت اعمدة الهيكل بنقوشها وصورها، مناظر قديمة لا اعرف عنها شيئاً ...

... امامي اشجار ضخمة وحيوانات غريبة الخلقة وزحافات ومظلة غليظة من اوراق الاشجار عالية فوق رأسي كانت تتساقط منها قطرات من الندى

الساخن الى الارض الملتهبة . . ناضلت في سبيل انقاذ حياتي وحبي – ومع ذلك كنت لا ازال احدق النظر الى تينكما العينين الغريبتين . . .

تمثلت أمامي ثانية قصور بديعة وحصون منيعة لا توصف ، ورأيت رجالا غلاظا وأمراء وحكاما كنت بينهم – انا الامير – عبداً رقيقاً . على ان السعادة كانت معي لان التي احببتها كانت دائماً الى جانبي ، امة رقيقة مثلي . وقد تحولت اليها فأحدقت النظر مرة اخرى الى عينيها الجميلتين السوداوين وقرأت فيهما سر الروح الرهيب . . . جاء الآن بحر هائج مضطرب الامواج يعلوه الزبد وتكتسحه العواصف ، عليه سفينة لم ار لها مثيلا . . . اصطدمت السفينة اصطداماً شديداً فازدحم رجال غلاظ بلحى حمراء مثلي على ظهرها . . وكان بين ذراعي قوام نحيل بعينين سوداوين واهداب طويلة وجفون تفتحت في النهاية عندما أمسكت قبضة الحب الحديدية بقلبي . . . وبعدها احدقت النظر ثانية – كما فعلت منذ عصور عديدة – الى تينكما العينين اللتين ابقتا في اعماقهما الحياة كلها ، والحب كله ، والابدية كلها . . .

هب نسيم المساء البارد على جبيني اثناء انتعاشي ببطء . في حين كان العبيد يفركون يدي ويبتهلون الى الالهة . وكان هودجي في الخارج في فناء ثوثميس ، وبعض رجال الحرس يمنعون الكهنة وخدم الهيكل وغيرهم ممن التفوا حول المكان للوقوف على حالتي .

خيل الي انني ارى كل هذا بشكل غامض غير جلي . وقد مكثت هنيهة بحالة ذهول أطيل النظر الى كبش مقدس للمعبود آمون – رع اخترق الصفوف دون ان يجرأ احد على مسه ثم وقف يحدق النظر الى هودجي بعينين بهما شيء من الخوف والعجب .

صاح ميرس قائلا :

– هل افقت ايها الامير ؟ اواه تكلم يا سيدي وقل انك بخير .

فأجبته قائلاً :

– انني بعافية يا ميريس.

فصاح ميريس في الحال قائلا :

– شكراً لك ايها المعبود المقدس « آمون – رع » . لقد امتقع وجهك وأغمضت عينيك وانت تراقب جماعة الموسيقيين . لا ريب في انه لو اصابك شيء لجزت رؤوسنا كلنا .

ثم انتفض خوفاً واحدق النظر الى الآخرين فتبسمت وقلت :

– كن مطمئناً . لقد ذهب فرعون أمامنا مع حاشيته ولا يعلم من هذا شيئاً وسوف لا اخبره انا بشيء . اظن انه اصابني دوار بسبب شدة الحر في الهيكل والبخور .

على انني أخذت افكر في نفسي كثيراً اثناء عودتنا الى القصر الملكي لانني كنت واثقاً من انه ليس البخور ولا حرارة الهيكل هما اللذان تغلبا علي بهذه الصورة بل هو شيء ما اعمق واقوى واقدم من الكهنة والهياكل ، شيء اقدم من الآلهة نفسها .

لم اشهد من قبل هيكل آمون العظيم في نيامون ولا رأيت من قبل هؤلاء الكاهنات اللائي يشتغلن بعزف الموسيقى على انني رأيت في عيني تلك العذراء ذات الجدائل القصيرة التي كانت تحمل « الجلجلة المقدسة » في يدها – المعرفة . نعم ورأيتها ايضاً معكوسة في مرآة عيني . وفي الواقع علمت في اعماق نفسي حق العلم ان هذه ليست اول مرة التقت فيها روحانا على الارض ولو إنه يجوز اننا التقينا في عصور سابقة وبلاد أخرى لانني تعلمت من ساست وابيه من قبله شيئاً عن اسرار الآلهة وارواح البشر والحياة الابدية والحب الابدي .

لما وصلنا في النهاية الى الباب الخارجي للقصر كنت لا ازال افكر بالفتاة

التي رأيتها وبملاحتها وهي واقفة بثوبها الابيض تحفها الطهارة والعفاف وبمحياها الجميل وشفتيها المتوردتين وخصوصاً فكرت بجدائل شعرها التي كانت تحيط بوجهها كالهالة وتتدلى فوق منكبيها لان العادة في مصر ان الفتيات كن يضفرن شعورهن ضفيرتين طويلتين او عدة ضفائر قصيرة .

لم استطع ابعاد فكرتها عن مخيلتي، وتملكتني مرة اخرى رغبة شديدة جنونية كانت تدفعني نحو رؤيتها ثانية، وكانت هذه الرغبة اشد من تلك الرغبة الغامضة التي تملكتني في الهيكل . وفي الواقع كانت الرغبة الاولى تجاذب بين روح وروح أما الان فكانت نداء بين فكر وفكر وجسد وجسد ، ورغبة تحولت الى روح وجسم وشكل .

٨

قابلني تلك الليلة ساست وامينمحعت لمحادثتي في شؤون القصر لانها قضيا يومها في اكتشاف وسبرغور الدسائس العديدة والمؤامرات السرية التي كانت تردد دائماً انفاس الحياة في القصر .

تحدثنا كثيراً ووضعنا خططاً عديدة في امور مختلفة وبعدها ذكرت لهما ما اصابني في الهيكل والشعور الذي تملكني . على ان ساست بدلا من ان يساعدني كما توقعت ذلك منه نظر الي بعين القلق وانذرني قائلا :

— توخ الحذر ايها الامير في معاملة كاهنات آمون فان كثيرات منهن قطعن على انفسهن عهد العفة وارتبطن برابطة الزواج بالمعبود ومع انك الامير الوارث للعرش فان تدنيس المقدس هو الشيء الوحيد الذي يمكن مقاضاتك عليه لان الدين في ارض مصر فوق امارة الملوك .

« ثم احذر ايضاً في معاملاتك مع النساء لاسباب اخرى، واعتبرهن خصما لـك في المهمة التي القيت عـلى عاتقنـا ، تحركهن حسب ارادتك ، لا تخضـع لارادتهن ولا تدعهن يلعبن بك على انني اوصيك ان لا تتجنبهن بتاتاً لانك جميل المحيا وفي وسع الانسان - مع امرأة تحبه حباً صادقاً — ان يقوم بعظائم الامور لأنها لا تفكر بالمستقبل بل بالحاضر فقط .

فقاطعه امينمحعت كعادته بخشونة لم اعرها اهتماما قائلا :

– يا لك من اخ عبوس الوجه . لماذا تلوم اميرنا دائماً ؟ دعه وحق هاتور يتمتع بضروب السرور كما يشاء . اقول لك انه يهوي فتاة رشيقة فدعه يحظى بها اذا شاء فانها لا تقتله . لماذا تريد ان لا يمس فتاة طول حياته – خصوصاً فتيات نيامون الفاتنات ؟

زعم ساست انني غضبت من قوله فتولاه شيء من الخجل وقال :

– اسألك المعذرة ايها الامير اذا كنت قد اسأت اليك في شيء . ان غيرتي على قضيتنا تتغلب على كل شيء آخر – حتى على حبي لك في بعض الاحيان .

شعرت بشيء من الاستيـاء لارتيابـه ولاستخفافـه بالشعور الغريب الذي تملكني بعد ظهر ذاك اليوم . على انني صفحت عنـه واخبرتها في الحـال كيف طلبت الى والدي ان يقطنا وميناس في جناح القصر الذي اعـد لي بـدلا من بقائهم بعيدا عني وان يعامل ساست بالكرامة التي يستحقها بصفته رئيس سحرة بتاح وهي خطة ابتهج لها الشقيقان كثيراً . وفي الواقع كان لايود احد منا الابتعاد عن الآخر – عـلى رغم كثرة الحرس حولنـا – لكثرة اعدائنا في القصر .

لم نكد نفرغ من حديثنا حتى دخل ميريس رئيس التشريفات علينا وقال ان شخصاً في الخارج يريد محادثتي .

فسألته قائلا :

– هل تعرف من هذا الشخص ؟

فأجابني قائلا :

– كلا ايها الامير ولو انها امرأة – انها سيدة تتبعها جاريتان، ترتدي ثوباً طويلا وقناعاً ثقيلا . على انني اعرف احدى الجاريتين شبهاً وهي من جواري

قصر حرحور وقد رأيتها في خدمة السيدة تنزو ابنة حرحور رئيس كهنة آمون .

فتحولت نحو ساست وسألته قائلا :

– انها سيدة من قصر حرحور فهل تزعم انها دسيسة ؟

فكر ساست قليلا ثم قال :

-- يكاد لا يعقل انهم يقومون بدسيسة ظاهرة لأنهم يستخدمون في ذلك الرجال لا النساء . كلا . ربما حدثت محاولة لكي ... لكي ... كما حدث في تلك الليلة ايها الامير .

وكانت ذكرى الفتاة التي رأيتها في الهيكل لا تزال عالقة بفكري فأغربت في الضحك قائلا :

– لا شأن لي بعد الآن بمثل هذا . انني الآن اعظم حكمة فقاطعني ساست فجأة قائلا :

– انتظر ! لدي فكرة . اعلم ايها الامير ان في قصور الملوك توجد دائما دسيسة داخل دسيسة مثل انصاف اقطار داخل دائرة فمن المحتمل ان تكون هذه احدى سيدات قصر حرحور ارادت بدافع بغضها له ان تمدنا بيد المساعدة للوصول الى غرضنا اذ اعلم ان السد قد قام الان بينك وبين حرحور . اذا كان الامر كذلك كان هذا مما يساعدنا على تنفيذ خططنا وفرصة يجب ان لا ندعها تفلت من ايدينا . والان في وسعنا ان نعرف اذا كانت هذه المرأة صادقة فيما تقوله او مخادعة .

فسألته قائلا :

– كيف ؟

– مر ميريس ان يبحث عن الباب الذي دخلت الفتاة منه الى القصر لأنها

جاءت من الخارج بلا مراء، فاذا كانت دخلت من اي باب غير الباب الجانبي الغربي فانها تكون غير مخلصة لنا، لان جميع حراس تلك الابواب من مأجوري حرحور هذا الاسبوع ومن أنصاره ، فاذا كانت مكيدة استطاعت والحالة هذه ان تدخل بأغضاء نظرهم عنها .

« أما اذا كانت من جهة أخرى تسعى فعلا في سبيل مساعدتك، فانهاتدخل من الباب الجانبي الغربي لكي لا يعرفها الحراس الذين هم من حزبها وهي تزورك. وفوق ذلك سأختبيء – على سبيل الحذر – مع أخي امينمحعت وراء هذه الستائر، لكي نقدم اليك المساعدة اذا تطلب الامر .

– ليكن ما تريد .

ثم تحولت نحو ميريس وخاطبته قائلا :

– اذهب ومر السيدة بالدخول، وبعد ذلك ابحث كما سمعت عن الباب الذي دخلت منه الى القصر، ثم عد واخبرني بكلمة واحدة دون ان تثير شكوكها .

ذهب رئيس التشريفات فتمتم ساست قائلا :

– لاريب في انهـا احدى وصيفات السيدة تنزو اللاتي تثق بهـن ، أغضبها حرحور، فأرادت ان تنتقم منه بمساعدتك ايها الامير رعمسيس .

تكلم امينمحعت اذ ذاك لاول مرة منذ بضع دقائق قائلا :

– او يحتمل اكثر من ذلك ان تكون محظية نبذهـا ، فأرادت ان تحفر له حفرة ليسقط فيها . ان الحذاء الذي ينبذه الانسان هو الذي يسبب له العثرة دائماً لا الحذاء الذي لا يزال في رجله، ولكن لا تنس هـذا ايهـا الامير وهو ان النساء لا يقمن بهذه الامور بدافع بغض الآخرين فقط .

ثم نظر الي نظرة ذات معنى قبل ان يختفي مع اخيه وراء الستائر الكثيفة

التي كانت مدلاة بجانب النافذة .

رفع ميريس على اثر ذلك الستارة المدلاة على الباب ودخلت السيدة المتنكرة ثم سارت نحوي بخطوات بطيئة .

وقفت الفتاة مترددة وسط الغرفة لحظة والجاريتان وراءها . وأخيراً لما رأت انني منفرد، رفعت عن وجهها القناع والقت بالمعطف تحت قدميها، فلم اتمالك نفسي عندها وتولتني الدهشة . ولا عجب فقد رأيت امامي الفتاة نفسها التي كانت تحدق الي النظر بعد ظهر ذاك اليوم في « قاعة المحاكمة » وكانت ترتدي ثوباً ابيض شفافاً كشف عن كتفيها وصدرها – وهو الثوب الذي ترتديه عادة اميرات مصر – تحفها المهابة والجلال .

أحدقت الفتاة الي النظر كما فعلت في المرة الاولى فرأيت، انها ليست امرأة عهد اليها بمهمة او محظية نبذت من بيت حرحور،بل بالاحرى اميرة وسيدة من بيت رفيع جاءت لمهمة تتعلق بها .

أخيراً حنت الفتاة رأسها امامي، بحيث وقعت عيناي على جمال كتفيها العاريتين، ثم قالت بصوت عذب رقيق :

– هل عجبت ايها الامير رعمسيس لمجيئي الى هنا الليلة. فقلت بشيء من الحيرة :

– نعم وأيم الحق . هل تريدين مني شيئاً ؟ ... التماساً ؟

فقاطعتني بأنفة قائلة :

– كلا . لم آت لأتوسل او لأطلب شيئاً، بل جئت لأعطي – وهو امرجديد لدي .

فتولاني شيء من الارتياب من نحوها وسألتها قائلا :

– ماذا لديك لتعطيه ؟

– اصغ ايها الامير الوارث للعرش لحظة وجيزة لخادمك .

سمعت الفتاة اذ ذاك وقع اقدام في الخارج، فالتقطت القناع كالبرق وغطت وجهها .

دخل ميريس الغرفة ثم حنى رأسه وقال :

– الغرب ، ايها الامير .

ثم غادر الغرفة في الحال فارتاحت نفسي، وذهبت وساوسي، لانني ايقنت من هذا البرهان الجديد مع ما قاله امينمحعت وما رأيته في عينيها في تلك اللحظة ان الامر ليس دسيسة او مؤامرة بل بالاحرى كان مجهوداً صادقاً لمساعدتي .

استطردت الفتاة في حديثها بعد ان تلاشى وقع اقدام ميريس فقالت :

– اعرني اذناً صاغية ايها الامير، اذ لدي اقتراح اعرضه عليك – اقتراح سري .

فأجبتها بأن اشرت الى جاريتيها بسكون . فأجابتني على انذاري الصامت بقولها :

– كلتاهما بكماء صماء يمكن الثقة بها .

ثم عادت الى موضوع حديثها فقالت :

– اعلم ايها الامير كما يعلم الجميع حق العلم، ما وصلت اليه الامور في هذا القصر بينك وبين كهنة آمون واقول لك انه ليس هناك وقت يمكن تضييعه . ولكن قبل ان نخوض في ذكر هذا الامر، او في الامور الاخرى، اظن انه خير لنا ان نكون على بينه من امرنا . فهل تعرف من انا !

– كلا ايتها السيدة اللهم الا انك من بيت حرحور .

فأجابتني ببساطة قائلة :

– انا تنزو ابنة حرحور .

ثم استطردت في حديثها بسرعة ، قبل ان افوه بكلمة قائلة :

– اعلم ايها الامير ان العلائق بيني وبين ابي ليست على ما يرام .

ولعمري يظهر ان الخطط العظيمة التي وضعها، والقابه وتحققه من الاستيلاء على العرش ، قد اربكت عقله بحيث ارى انا صغرى بناته ان قصره لم يعد يسعني ويسعه . ولست فوق ذلك راضية عن مشروعاته لانني لا اكون مع اشقائي وشقيقاتي الكثيرين الا احدى الاميرات، وهذا لا يروقني قط لانني كبيرة المطامع راجحة العقل . وعندي مهما كانت هذه المكانة رفيعة فانني اتطلع الى مكانة ارقى واني اؤثر المقامرة بكل ما لدي للوصول الى بغيتي هذه على ان اقنع بالقليل ثم – وهنا رق صوتها بحالة غريبة وحجبت اهدابها الطويلة عينيها – ثم لا اريد ايها الامير المبجل ان اراك مغلوباً مقهوراً – مقتولا، وهو ما سيصيبك بلا مراء لان حرحور اليوم ذو سلطان وفرعون ضعيف ...

أردت اذ ذاك ان اقطع عليها الحديث، فرفعت يدها وقالت :

– كلا . لا تقطع علي الحديث . انظر ! لقد توخيت معك كل صراحة، فاسمع اذن اقتراحي : تعلم كما اخبرتك الآن ان العلائق متوترة بيني وبين ابي ، فاذا وعدتني شيئاً واحداً ، استطعت ان اقسم حزب ابي شطرين، فيتعلق الحزب الذي يبغضه بي او بعبارة اخرى يتعلق بك، فلا يبقى مناوئاً لك غير نصف حزبه فقط . وعلى ذلك لا ريب في انك تقضي على اعدائك وتجلس آمنا على عرشك بعد وفاة ابيك .

تولتني الدهشة لهذا القول فوق ما اعتقد ، اذ رأيت امامي فرصة طيبة

للوصول الى بغيتي التي كانت تبدو فيما مضى محفوفة بالمتاعب والاخطار . وقد لاحظت فوق ذلك، ان ما قالته الفتاة ليس بعيد الاحتمال، لانه لا مندوحة دائما في حزب كبير كحزب حرحور ، من وجود خلاف بسيط لا يمكن رؤيته ولا يفيد الخصم، ما لم يظهر وتتسع هوته بالخطط المبنية على الحذق والمهارة .

أخيراً خاطبت الفتاة قائلة :

– ما هذا الشيء الوحيد الذي تريدين ان اعدك به ؟

فأجابتني بصوت رقيق قائلة :

– هو هذا : ان اجلس الى جانبك – بعد ان تنال الغلبة على اعدائك – كزوجتك الشرعية وملكة البلاد .

ثم تغيرت لهجتها الى لهجة التوسل ، وهي واقفة بثوبها الرقيق تحدق النظر الي بعينيها اللامعتين وقالت :

– لا تغضب علي ايها الامير رعمسيس . ليس ما ذكرته الا مساومة اراها حسنة لفائدتك اذ لابد ان تتزوج بفتاة ما ، بفتاة يجري في عروقها دم الملوك – مثلي لانني من سلالة الاميرة آست ومن ابيها رعمسيس السادس . وفوق ذلك اذا اخذتني الى عرشك وفراشك، تغلبت على ابي في سباقكما للوصول الى العرش ومنعت برابطة زواجي بك جميع الدسائس التي تدبر ضدك في الخفاء .

ثم عادت فقالت بانفعال :

– وحق اوزوريس . ليس الامر الا مساومة ، انني اعرض عليك تاج الفراعنة المزدوج، مقابل شيء واحد، وهو انني اشاطرك ابهة الملك كملكة مصر.

امسكت الفتاة عن الكلام هنيهة، ولما لم تبد مني اشارة، عادت الى الكلام بلهجة رقيقة قائلة :

– في وسعنا ، أنا وانت ، ان نحكم هذه البلاد الجميلة كما لم يحكمها احد من قبل، وسأفعل كل شيء – كل شيء تريده ايها الامير –ثم تداركت الامر فقالت بسرعة – وهذا على الاقل مقابل مـا ستعطيه اياي من نفوذ وسلطان . ولهذا الغرض وحده اطلب ان اكون ملكة مصر، وزوجة الملك الشرعية وام اولاده وعروس فرعون المعبود المقدس .. والا بالطبع ما طلبت ذلك .

ارخت الفتاة عينيها الى الارض، وتخضب وجهها وعنقهـا وصدرها بحمرة الخجل والحياء . وقد رأيت ، انا الذي ليست لي دراية كبيرة في معرفة افكار الفتيات – من لمعان عينيها ومن نظراتها الي، ان الطمع ولو انه من الاسباب الكبرى – لم يكن السبب الاساسي .

فكرت بعد ذلك بساست وشكوكه الدائمة، فخطرت في الحال في عقلي فكرة اعجبت بها، لانها كانت برهاناً قاطعـاً رأيت ان اقدمه الى ساست المختفي وراء الستارة، لانني كنت واثقاً من اخلاص الفتاة، بدليل ماقرأته في عينيها فتبسمت وسألتها قائلا :

– لقد أطلعتني على اسرار كثيرة، فلنفرض الآن انني بحت بهذه الاسرار الى آخرين .

فصاحت وقد تملكها رعب جلي ظاهر قائلة .

– اواه . اذا كنت رجلا شريفاً ... اتوسل اليك ... ان ابي يقتلني ..

ارتاحت نفسي وقتئذ لنجاح حيلتي . وفي الواقع لو كانت اقتراحاتها دسية لما تغلب خوفها من ابيها عليها، لانه يكون مطلعاً على كل شيء .

قلت بلهجة التأكيد .

– لا تخافي . لقد اوليتني شرفاً عظيما ايتها السيدة تنزو ولعمري لا ادري ماذا اقول .

ومع ان كبرياءها لم ينثن الى هذه الآونة لكي تستدرجني ، الى ان تعلن لي حبها وتبث لي غرامها، فانها لم تخط خطوة بل انتظرت ولم تحر جواباً .

وبينا كنت افكر في الامر كله، اذ تذكرت فجأة الفتاة التي رأيتها في الهيكل ولم البث مرة اخرى اذ شعرت بعينيها المملوءتين توسلا والمفعمتين بأسرار الحب الابدي تنظران الى عيني .

فكرت بها، ثم فكرت بالفتاة الجميلة الواقفة امامي التي ستكون – اذا قبلت – زوجتي فشعرت بميل قليل نحوها، غير ان صورة الفتاة الاولى كانت قد انطبعت الآن في قلبي مدى الدهر وعلى ذلك قلت اخيراً .

– لقد اوليتني اي تنزو شرفاً اكبر مما استحق، ولو انني ابن فرعون، ومع ذلك لا استطيع واأسفاه ان اجيبك الى طلبك لاسباب – لاسباب خاصة بي . لاحظت اثناء كلماتي هذه ان الستائر التي اختفى وراءها ساست وامينمحعت تتحرك بغضب، فتمنيت لو انهما كانا في مكان آخر لا يختبئان يسمعان قولي.

صاحت الفتاة وقد تجلت في صوتها وعينيها دلائل الحب المطلق، والوجد الصحيح قائلة :

– اواه . فكر . فكر فيما تقول ايها الامير .

تجلت شدة شغفها امامي ،وبدت ملاحة قوامها البديع وجمال وجهها بحالة اهاجت عواطفي، واثارت وجداني على رغم رسوخ غرضي . على انني استجمعت قواي، وقاومت هذه العاطفة، فكبحت جماح عواطفي وهززت رأسي ببطء .

صاحت الفتاة وهي تلهث قائلة : « اواه ... » .

ثم ترنحت بحيث خيل الي انها ستسقط تحت قدمي متوسلة . على انها تملكت عواطفها، ونظرت الي نظرة غريبة هنيهة، ثم لوت اصابعها الى ان ابيض

لحها واخيراً قالت بصوت هادىء .

– انك تهوى فتاة اخرى .

فلم افه بكلمة، لانني في الواقع لم اكن واثقا من امري على ان وجنتي احمرتا اثناء فترة السكوت التي تلت ذلك .

صاحت الفتاة قائلة :

– اواه . لقد ادركت الآن .

ومع ان صوتها كان جافـــا من شدة الغضب والاباء والغيرة الا ان عينيها السوداوين كانتا مغرورقتين بدموع حارة .

لفت الفتاة جسمها بردائها ، واسدلت قناعها على وجهها ثانية، ثم سارت الى الباب تتبعها جاريتاها وعندها تحولت . وقـــد كادت تختنقها العبرات – ولا ادري ان كان ذلك من تأثير الغضب او خيبة الامل – ثم قالت :

– ايها الامير رعمسيس. لقد تعودت – كما قلت – ان اطلب اكثر مما اعطي ولكن متى اعطيت فانني لا اريد ان يرفض طلبي .

ثم اسدلت الستارة وراءها .

لم يكد يتلاشى وقع اقدامها، حتى كان ساست الى جانبي وهو يصيح قائلا :

– ماذا فعلت ايها الامير . ان هذه فرصة أرسلها الينا بتاح ...

فصرخت في وجهه قائلا :

– الزم الصمت . اراك قد نسيت نفسك في تبجحـك . هـل أنا عبد حتى يخاطبني رجل مثلك بهذه الاقوال ؟ .

ومع ذلك كان غضبي من نفسي اشد من غضبي منه ، لانني أدركت ان عيني

تلك العذراء التي رأيتها في الهيكل ، هما اللتان حولتاني عن الطريق التي تؤدي الى تحقيق غرضنا ولو انني قلت في نفسي ان هناك طرقاً اخرى توصل الى الغاية نفسها ، طرقاً عقدنا النية على سلوكها قبل ان نفكر او نعلم عن هـذه الطريق شيئاً .

كبح ساست جماح عواطفه بمجهود كبير ثم حني رأسه وقال ببطء :

— لقد وضعت الكأس في يدك ايها الامير ، ولكن رايت ان تلقيها الى الأرض وتحطمها — ومع ذلك قد استطيع ان اجمع اجزائها .

ثم غادر الغرفة مسرعاً قبل ان اسأله عن معنى كلامه او عما ينوي عمله .

تحولت الى امينمحعت وكان يفكر وهو يلعب باصابعه في لحيته ، فقال وهو ينظر الى السقف :

— ربما أصبت في عملك ايها الامير وربما لم تصب ، ولو انه لا بـد ان تكون فتاة الهيكل فتانة لانها في عينيك اكثر من السيدة تنزو . التي قلت في « قاعـة المحاكمة » كما تذكر انها وقعت في شرك هواك ، ولكن كان الاجدر بك ايها الامير ان تسلك معها طريقاً غير التي سلكتها الان المرأة اذا نبذت بامتهان ، صارت عدواً مدى الحياة .

على انني كنت حانقاً على نفسي وعليها ايضاً واشعر بملل ورغبة في النوم فأمرت امينمحعت بالانصراف ثم استدعيت عبيدي وذهبت الى مخدعي .

٩

في صباح اليوم التالي بعد انتهاء الحفلات الدينية العادية في هيكل آمون الصغير المجاور للقصر — اصدر والدي فرعون امراً بأن اقف الى جانبه في قاعة المحاكمة لاسدائه النصح من جهة، ولاقف من جهة اخرى على واجبات الملك. وقد وجدت بمرور الايام ان هذه الواجبات كثيرة متباينة الانواع، وفوق ذلك لم اجد الحرية التي كنت اتوقعها مع السلطة . وفي الواقع كان والدي — وانا ايضاً — مقيدين بقواعد وقوانين، ابتداء من تقديم القرابين الى تناول الطعام والخمر.

وكان علي فوق هذا وذاك ان اقاوم نفوذ حرحور الذي كان على ما يظهر القوة المدبرة للسلطة الملوكية، في حين كان أبي الآلة المحركة. وفعلا وجدت بعد مدة وجيزة ان كل لحظة من ايامي مفعمة بالاعمال، وان كل شيء اريد القيام به من تلقاء نفسي يحول كهنة آمون دون تنفيذه قائلين انه ضد ارادة المعبود، او ضد مصلحة الشعب فكان يتملكني الغضب واقسم ان لا أدع في مجلسي — اذا ما صرت ملكاً — أحداً من الكهنة اللهم الا من يعرف كيف يحترم ارادة ملكه. وقد رأيت — والاحوال على ما هي عليه — ان النضال بيني وبين حرحور سيكون طويلا شديداً، خصوصاً لانه يجري في الخفاء وراء ستائر آداب الحياة والمجلات في القصر.

وكانت ساعات الصباح الطويلة مملة متعبة، لان افكاري كانت فيما وراء نهر سيحور ، في الهيكل الاكبر للمعبود آمون حيث تقطن الفتاة التي احدقت النظر أمس الى عينيها . وقد رأيت بعد طول التفكير، ان لا سبيل الا الى شيءواحد وهو ان اطلع ميناس على امري واجعله موضع سري . وفعلا نفذت فكرتي هذه وارسلته الى الهيكل لكي يقف على عوائد وواجبات فرقة الموسيقيين في الهيكل لانني شعرت بشوق قتال الى رؤية تلك الفتاة ثانية، فقضيت ساعات الصباح على أحر من الجمر، منتظراً عودته لاقف منه على نتيجة مهمته .

تناولت طعام الغداء ،وذهبت الى غرفتي وقد انهكني التعب من مناضلتي المستمرة، لجعل ابي شديد العزم لانه عاد على ما يظهر الى خوفه من حرحور. وبينما كنت جالساً على هذه الحال ، اذ جاء ميريس واخبرني ان ساست يريد المثول بين يدي فاذنت له بالدخول فدخل ثم سجد امامي وسألني بعبارات ملؤها الخضوع ان اصفح عنه لما اظهره من الغضب في الليلة الماضية ثم استطرد في حديثه قائلا :

– ولكن هناك وأيم الحق، بعض الاسباب لانني قمت بتحريات فوجدت ان الامر كما وصفه شقيقي امينمحمت وقد كان جلياً ظاهراً ليلة امس . فان تنزو تهواك وتحبك حباً صادقا ولم يكن في اقتراحها شيء من الغش والخداع لان الحب جنون يذري بالرجال والنساء ولكنه يذري بالمرأة اكثر من الرجل . اصغ الي الآن . هل لك ان تنعم النظر في الامر مرة اخرى لان الفرصة لم تفلت بعد، فقد قابلت السيدة تنزو ليلة امس بعد مغادرتي اياك ، وقبل خروجها من القصر ، وأخبرتها بلسانك انك فهت بما فهت به خوفاً من الجواسيس وان في قلبك شيئاً آخر وعلى ذلك تمكنت بعد اخذ ورد طويلين من ان أعيد الامل الى قلبها، وقد خففت ثائرة غضبها وأصبحت تظن انك ستجيب طلبها. لا ريب ايها الامير رعمسيس في انك ترى ان هذا خير وسيلة لتنفيذ الخطة التي جئنا الى هنا لاجلها وانك بموافقتك اياها تقسم حزب الاعداء الى شطرين تضم احدهما الى

لوائك .

فعارضته قائلا :

– ولكن هذا عمل غير شريف . وقد وثقت بي .

فقال ساست بلهفة :

– لا شيء غير شريف فيه تحقيق ما يطلبه بتاح الاكبر . لقـد استعبدت بمكانتك العالية ورقـة عواطفـك النبيلة، قلوب كثير من عبيـد الامير سيتو وحرسه الخاص ، لان الانباء تجري كالبرق في قصر لجدرانه آذان، ولان الامير سيتو شديد القسوة على من دونه . ومع ان هذا امر بسيط، فان الغبار القليل يدل على اتجاه الريح، واقول لك الآن انك تضم الى جانبك جميع انصار سيتو والذين لا يتبعون باخلاص رجلا لا يدافع عن حقوقه .

ومع ذلك، هناك حرحور وحزبه، وهؤلاء لاتستطيع ان تستميل اليك منهم احداً اللهم الا بالوسيلة التي بين يديك فهي وحدها التي يمكن بها بث بذور الشقاق بينهم وفوق ذلك ليست المهمة سيئة لان تنزو فتاة جميلة تحبك حباً جما . وعنـدي لا يحجم كثيرون عن الموت في سبيل هواها .

واذ ذاك لاحظ غضبي فقال مسرعاً :

– او اذا كنت تريد تلك الفتاة التي رأيتها بضـع دقائق امس في الهيكل فماذا يمنعك من شرائها او اخدها عنوة بعد ان تتزرج بتنزو وتكون صاحب السلطان ؟ ولعمري في وسعك ان تقوم بهذا العمل الان اذا شئت .

فأجبته قائلا :

– كلا يا ساست . ان كل هذا لا يمكن . ان تنزو فتاة شريفـة نبيلة عاملتني بصراحة وسأعاملها بصراحة كذلك . انني لا اهواها، ولهذا السبب لا اعدها بما

تطلب لان الذي تريده – كما قلت – ليس العرش فقط .

– فكر . فكر ايها الامير . اليست الفتاة الاخرى هي التي تهواها ؟ في وسعك ان تحظى بها في اي وقت بعد ان تتكبد مشقة قليلة ، اما تنزو فأنها هدية مرسلة من ازيس نفسها .

فقلت بعناد :

– كلا .

من الغريب اني اخذت افكر بعد هذا بالاقتراح الخاص بأخذ الكاهنة الصغيرة اكثر من تفكيري بالمساعدة التي اجدها على يد ابنة حرحور الحسناء .

اخذ ساست يتوسل الي بتألم قائلا :

– ليس عليك ان تقابلها حتى يتم كل شيء ففي وسعك ان ترسل اليها مراسلات على ورق من الرق احيانا تبث فيها غرامك كما يفعل العاشقون او ترسل اليها تذكاراً او تذكارين لان المرأة العاشقة تقنع بالقليل . وقد فكرت في ذلك فأخبرتها ايضاً انك ابعدتها عنك حرصاً عليها وحدها وانك لا تريد مقابلتها كثيراً الى ان ينتهي الامر ، ولكن لك ان ترسل اليها رسلا اذا شئت . ثم اخبرتها ايضاً انك انما فعلت ذلك لانك تحبها حباً صادقاً . ولما كانت الفتاة مدنفة بك فقد صدقت قولي .

« والان انظر ايها الامير تجد انني جمعت اجزاء الكأس وجبرتها بعد مشقة كبيرة وعناء فلا تحطمها ثانية . أليس كذلك ؟ .

ولما لم أبد اشارة استطرد ساست في حديثه قائلا :

– وفوق ذلك ماذا تستطيع الفتاة ان تفعل اذا كانت لك الغلبة على حرحور وقبضت على زمام السلطة ؟ أليس في وسعك ان تفسخ الاتفاق . هل تستطيع تنزو ...

فقاطعته بغضب قائلا :

– لقد انستك غيرتك أيهـا الصديق اشيـاء كثيرة : الشرف والاستقامـة والشهامة وغير ذلك .يخطر ببالي احيانا أي ساست ان فضائلك تتحول احيانا الى رذائل . اقوله لك الان لاخر مرة انني سأعاملها بكل صراحة واتمسك بمـا قلته . لا اوافق على اقتراحها وفوق ذلك لن اقابلها ثانيـة ولا ارسل اليها رسلا وآمرك ان تخبرها بالحقيقة بدلا من كل هذه الاكاذيب التي كبدت نفسك مشقـة أخبارها بها .

فصاح ساست قائلا :

– ان مصر وحق بتاح تطلب موافقتك ورضاك ايها الامير .

شعرت اذ ذاك بتأثير عينيه فقلت بشيء من المشقة .

– اقسم بحق منتو يا ساست ان ارسلك حتى في هذه الاونة الى احضان اوزريس – على رغم انك صديق ارجو ان تبقى صداقته – اذاانت حاولت مرة اخرى التأثير علي بسحرك .

ثم وضعت يدي على مقبض خنجري تلميحاً لما أقول، فأرخى رئيس السحرة عندها عينيه وحنى رئسه ثم غـادر الغرفة ، وتركني على شيء من الارتبـاك والحيرة .

دخل ميناس بعد قليل، فنسيت في الحال كل ما جرى وسألتـه بلهفـة عن نتيجة بحثه وتحرياته قائلا :

– توجد عند مؤخر هيكل آمون حديقة جميلة،تعودت كاهنات آمون السير فيها بعد غروب الشمس وهذه الحديقة تجاوز ذاك القصر الفخم القائم في طرف الهيكل وهو داخل الاسوار التي شيدها توثميس الثالث ملك مصر لحماية الكهنة

والكاهنات،على ان الحديقة لسوء الحظ محاطة بالسور المرتفع نفسه، وليس هناك مدخل الا بطريق الهيكل والقصر، وفوق ذلك يعد المكان مقدساً، بحيث يقضى بالموت على كل من يجرأ على تدنيسه . ومع ذلك فان الحديقة هي المكان الوحيد الذي تستطيع فيه ان تتحدث معه سراً لانه يستحيل مقابلتها في الهيكل نفسه حيث لا يراها احد الا مع الكاهنات الاخريات وقت الحفلات التي لا يسمح لك برؤيتها، لان جميع الكاهنات مرتبطات مع آمون أب الجميع بالعهود والمواثيق ولا يجوز لهن مغادرة الهيكل .

فسألته بغضب قائلا :

– ولكن اذا كانت الحديقة منيعة لا يمكن الوصول اليها فما العمل ؟ .

– لقد قمت ايها الامير بتحريات سرية بين عبيدك وحراسك فيما يتعلق بهذا الامر، فوجدت هنا رجلا كان منذ ايام قليلة كاهنا لامون ويعرف اسرارهم. على انه عرض نفسه لعقوبة الاعدام لجريمة ارتكبها، ففر الى القصر وصار جنديا مع انه يعلم ان حياته في خطر من هؤلاء الكهنة الذين لا تخفاهم خافية . فمن المحتمل ان يعرف هذا الحارس طريقاً سريا الى الحديقة ولا مندوحة من وجود طريق كهذا لان هذه عاداتهم التي عرفت عنهم .

ومن الغريب انه تبين صدق هذا القول فقد ابلغني جندي اسمه آما – وهو رجل تلوح على وجهه علامات الشر – ان هناك مدخلا سريا بسرداب تحت الارض رضي أن يريه اياي بعد مكافأته، ولو انه احجم في البداية خوفاً من الكهنة .

استقر رأيي على ان اذهب مع ميناس وحرس صغير بارشاد الجندي الى هناك عند غروب الشمس، لان شوقي الى رؤية فتاة الهيكل، ذات القوام البديع كان قد تملكني واستحوذ على جميع مشاعري .

وعلى ذلك تنكرت انا وميناس بحرص وحذر وخرجنا من القصر مع

مرشدنا آما وثلاثة من الحراس الشداد الغلاظ، فعبرنا النهر ووصلنا الى مكان صغير مكشوف في جوار «البحيرة المقدسة» وعلى مسافة مئة خطوة من السور المرتفع المبنى خارج قصر توتميس في الهيكل الذي يشمل الحديقة . في حين كان وراء هذا الى اليسار مسكن آمون العظيم، كما كانت منازل« أواس وهيا كلها وراء ذلك على الضفة الغربية للنهر .

وكان في المكان الفسيح الصغير مجموعة صغيرة من الاشجار، فقادنا مرشدنا الى هناك حيث عثرنا على حجر أخفي بمهارة مدهشة بين الاعشاب، فضغط الرجل على هذا الحجر بطريقة معينة، فدار وكشف عن مدخل لنفق مظلم .

دخلنا هذا المدخل، وكان ارتفاعه يبلغ نحو قامة، ثم أضأنا مصباحاً صغيراً جئنا به معنا . ولما أرانا آما المرشد كيف نفتح الباب الحجري ونقفله بواسطة لسان بارز من الداخل – سرنا في طريقنا داخل النفق . ومع ان الهواء كان يزداد حرارة كل ما تقدمنا في طريقنا فقد كان مع ذلك متجدداً فدل ذلك على وجود تيار بطيء من الهواء .

وكانت جدران النفق الى تلك اللحظة مغشاة بألواح من الخشب فتحولت فجأة الى حجر واذ ذاك أخبرني آما اننا وصلنا الى أساس السور العظيم الذي يحيط بالحديقة والقصر وأبنية الهيكل ثم قال :

– يجري من هذه النقطة دهليز سري صغير الى اليسار يؤدي الى الجزء العتيق من الهيكل الذي بناه أوسرياسن فرعون مصر ، وكان الجزء كما علمنا مملوءاً بالممرات السرية والمخازن وقاعات سرية لعقد الاجتماعات والغرف والمعابد وغير ذلك، عدا ممرات سرية اخرى تؤدي الى خارج الهيكل .

لم تمض بضع دقائق حتى صعدنا بعض درجات، ثم سرنا الى ان وصلنا مرة اخرى الى مكان مضيء وراء شجرة ذات رائحة زكية عند قاعة السور الاكبر . ويكاد هذا المنفذ لا يكون مخفياً مطلقاً، لان جميع الذين في الهيكل يعرفونه

بالطبع ،وفوق ذلك كانت الكاهنات مرتبطات بعهودهن ان لا يغادرن الحديقة. واذا فرض وكانت لديهن هذه الرغبة، فان قليلات منهن فقط يعرفن سر فتح الباب الحجري الموجود في طرف النفق .

أمرت رفيقي ان ينتظرا – اما الحراس الثلاثة فكنا تركناهم بين الاحراش – ثم اختفيت على مسافة بضع خطوات على مقربة من كوخ صغير معد للهو والتسلية من خشب الارز ، لانني كنت قد رأيت ثياب الكاهنات والفتيات وهن يرحن ويعدن بين مناظر الحديقة الجميلة .

اختفيت على هذه الحال ، واخذت اصلي الى المعبود بتاح من اعماق قلبي والتوسل اليه ان يرسل الي التي جئت للبحث عنها دون ابطاء .

١٠

أجيبت صلاتي في النهاية، وتحققت ادعيتي كما تحقق جميع ادعية المؤمنين دائماً. وقد رأيت انه كان من المحتمل ان تمضي على ايام كثيرة، قبل ان تمر الفتاة منفردة في هذا المكان المغزل في الحديقة، فلم انكر ان المعبود هو الذي ارسلها الآن الي .

ظهرت الفتاة فجأة في منحنى طريق صغير، يخرج من بين مجموعات كثيفة من الازهار والرياحين، ويمر بغدير راكد كانت ازهار اللوتس ذات الرائحة الزكية تطفو على وجهه هنا وهناك .

وقفت الفتاة مترددة لحظة عند حافة الغدير، وهي تنظر نحوي كما لو كانت روحها قد علمت انني هناك . وكانت صورة قوامها البديع مطبوعة على سطح الماء الهادىء .

لم تكن في ثيابها البيضاء كما رأيتها في الهيكل، بل كانت ترتدي ثوبا ذهبيا مرفوعا بشرائط عريضة حمراء فوق كتفيها ومربوطا من الوسط بزنار قرمزي رقيق، كانت تتدلى طياته الى ركبتيها، فتظهر ملاحتها الفتانة .

وكانت تلبس في قدميها «صندلا» احمر، وتعصب جدائل شعرها بشريط وردي وقد انعكست منها اشعة الشمس عند غروبها . وكانت تحمل على احدى

ذراعيها معطفا من الكتان ، جاءت به بلا مراء لكي تلتف به بعد ان تذهب حرارة النهار امام برودة الليل المقبل .

وقفت الفتاة على هذه الحال هنيهة ،في حين خررت على وجهي في مخبئي وعبدتها بكل قلبي، وبعدهـا واصلت الفتاة السير ميممة نحو الكوخ الصغير فقمت عندها فجأة من وراء الشجيرات .

لم تبد الفتاة حركة او تفه بكلمة بل وقفت جامدة في مكانها . اخذت تنظر الي هنيهة . اخيراً تكلمت بصوت رقيق هادىء رخيم ذكرني بسقوط براعم الازهار عند تقبيل نسيم الصيف العليل .

قالت الفتاة :

– علمت انك قادم . ثم واعجباً ! لقد قادتني روحي « كا » اليك الآن فأجبتها بصوت مبحوح قائلا .

– لقد اخترق سهم جمالك قلبي . ودعت عيناك فأطاع عبدك، فسكتت الفتاة هنيهة ثم قالت :

– ادخل هنا . لا يستطيع احد رؤيتنا ، وفي وسعنا ايضاً ان نرى من هنا كل من يقترب، وعلى ذلك تستطيع اذا تطلب الامر ان تختفى من هنا دون ان يراك احد،لان هذا الجزء من الحديقة مهجور دائماً .

دخلنا الكوخ حيث جلسنا على مقعد جنباً الى جنب ، روحان جاءتا معاً ثانية من « اللانهاية » ثم لا تلبثان بعد ان تقضيا فترتها الوجيزة ان تعودا ثانية الى « اللانهاية » روحان ارتبطتا معاً طول المدى بسلاسل الحب اللينة الثابتة .

مددت يدي وامسكت اصابعها الصغيرة ، وعلى هذه الحال جلسنا صامتين قانعين كل القنوع ، سعيدين كل السعادة، اذ وجد كل منا الآخر في النهاية . في

حين كان المعبود « نبيت » (الليـل) يرخي سدوله المعتمة ببطء عـلى ناحيـة الشرق .

لم يتولانا العجب ، ولم يسأل احدنا الآخر اين ولا كيف ولا متى التقينا من قبل ، لان مثل هذه الامور لا يسمح بها اذ هناك قناع مسدول بين ارواحنا على الارض ، قناع لا يجوز له ارساله . وفي الواقع لا يعلم احد بوجود هذا القناع اللهم الا الكهنة والراسخون في معرفة اسرار الآلهة . على انني كنت قد تعلمت من تربيتي في هيكـل بتاح شيئاً من سر الحياة والموت والولادة من جـديـد والحب — اما الآن وقد عثرت روحي في النهاية على رفيقتها الابدية ، التي كانت منذ الابد ، والتي يجب ان تبقى ابـد الدهر ، فاني لم اعد افكر بهذه الامور ، بل قدمت عبارات الشكر الى بتاح واقتنعت نفسي .

طرأت على عقلي فكرة فجأة بعد هنيهة فقلت :

— يا الهي . انني لا اعرف حتى اسمك !

فضحكنا معاً ثم قالت :

— اسمي نح — تل — كا .

— نح — تل — كا ! يا له من اسم جميل — انه اجمـل اسم سمعته . وهـل انت هنا كاهنة منذورة لآمون ؟

فقالت بشيء من الحزن .

— نعم منذ ولادتي ، اي منذ سبعة عشر ربيعاً ، ومع ذلك ارى ان روحي كانت منذورة لك قبل ان ينذر جسمي لامون — او ربما كان كل هذا حلماً . ولكن اخبرني عن نفسك ايها الامير رعمسيس ، عن نفسك . حقاً انني افكر فيك منذ رأيتك ولكن الانباء تجري هنا في هيكل آمون بين الذين لا يحبونك ويتمنون هلاكك .

وعلى ذلك اخبرتها بقصة حياتي في مدينة منف، ذات الاسوار البيضاء، وعن قسمي وعهدي وما جئت لاجله، والامور العديدة التي حدثت عدا حادثة تنزو فقد كتمتها عنها مخافة اقلاق افكارها ، وكانت تصغي باهتمام شديد الى كل ما ذكرته وبعناية كبيرة، ثم سألتني اسئلة كثيرة واخبرتني عن حياتها التي كانت على كل حال هادئة جداً خالية من الحوادث .

وبينما كانت الدقائق الحلوة تمر كالبرق، سادبيننا سكون آخر عميق بحيث كنا نسمع في خلاله دقات قلبينا . اخيراً تحولت ونظرت الى عينيها اللتين كانتا تلمعان مثل كوكبين وسط الغسق في حين صارت يدها الصغيرة التي في يدي حارة فجأة، واخذ نبضها يضرب بشدة.

خاطبتها بصوت خافت ولكن بسرعة، لكي لا تقاطعني قائلا :

— نح — تل — كا — ، نح — تل — كا أي سويداء قلبي . انني رجل قبل كل شيء ، انني احبك فوق كل شيء كما تعلمين اذ جال بخاطري انني أخبرتك هذا من قبل، ولو انني لا ادري متى ولا اين كان ذلك، انك تحبينني كذلك، وهذه حالنا منذ البدء كما يخيل الي أيضاً انني اعلم ذلك . ولعمري ما فائدة الكلمات اذا كان بيننا ما هو أقوى من الكلام وأبقى منه . انك وايم الحق لي كما انالك ولما كنت اي حياة حياتي قد وجدتك فانني لا استطيع ان ادعك تذهبين فتعالي الان معي الى القصر . انني لا اقصد بك ضراً كما تعلمين ، تعالي معي الى القصر وهناك اقدمك الى والدي فرعون فيضعك تحت حمايته، الى ان يحين الوقت الذي أصير فيه ملكا، وعندها اتزوج بك وتجلسين الى جانبي على العرش كملكة مصر.. نعم . نعم .

وكانت تريد الكلام ، فاستطردت في حديثي بسرعة قائلا :

— انني أعرف جيداً انه يجب علي أن اتزوج باحدى الاميرات ، ولكن هل اكون ملكا ذا سلطان اذا لم يكن في استطاعتي ان ابلغ قلبي أمنيته ، واعطيه ما

يهوي اذا ما جلست يوماً ما على العرش ؟ تعالي أيتها الحبيبة . ، تعـالي معي ، لقد نظرت عيناي وجهك مدة قصيرة، ومع ذلك فانني أهواك بل واعبدك كما تعلمين ، لأن حب من هم مثلنا لا يحتاج الى اجتماعات كثيرة لكي ينمو ويزهر . انه ثمرة زاهرة لا تحتاج الا الى القطف . قولي الان ...

فقاطعتني بحالة مؤثرة قائلة :

ــ كلا . كلا . لا تغريني . اواه، ألا ترى أي رعمسيس حبيبي انني منذورة الى آمون ؟

فسألتها قائلا :

ــ ولكن ألا يدعك الكهنة تذهبين اذا طلبتك أنا الامير ؟

فهت بهذه الكلمات ، ولو انني اعلم ان هذا مستحيل ، وفي الواقع اجابتني قائلة :

ــ انهم لا يسمحون لي بالذهاب ولو كنت أنت فرعون ــ وهو ما لم تصل اليه بعد ــ ومحبوباً من كاهن آمون ــ وانت لست محبوباً منه مطلقاً .

ــ لا تهتمي بهم وتعالي معي الى الخارج . ان الهرب أمر يسير، وسأحميك بحياتي اذا ما صرت حرة طليقة .

فدقت احدى يديها بالاخرى وقالت وهي تنتحب برفق :

ــ لا أستطيع . انني اليوم سعيدة بحبي ، وقد ابتهجت اذ وجدتك في النهاية . لم أفكر في حبي بهـذا مطلقـا . لا أستطيـع ، لا أستطيـع ان أنكث بتلك الايمانات الرهيبة ــ لمجرد سعادتي . من الخطأ نقض العهود في أي وقت ، ومن الخطأ الفاضح نقضها لاسباب تنطوي على حب النفس .

اضطربت افكاري بحالة غريبة عند رؤية دموعها ، فوضعت ذراعي حول

وسطها وقلت برقة وعطف :

– لا تبكي أيتها الحبيبة الصغيرة .

لم ألبث ان شعرت بصوت نوحها وجلدها الناعم، وقد التصق بذراعي العارية وبقربها مني، وبنسيم الليل المعطر وبألف عاطفة اخرى ، وقد حملت كلها علي وداهمت عقلي فاسكرته بنار جنون مشتعلة، فخررت على الارض عند قدميها وضممت ركبتيها الرقيقتين الى صدري، ثم سكبت كل حبي وغرامي بكلمات ملؤها الوجد والهيام وأخذت أتوسل اليها ان تأتي معي وتنسى قسمها وتمسك السعادة التي وضعت في يدها .

على انها لم تبد ازاء كل هذا شيئاً ، وجلست تحدق النظر مباشرة الى الظلال التي امامها، الى ان تحولت توسلاتي الحارة الى سكوت، وأخفيت وجهي المتقدبين طيات ثوبها الرطبة .

أخيراً وضعت يدها على رأسي بدلال ثم قالت :

رعمسيس أي قلبي : رعمسيس هذا لا يمكن ان يكون ، فقد أرادت الآلهة غير ذلك . انك لا تستطيع – وأنت تعلم في قلبك جيداً – ان تجلس على عرش مصر وتأخذني عروساً لك ، انا التي لست من أسرة ملوكية ولو انني عالية الحسب والنسب . وكذا لا استطيع أن أهب نفسي اياك لأكون غير عروسك في وقت لا مندوحة فيه من ان تجلس الى جانبك فتاة اخرى تدعوك بعلها. ثم اذ فرض وكان كل هذا ميسوراً، فانني لا استطيع ان أحنث بيميني.

تولتني الدهشة لما رأيته من الشجاعة الكامنة في قلب هذه الفتاة الصغيرة ولم ألبث ان شعرت بالخجل عندما ذكرت قسمي، الذي لو بررت به وأحرصت عليه ، كما أحرصت هي على قسمها لتم عقد زواجي بتنزو .

قمت ببطء ثم وقفت امامها وقلت :

– اسألك المعذرة ايتها الحبيبة، ولاتنسي ان القلب اذا زاد طفح، مهماحاول الانسان ان يحافظ عليه . انني أسحب كلماتي والان – والان يجب ان أذهب ولكن لا تحظري علي القدوم الى هنا ثانية لرؤيتك .

فتمتمت الفتاة قائلة :

– لا استطيع ذلك حتى لو اردته ،لان قلبي لك دون سواك . انني مرتبطة بك بكل قيد يستطيع الحب ان يضعه . ولعمري اشعر بابتهاج في هذه القيود ولو انني لا أشك وا أسفاه في ان هذا خطأ . ولكن قد تدخل هاتور مع آمون لاجلنا نحن اللذين افعم قلبانا بحب طاهر نقي .

لزمت الفتاة الصمت هنيهة ،ثم استطردت في حديثها قائلة :

– كن على حذر، لانه اذا قبض عليك هنا كان الموت نصيبك –ونصيبي أيضاً

ثم صاحت قائلة :

– لانني أحبك . لانني أحبك حباً لم يشعر به قلب امرأة من نحوك ولن يشعر به أحد . أواه ليتني أفعل شيئاً ، شيئاً يبرهن لك على مبلغ حبي لك وولهي بك .

خشيت اذ ذاك ان يتغلب علي جمالها، وتؤثر في قلبي كلماتها العذبة الرقيقة فأنسى نفسي ثانية، ولذا تحولت نحو الباب وقلبي مفعم بالحزن.

بيد انني لم أكد اصل الى العتبة ،حتى سمعتها تناديني ثانية باسمي بصوت ينم على الحياء قائلة .

– رعمسيس .!

فأجبتها بحزن قائلا :

– لبيك .

— رعمسيس ! ان الظلام شديد بحيث لا تستطيع رؤية شيء ، ولكن ألا يروق لون ثوبي الليلة ؟ .

دهشت لهذه الكلمات الغريبة، التي خيل الي ان لا معنى لها، وخطر ببالي انها تريد استبقائي لحظة اخرى .

اجبتها قائلا :

— حقاً ان لونه جميل ، ولكن ما لونه كما قلت ؟ لانني بدأت الآن وأيم الحق أفكر في الامر فلم اذكر قولك .

فأجابتني بضحكة وصلت مسامعي وسط الظلام وقالت :

— يا لك من رجل طيب القلب ! أليس لك عينان تنظران ؟ ان لونه كاللهيب وهو لون جميل — أليس كذلك .

استولت علي الحيرة التامة وقلت :

— حقاً انه لون جميل، ولكن ماالذي يحملك يا سيدة الحسان على التكلم عن الثياب والالوان ! ان الوقت قد ضاع . ومع انني شديد الشغف بك، الا انه لا مندوحة لي من الذهاب .

— انتظر قليلا . هل تدري مايدل عليه اللون الاحمر ؟ .

— كلا وأيم الحق .

— انه يدل على الحب الشديد ... والقبلات .

ولما لم اتحرك من مكاني صاحت قائلة :

— ايها المعبود ازيس ! أهل في الرجال بسطاء الى هذا الحد ! رعمسيس حبيبي ، هل لا بد لي ان اتودد اليك دائماً بهذه الحال ؟ هل لك — هل لك ان

تقبلني قبلة الوداع ؟ ... قبلة واحدة فقط والا غضب آمون علينا .

خطوت خطوة سريعة فكنت الى جانبها . وبينا كانت شفتاها المفتوحتان شوقا وشغفاً تلتقيان بشفتي، دار رأسي وترنحت حواسي من تأثير تلك الملاحة الفتانة، وحملت روحي لتلتقي بروحها خلال تلك القبلة الحارة الاولى .

ارخت الفتاة بعد ذلك ذراعيها الناعمتين من حول عنقي، فانسللت من الكوخ وصرت بين الشجيرات، الى ان وصلت الى مدخل النفق، وغادرتها وهي تبكي سراً في الكوخ الصغير .

التقيت عند النفق بميناس، فقال انه أرسل آما الى طرف النفق من الناحية الاخرى، مخافة ان يكتشف امرهم احد اذا بقوا كلهم في الحديقة. أظهر ميناس بعد ذلك شيئاً من التردد، على انه لم يلبث ان استطرد في حديثه قائلا :

– لقد احسنت صنعا ايها الامير، لانه لم تمض بضع دقائق على دخولهم النفق حتى مرت بي فتاة فلما وقعت عيناها علي ارادت ان تصيح، ولكنها لما رأت انني وحيد تغلبت دهشتها على مخاوفها . ولا ريب ايضاً في انها كغيرها من الفتيات كانت تريد محادثة رجل من الخارج – لانني كدت انسى وأيم الحق انني كاهن بعد مغادرتي مدينة منف، وخلع ثياب الكهنوت . ولما سألتني عن امري قلت لها – لكي احميك – انني خاطرت بكل شيء لكي آتي الى هنا لرؤيتها، وتوددت اليها كثيراً، واعربت لها عن حبي، كي لا تستطيع ان تفشي سرنا . على انني وقعت كذلك في قيود هاتور مثلك، لان الذي شرعت فيه قصداً قد نما من تلقاء نفسه وذاب قلبي في داخلي تحت تأثير حرارة قبلاتها . والآن اتوسل اليك ايها الامير رعمسيس بحق التي غادرتها الآن فقط، ان ترافقني دائماً في كل مرة نأتي فيها الى هنا ثانية .

فضحكت ووعدته خيراً، وبعد ذلك اخترقنا النفق، فوجدنا آما والحراس الزنوج الثلاثة، فسرنا جميعاً تحت جنح الظلام الى القصر .

١١

ذهبت في اليوم التالي مع ابي فرعون في موكب فاخر واجتزنا الجزء المعروف باواس والجزء الغربي من مدينة نيامون، لكي يرى السكان بأعينهم ابن فرعون الذي رد الى ابيه . وكان في هذا الجزء من المدينة، هياكل مشهورة كثيرة وآثار بناها الفراعنة القدماء ،ثم بعض ابنية جميلة وتماثيل ضخمة شيدها جدي رعمسيس الثالث وجده رعمسيس، الذي تعرف مصر كلها مجده العظيم .

وكانت مقابر الملوك او منازل الابدية،على مقربة نحو طرف الصحراء، وهي قائمة في مكان منعزل رهيب بين التلال العظيمة،حيث رقد اجدادي واعمامي من اسرة رعمسيس ، الذين حكموا مصر قبل ابي رعمسيس الثاني عشر . وكانت قبورهم جميلة منقوشة نقشاً بديعاً، ولكن واأسفاه علمت ان اللصوص انتهكوا حرمتها وسرقوا بعض المومياء بحيث تاقت نفسي الى اليوم الذي اجلس فيه على عرش مصر، لكي اعيد مصر الابدية الى مجدها القديم.

وكانت جماهير السكان تتبعنا في كل مكان في هذا الجزء وفي المدينة،نفسها وهم مبتهجون ،فرحون يحملون الازهار ويرفعون الاعلام،لان فرعون امر بجعل هذا اليوم عيداً عاماً لجميع سكان الاراضي العليا .

عـدت في المساء تعباً من شدة الحر ، ولكن شوقي كان عظيما للذهاب مرة

اخرى الى تلك الحديقة الغناء، وهناك اضم حبيبتي الى صدري ثانية : على انه لم يكد يستقر رأيي على ذلك، حتى دخل علي ساست ومعه شقيقه امينمحعت الذي عينته قائداً في حرسي .

اخذ ساست ثانية يتوسل الي وهو يكاد يبكي، ان انعم النظر مرة اخرى فيما عرضته علي تنزو، معترفا بانه لم يستطع الى الآن ان يخبرها بالاكاذيب التي ذكرها وقائلا ان قلبها لا يزال مفتوحا يصبو الي بفضل المجهودات التي بذلها في اليوم السابق . على انه انذرني من شرها مرة اخرى اذا آلمت عواطفها .

وقد عزز امينمحعت توسلات اخيه فقال :

– اصغ الي ايها الامير . لا نريد ان نضايقك دائماً بهذه الحال، ولكننا كما تعلم اكبر منك سناً، وقد عهد الينا الى درجة ما الاهتمام بك الى ان تسوى مسألة عرش مصر لقد تكلمت انا وساست كثيراً في هذا الموضوع ، فاتفق رأينا على امر واحد ،وهو ان تنزو حليفة طيبة ،ولكنها عدو لدود، وان في يدك القوة التي تجعلها احد الامرين .

«نسألك المعذرة ايها الامير رعمسيس، لمخالفتنا اوامرك وعودتنا الى سؤالك . ولكن فكر جيداً بقسمك قبل ان تبت في الامر . اما فيما يتعلق بالفتاة الاخرى التي نعلم حق العلم انها اسرت فؤادك – كلا . لا تهز رأسك ايها الامير ولا تنكر، والا لماذا انت الشاب . قد نبذت جميع النساء الاخريات والعبيد والجميع من غرفك ؟ حسن . اقول انا وساست هذا :

« خذها . اذهب ليلا وخذها اذا استطعت ان تفعل ذلك دون ان يعرفك احد ، واجعلها ملكا لك في الجناح الخاص بك من القصر ، ونحن لا نلومك على شيء، بل ندافع عنك ضد الجميع، ولكن يجب علينا ان نكون على صلة حسنة مع تنزو بعد الذي حدث سواءأ كان عدلا او غير عدل .

لم اغضب لهذه الكلمات، لانني اعلم ان كليهما صديق مخلص . وفوق ذلك لما

كنت سأغادر القصر عما قريب للقاء حبيبتي نح – تل – كا فقد شعرت بابتهاج وسعادة وميل حسن نحو الجميع . ومع ذلك اجبته بصوت ينطوي على الحزم قائلا :

– لعمري من الحيف ان اذعن لارادتها، وهي تهواني كا تعلمان ولا اهواها ؟ كلا يا صديقي ، لا استطيع ان افعل ذلك . لقد استقر رأيي كا تعلمان ، ولكن سنجني ذلك بحرب مباشرة لا من طرق متعرجة .

فاعترضني ساست قائلا :

– ولكن الحرب ستكون شاقة وعرة ، ان لم تكن اسوأ من ذلك . لقد قضى الامير سيتو يومه محبوساً في قصر الكاهن الاكبر حرحور ، ومعها اوسر رئيس السحرة، ويسار حاكم المدينة وكثيرون غيرهم . وعندي اراهم يدبرون ضربة تنطوي على الاقدام للقضاء على حياتك .

– اما فيما يتعلق بذلك، فانني استطيع جيداً ان اهتم بأمرنفسي، ولدي ايضا رفاق يوثق بهم لحمايتي والسهر علي . وفوق ذلك لا اخشى سيتو ، فقد جاءني ميريس اليوم واخبرني ان هناك روح امتعاض شديد بين اتباعه ضده وضد قسوته، وقد وضع كثيرون الخطة للتخلي عنه والانضمام الي .

فأبرقت عينا ساست وقال :

– هذا نبأ سار . لقد سمعت انا ايضاً شيئاً من هذا الحديث اليوم لانك اجتذبت اليك كثيرين من انصاره بحيث صار يخشى على حياته . وعندي اذا مات الآن فجأة فان اتباعه ...

فقاطعته قائلا :

– انني افضل ان القى سيتو في ساحة الوغى ، وأقاتله بصولجتي وجهاًلوجه

ثم وضعت يدي على صولجتي التي لاتغادرني مع خنجري دائماً .

فصاح امينمحعت قائلا :

– احسنت قولا ايها الامير .

اما ساست فقد تبين لي انه يدبر في رأسه وسيلة لقتل سيتو غدراً وخيانة . اخيراً تحول الى غرضه، وأخذ يتوسل الي قائلا :

الا تريد اذن مخاطبة تنزو او على الاقل الا تريد مراسلتها ؟

فأجبته بجدة قائلا :

– اقول لك وحق اوزوريس كلا . لا تدعني اسمع كلمة في هذا الامر مرة اخرى . وفوق ذلك امرتك امس ان تعلن الحقيقة للسيدة تنزو، واليوم آمرك بذلك للمرة الثانية ،فلا تقدم على عصيان امري مرة اخرى .

نظر الي ساست نظرة غريبة وقال :

سيتم اليوم ما امرتني به ايها الامير . ومع ذلك ربما دبرت شيئاً ما، والا صارت تنزو عدواً لدوداً، مع انه يجب ان تكون اعظم ناصر لنا ومعين .

وقبـل ان اسأله عن معنى قوله، غير لهجته بسرعة ، واخذ يتوسل الي ان اعطيه الخاتم الذي البسه في اصبعي ، وهو الخاتم الذي وضع به حجر الياقوت الذي سقط من صولجان ابي يوم لقائنا اول مرة ونقش عليه اسمي والدي اعطاني اياه ابي في اليوم التالي .

سألته قائلا :

– لماذا تريد خاتمي ؟

فاجابني وهو مطرق الى الارض :

– لكي تكون لي السلطة للقيام بشؤونك .

ولما رأيت انه يشير الى مسألة ما تتعلق بتدبير دسيسة ضد الامير وتمرد انصاره ، اعطيته اياه ثم غادر الشقيقان عندها الغرفة وتركاني وحيداً .

ارتديت عباءتي وتنكرت،ثم سرت في طريقي مع ميناس وقليل من الجنود نحو المدخل السري لحدائق الهيكل . وكانت افكاري اثناء سيري كلها متجهة نحو ما قاله امينمحعت عن اختطاف نح – تل – كا وحملها عنوة . وكنت كلما ازددت تفكيراً خيل الي انها متى حملت بعيداً عن الهيكل فانها تقبل ما لا بد منه، وتقفل يدها في النهاية على السعادة التي وضعت بهذه الحال عنوة في يدها .

كم من دقائق لذيذة قضيتها جالساً بجانب التي احببتها داخل الكوخ،في حين كان جنودي يراقبون النفق، وفي حين كان ميناس يقضي وقته مثلي مع الفتاة الحسناءالتي التقت به، والتي اراد ان يلقاها ثانية.ولعمري ابتهجت نفسي بتحول الامور في هذا المجرى فيما يتعلق بميناس، لانها زادت في ارتباطه بي وبزياراتي الدائمة، وفي الوقت نفسه، كان يقضي كل وقته مع حبيبته بحيث استطعت -دون ان اخشى انزعاجاً او خطراً او تجسساً :

– ان اتفرغ لحبيبتي، واتمتع بالدقائق القليلة التي كنت اعيش يومي لاجلها .

عـدت الى القصر تحـت جنـح الظلام كالمرة السابقة، فوجدت ساست في انتظاري مـــع قليـل من العبيد، فأخبرني عندها ان بسار حاكم نيامون حضر لزيارتي رسمياً، وانه انتظر في احدى غرف الاستقبال الى ان اعود ثم قال :

– ولا ادري ايهاالامير، لماذا قام بهذه الزيارة بمثل هذه الابهة،ومع عدد كبير من العبيد . وقد ابلغته انني وزيرك الامين، فلم يخبرني شيئاً عن مهمته، وجلس مدة طويلة صامتاً . ولعمري ارتاحت نفسي عند انصرافه لان عبيده وحملة المراوح وغيرهم كانوا كثيرين، وانتشروا في الغرف التي يقطن فيها عبيدك، ومع

انهم كانوا يظهرون المجاملة والسلام، فقد تحمل رجال حرسك ، مشقة كبيرة في جمعهم وابقائهم معاً، ولعمري خطر ببالي الآن فقط انه لايستطيع ان يجرأ على القيام بمثل هذا العمل، وهو يعلم انك هنا او انك ستعود الى القصر قريباً .

فقلت بفتور :

– لا ريب في ان زيارة بسار هذه، بداية الدسيسة التي كان يدبرها مع سيتو وغيره في قصر حرحور .

ثم صفقت لكي يأتي العبيد بالطعام والشراب .

– فقاطعني ساست فجأة قائلا :

– اسألك المعذرة ايها الامير رعمسيس . ان مسألة بسار هذه قد اقلقت فكري، بحيث كدت انسى ان اخبرك ان فرعون الجليل ارسل اليك رسولا يطلب حضورك على اثر عودتك لكي يخاطبك في امور تتعلق بشؤون البلاد .

تأهبت للذهاب في الحال، على رغم ما كنت اشعر به من التعب، لان فرعون لايعصى ، ومع ذلك امرت باعادة الطعام حتى اعود .

وجدت والدي في احدى غرفه الخاصة ، تبدو عليه سيماء التعب الشديد لان شيخوخته ومتاعب الملك مع ما كان يظهره حرحور من القحة الظاهرة نحوه، وما وراء هذه القحة من القوة والسلطان، ثم مناضلاتي ونزاعي ضد الكاهن الاكبر – كل هذه اجتمعت واثقلت كاهله .

قدمت فروض الطاعة الى ابي وقلت :

– تحية وسلاماً فرعون أبي الذي لا تنتهي له حياة .

فرد تحيتي، وقد تنفس الصعداء قائلا :

– تحية وسلاماً أيها الامير رعمسيس ولدي ! .

ثم مد صولجانه فقبلته وجلست عن يمينه، واذ ذاك عاد المجلس الى منـاقشة حادة طويلة تتعلق بامور عديـدة ذات أهمية اراد أبي ان يـأخذ رأيي بشأنهـا خصوصاً فيما يتعلط بانباء حملها في ذاك اليوم رسول خاص من بلاد الحبشة فحواها ان السكان هناك أخذوا يتذمرون ضـد والي البـلاد وكان اسمه بانشي ويدعوه كثيرون « بالزنجي » وانه وقعت بعض مشاغبات قليلة .

أخذ كثيرون من اعضاء المجلس يحبذون فكرة ارسال جيش، وكان بعضهم يقول شيئاً وبعضهم يقول شيئاً آخر. على انفرعون اتبع في النهاية نصيحتي التي ايدها كثيرون واستقر الرأي على ارسال ستة الوية بقيـادة رافحو وهو قائـد متقدمفيالسن خدم البيت الملكي سنوات عديدة وقد حملت أبي بمهارة على ان يختار ألوية معينة كانت معروفة بميلها الى حرحور وان يرسل معهـا بيانخ اكبر انجال حرحور وكان يتولى رئاسة حملة النبال في الجيش .

وقد قمت بهذا العمل لكي ابقي الموالين لفرعون في نيامون ليكون على استعداد في كل طارىء ولكي في الوقت نفسه اضعف حزب حرحور بقدر الامكان باعطاء انصاره مهمة خارج المدينة يقومون بها باخلاص لاجل سلامة مصر .

انتهى المجلس من درس المسائل الاخرى فقـام فرعون في النهاية تعباً وأمر الجميع بالانصراف فصاحوا قائلين :

– فرعون منبع حياتنا ! .

سار فرعون ببطء وهو يتكيء على ذراع الوزير نيفر وعلى اثر ذلك عدت الى الجناح الخاص بي في القصر .

ذهبت الى الغرفة التي امرت باعـداد الطعام فيها فالقيتهـا مظلمـة على غير العادة، ولماجد العبيدالذين يتولون عادة خدمتي اثناء الطعام، فسرت اذ ذاك الى غرفة صغيرة مجاورة وهناك وجدت ميريس رئيس التشريفـات فسألته بغضب

عن معنى ذلك .

قام ميريس بتحقيق دقيق بين العبيد الذين وجدهم في المكان المعد للخدم ثم عاد الي وقال انه لا يفهم معنى ذلك،لان الرجل شوهد وهو ينتظر بالغرفةومعه مصباح منير وأمامه الطعام منذ مدة قصيرة فقط ولكنــه لم يجد هذا الخادم في أى مكان ولا بين الخدم .

أمرت اذ ذاك بمعاقبة الخادم عقاباً صارمـاً متى وجد ودعوت خادماً آخر ومصباحاً وذهبت الى غرفة الطعام وهناك وقعت عينـاي على مشهد مروع . فقد رأينا جثة الخادم الذي كنا نبحث عنه فوق المنضدة وقد فارق الحياة .

تولتنا الحيرة لموت هذا الرجل لانه لم يدخل الغرفه احـد من الخارج منـذ مغادرتي القصر مع ساست . هذا ماذكره رئيس الحراس وفوق ذلك لا أعرف أحداً بين عبيدي وخدمي يكن لي العداء وعدم الاخلاص .

لم نجد في جثة الرجل اثراً لجرح ومع ذلك لم يكن ثمة ريب في انه مات فجأة لانه سقط في الحال فوق المصباح الفضي الموضوع فوق المنضدة فأطفأه وهذا هو السبب في ظلام الغرفة . وكنا كلما زدنا في فحص الجثة اقتنعنا بأن الرجل مات بتأثير سم قتال ولو انه لم يعلم احد منا على يد من مات .

أخيراً صاح رئيس الحراس ثم فرد قبضة العبد واخرج من اصابعه تمراً كان يأكله على ما يظهر . واذ ذاك تبين لنا ان الجوع حمل الرجـل على اخذ تلـك التمرات من سلة فضية للفاكهة أعدت لعشائي .

بهت الجميع لهذا الامر لان كل شيء في الواقـع كان يشير الى امر ثابت جلي وهو ان جشع هذا العبد المسكين أحبط دسيسة خطيرة دبرت لاغتيال حياتي . على انه لما كان الوقت متأخراً امرت بنقل الجثة والفاكهة والطعام من الغرفـة والمحافظة عليها كلها الى الصباح لاجراء تحقيق دقيق لمعرفة هذا السر . وقـد

اقسم ميريس ان جميع خدمي وعبيدي مخلصون لي ، ومع ذلك امرت ان لا يغادر احد منهم القصر الى اليوم التالي .

قدم الي بعد ذلك طعام جديد ذاقه عبدان قبلي ثم وضع جندي امين خارج غرفة نومي لكي يحول دون اي اعتداء آخر على حياتي اذا اتفق وكان بين رجال قصري خونة آخرون . ومع ان الامر حير فكري واربك عقلي الى درجة عظيمة فقد كنت تعباً بحيث لم استطع القيام بشيء آخر تلك الليلة على انني وطدت العزم على اجراء تحقيق دقيق في الغد بحضور بعض الاطباء وسؤال جميع الخدم والعبيد .

١٢

صحوت في اليوم التالي مبكراً فأرسلت الى ساست وامينمحعت وفتياس وقائد حرسي والى طبيبين من اطباء القصر مـاهرين في السحر ومعرفة أنواع السموم وغيرها .

أمرت باعداد الطعام الذي ذاقه العبيد من قبل ،ولم اكد افرغ من طعامي حتى جاء الذين أرسلت في طلبهم وجلسوا في الغرفةالاخرى ينتظرون قدومي.

دخلت عليهم . وبسطت لهم الامر بايجاز فقام الطبيبان وفحصا جثة العبد واخيراً قال احدهما – وكان شيخاً طاعناً في السن بلحية بيضاء – انه لم يجـد جرحاً بالجسم وعلى ذلك لا ريب في ان المعبود الاعظم آمون ضرب العبدبالموت لتجرئه على مس الطعام الذي أعد لسيده .

ثار غضبي لهذا القول فأمرت بطرده من الغرفة لأنني مع اعتقادي بأن الآلهة تستطيـع القيام بمعجزات كثيرة الا انها كانت تعمل على يد الانسان .

اما الطبيب الثاني فـكان اصغر سنـاً من الاول وفوق ذلك كان يعـلم شيئاً كثيراً عن الدسائس التي تدبر في البـلاط . ولم تكن هـذه بلا مراء اول مرة اختبر فيها مثل هذه الامور فتقدم وبعد ان فحص الجثة قال :

– أيها الامير رعمسيس ، وارث الاراضي العليا والسفلى . لقد مات هـذا الرجل بسم قتال قلما يستخدم لانني لم اره الا مرة واحدة . انظر ! هـذا هو السم الذي قتل به الرجل .

ثم ناولني التمر الذي كان في يد الرجل .

أمعنت النظر جيداً فرأيت مسحوقاً رمـادياً خفيفاً التصقت ذراته بمـادة التمر اللزجة وقـد رأينا ان هذا المسحوق عينـه على جميع الفواكه المختلفـة الاخرى التي كانت في السلة ولكنه لم يكن على طعام آخر .

قلت – هل هذا هو السم ؟

فاجابني الطبيب قائلاً :

– نعم .

ومع ذلك أردت الحصول على برهان محقق، فأمرت باحضار كلب من الخارج ثم وضعت قليلا من المسحوق في قليل من اللبن واعطيناه للـكلب فلم يكد يلعق نصف اللبن حتى عوى بصوت مؤلم وسقط جثة هامدة . وهكذا ثبت بصورة جلية ان المسحوق سم زعاف وانه استخدم بلا مراء لقتلي .

أمرت الطبيب اذ ذاك بالانصراف بعـد ان أعطيته ذهباً مقابل خـدماته وتكتمه كما أمرت بنقل الجثة . وقد استبقيت اصدقائي وسيريس وقائد الحرس معي لكي نقف على معرفة الشخص الذي قام بهذا العمل .

وفي الواقع سألت العبيد فعلمت ان السلة أعدت بعد ذهابي الى الهيكل عند غروب الشمس . ولما كان قد تبين ان المسحوق وضع على الطبقة العليا فقط فقد علمت ان الفـاكهة عبث بهـا بعد تلك الساعة . على ان الجميـع أقسموا انهم مخلصون لي وانهم لا يرتكبون مثل هذا العمل أو يسمحون لاحد بارتـكابه .

تحولت عندها نحو ساست وقلت :

ـ أن هذا أمر غريب . لا أستطيع أن ...

فقاطعني فجأة قائلا :

– انتظر ! لقد خطرت ببالي فكرة . كان بسار حاكم المدينة هنا أمس . اليس كذلك ؟

فأجابه ميريس وبعض العبيد قائلين :

– نعم أيها السيد .

فعارضته قائلا :

– ولكنك كنت معه فلا يستطيع ارتكاب هذا العمل .

فاستطرد ساست في حديثه بسرعة قائلا :

– ولكن جميع عبيده كانوا منتشرين في جميع انحاء الغرف كما يعلم الحراس الذين حاولوا ضمهم الى بعضهم بعضاً . فهل يبعد ان يكون احدهم قام بهذا العمل بامر بسار أثناء مخاطبة أحد عبيدك في تلك الغرفة التي كانت بها سلة الفاكهة ؟ وعندي لم تكن هذه الزيارة الا ستاراً لارتكاب عمل فظيع وها هو قد وقع . انه أمر سهل وبسار يبغضك .

حدثت اذ ذاك ضجة عظيمة فأخذ بعضهم يضربون رؤوسهم على الارض امامي ويقولون انهم يستحقون الموت لاهمالهم هذا في حين كان يصيح بعضهم قائلين لو كانوا يعلمون ان عبيد بسار لهم يد في هذه الدسيسة لما غادروا احداً منهم على قيد الحياة .

على انني أشرت الى ميريس فامرهم بالانصراف من الغرفة اذ تبين لي بصفة جلية ان زيارة بسار لم تكن الا خدعة تنطوي على الدهاء والمكر وانه لولا جشع العبيد لكنت الان في أيدي المحنطين .

خاطبت ساست قائلاً :

ـ انه خطر عظيم ولكن لا فائدة من اعلان دسيستهم هذه لاننا لا نستطيع أن نثبت شيئاً معيناً ضد بسار نفسه .

فقال ساست بغيظ :

ـ ربما حصلت على شيء من الانباء قبل عودتك من الهيكل .

فضحكت لما أظهره ساست من الاهتمام لانه في الواقع اضطرب لهذا الحادث ثم امرت ميريس ان لا يبوح احد بشيء وبعدها ذهبت مع حاشيتي الى فناء القصر حيث كان هودجي بانتظاري .

ذهبت الى هيكل آمون الصغير . وبينما كان حرحور واقفاً بجانب الملك يلقي الترتيلة الطويلة لفرعون أخذت انظر فيما حولي الى نبلاء البلاط وسيداته لأن المشهد كله كان في الواقع مشهداً غريباً : فقد كان فرعون الذي لا يتمتع بسلطة حقيقية واقفاً بجميع مظاهر القوة الخارجية لملك مصر العظيم ، ثم رئيس الكهنة الذي كان الى الآن يحرك فرعون في كل شيء ويضع الخطة لاغتصاب العرش وكان واقفاً يصلي ويبتهل الى الله لاجل أبي ولاجلي أنا الذي اراد قتلي ، ثم النبلاء الذين كانوا مع عبيدهم وانصارهم يدسون الدسائس والفتن وقد امتلأت قلوبهم غلا ومع ذلك كانوا واقفين وقد تظاهروا بالاخلاص والولاء .

وبينما كنت افكر على هذه الحال اذ وقع نظري على بسار وكان واقفاً الى اليمين ولكنه تحاشى نظراتي فكان عمله هذا بمثابة دليل جديد على جريمته . على ان زوجته ــ وكانت مثله تلبس حلياً كثيرة وثياباً فاخرة ــ اخذت تحدق الي النظر بحدة غريبة .

لم ار اوسر بين اعدائي النبلاء غير مرة واحدة عندما مر وراء بعض الاعمدة في الطرف الآخر من القاعة الداخلية ومع ذلك لاحظت انه انتفض كأنما

أدهشته رؤيتي .

شعرت اذا ذاك بسرور لفشل دسيستهم لانهم كانوا واثقين كل الثقةمن انهم سيتخلصون مني . وكان الامير سيتو – وهو واقف في طرف الصف الواقف الى جانب فرعون – مكفهر الوجه في حين كان كثيرون من القـواد الذين عرفـوا بموالاتهم لحرحور والذين أمر معظمهم بالسفر الى بـلاد الحبشة – يتهـامسون فيما بينهم .

اما حرحور فكان جامداً كعادته بل واكثر من اظهار المجاملة عنـد تلاوة القاب فرعون والقابي والقاب الامير سيتو . وفي الواقع لم يتبـادل معي كلمـة تقريباً منذ الصدمة الاولى التي صدمته اياها في قاعـة المحاكمة ولا تظاهر بانـه يشعر بوجودي الا امـام فرعون بل أخفى على مـا يظهر شعوره الحقيقي وراء نقاب كان يسدله دائماً من الابتسامات والمجاملات الكاذبة .

ومع انني لم اكن اخشى أحـداً من الآخرين حتى ولا اوسر رئيس السحرة بعينيه الباردتين الجامدتين ومهارته السحرية – الا انني كنت اخـاف حرحور رئيس الكهنة لأنه كان يتمتع بسلطة عظيمة سواء في مظهره الخارجي او في ضبط نفسه ولعمري كنت كلما رأيته خلته من غير البشر حتى خيل الي في بعض الاحيان ان روحه « كا » روح « ست » الشيطان .

وبينما كانت عيناه تحولان بين الجموع على هـذه الحال اذ التقتـا فجأة بعيني تنزو التي لم ارها في خـلال اليومين الماضيين نظراً لمرضها كما يقـولون . وكانت واقفة بجانب امها تزمت زوجة حرحور فنظرت الي نظرة تنطوي عـلى الحب والسعادة فانتفضت اولا ثم تولاني الخجل واخيراً عجبت لماذا شعرت بذلك .

ذكرت مقابلتها الاخيرة لي في غرفتي ثم رأيتها الآن فلم ادرك شيئاً ولكنني قلت في النهاية ان ما تجلى على وجهها وفي عينيها ليس الا ستاراً حجب شعورها الحقيقي كما هي عادة النساء .

اخيراً ارخيت عيني الى الارض وعندهـا لاحظت بمؤخرة عيني ان وجهها تورد حياء وارخت عينيها كذلك . على انني لم البث ان نزعت الفكرة بعيـداً عن مخيلتي . ولمـا انتهت حفـلة تقديم القرابين عدت مـع والدي الى غرفتـه الخصوصية وهناك أخذنا ننظر في شئون البلاد العامـة فـاستشرنا الوزير منف وبعض القواد والقائد رافحوتب ثم استشرنا حرحور نفسه لأنه كان بحكم وظيفته يشغل مركزاً حربياً فوق مركزه الديني فكان يحمل لقب « القائد العام للشمال والجنوب » و « رئيس الجنود المسترزقة » ولو انني كنت اشغـل بحـكم مـكانتي مركزاً كهذا .

وفي الواقع كانت لدي في مثل هذه الامور أعمال كثيرة لان فرعون اخـذ يدع مقاليد الامور في يدي شيئاً فشيئاً لان شيخوخته كانت قد أثرت في جسمه الضعيف . وقد تبين لي ان عمل أبي هذا لم يرق في عين حرحور الذي وجدني بلا مراء عودا اشد صلابة من عـود فرعون كما وجـدني أرمي سهامي في الجهة التي لا يريدها كما رأى ذلك في المناقشة التي دارت ليلة أمس .

على انه كان لا يزال محافظاً على مظاهر الصداقة الخارجية نحوي ولو انـه يبحث بلا مراء عن موطن للضعف في درعي يطعنه قبل ان يدبر فتنة جـديدة

أخيراً عدت عند الظهر الى الجناح الخاص بي في القصر فأخبرني الخـدم ان ساست يريد مقابلتي فاذنت له بالدخول فدخل وكانت تبدو عليه سياء الغضب فسألته السبب وبعد الحاح كبير أخبرني انه كان يرجو ان ينبئني انبـاء سارة ولكن واأسفاه فشلت احدى دسائسه كما فشلت دسيسة بسار .

فسألته قائلا :

– اية دسيسة كنت تدبر ? .

فأجابني بحزن قائلا :

– لقد بذرت حباً كثيراً في الارض كنت ارجو يوماً ما ان ينمو نمواً تاماً ولكن هذه الحبة بصفة خاصة قطعت قبل ان تنمو .

سكت رئيس السحرة قليلا ثم استطرد في حديثه فقال :

لم تكن الا دسيسة صغيرة لازالة سيتو من طريقنا بالقاء تعويذة اعرفها واعرف كيف استخدمها فقد بت طول ليلتي أعد كل شيء بمساعدة اوراق البردي والحبال المعقودة سبع عقدات وغير ذلك من التعاويذ وضروب السحر التي لا تعرفها ايها الامير . ثم ارسلت في هذا الصباح عبداً أمينا مع صورة من الشمع الى غرف الامير سيتو في القصر اتفاقاً للدسيسة . ولكن يظهر ان اعمالي السحرية فشلت او على الاقل لم تجد فرصة لتثمر لان جثة العبد الذي ارسلته وجدت ملقاة في شارع خارج القصر وهي مطعونة بخنجر عدة طعنات حيث حملت الى هناك مع تمثال الشمع وقد لف حول عنقه .

هدأ اذ ذاك غضب ساست قليلا وعاد الى الكلام فقال :

– وعلى كل حال اسفر عملي هذا عن شيء من الفائدة ايها الامير فقد بلغت الامور ابانها بين حاشية سيتو عند اكتشاف هذه الدسيسة وغادره جميع العبيد الا القليل منهم وهم ينتظرون الان في الفناء الصغير ويقولون انهم يريدون مقابلتك لكي يحولوا ولاءهم اليك . وكانت النتيجة ان فر الامير سيتو الان الى قصر حرحور مع قليل من خدمه المخلصين لانه صار يخشى البقاء في المكان الخاص به في القصر الملكي ولم يستأذن فرعون مخافة ان يمنعه من الذهاب فهل تستطيع أن تثر غضب والدك من نحوه لهذا العمل ؟ .

فقلت ببطء :

– لا اهمية لذلك لان فرعون لا يكترث على ما يظهر بما يجري في قصره . لقد استوليت على السلطة القليلة التي تركها له حرحور وبيننا الان نزاع مستمر

مثل كلبين يتنازعان لاختطاف قطعة من اللحم ، ان أبي يدع كل شيء يجري كما يشاء دون ان يفكر بما له من السلطة لانه شيخ طاعن في السن ضعيف .

قاطعني ساست فجأة قائلا :

ماذا لديك من الانباء عن بسار ؟ هل رأيته ؟ .

فضحكت وقلت :

— رأيته في الهيكل صباح اليوم وكانت تبدو عليه سيماء الخجل والخزى .

فضحك ساست وقال :

— سيزداد وجهه اكفهراراً الان لانني ارسلت اثناء الصباح اليه رسولا باسمك ايها الامير وامرته ان يقوم بزيارتك بعد ظهر اليوم اذا شاء وارسلت اليه ايضاً سلة من الفاكهة هدية . على انه قال انه لا يريد اقلاق راحتك اليوم وانه لا يشعر بجوع الان مطلقاً .

فضحكنا معاً لهذا القول واخذنا بعدها نتكلم في امور اخرى .

على انني لما خلوت بنفسي رأيت ان ساست يضع الخطط والدسائس دون معرفتي، وانه لكي اكون في مأمن واكبر مقدرة على القيام بغرضي بحيث ان اطلع على كل ما يفعله ولو اننا نعمل معا لغاية واحدة .

وكنت اود فوق ذلك في نفسي – كما اخبرت ساست – ان اسوي الامر علانية مع سيتو او حرحور او مع اي خصم منهم بدلا من دس الدسائس والالتجاء الى ضروب المخاتلة والخداع . ومع انه لم يمض علي في نيامون غير مدة وجيزة فقد وقفت على جميع الاسرار الخاصة بدس الدسائس والفتن بحيث خيل الي انني ساصير عما قريب اشد دهاء واكبر خداعاً من اي واحد منهم .

جرى لي حديث بعد ظهر اليوم مع قائد من قواد حملة الاقواس يدعى

خوتون فقال الشيخ باحترام :

— اريد خدمتك في المستقبل مع الكثيرين الذين انضموا الي من اتباع سيتو لاننا حرس أمير مصر . ولكن لما كان هناك الان اميران فقد اردنا وحق المعبود « منتو » ان نتبع أميراً يتحلى بصفة الرجال يدرك ايضاً اننا رجال .

سررت لتعزيز حزبنا على هذه الحال لانه كان ضعيفاً الى هذا الوقت فمنحته حمايتي من سيتو اذا اراد الامير ان يحدث جلبة فيما يتعلق بهذا الامر . ثم امرته ان ينظم مع ميريس رئيس التشريفات كل شيء ويعد المراكز اللازمة لرجاله وعبيده في جوار الجناح الخاص بي ثم صرفته .

ذهبت مرة اخرى في المساء مع ميناس الى حبيبتي وجلست معها نتجاذب اطراف الحديث في امور عديدة . وقد كنت اتوق الوقت كله الى مجيء تلك اللحظة التي افارقها فيها لتمد الي شفتيها الرقيقتين لأقبلها قبلة الوداع . ومع انها كانت هي البادئة في المرة الاولى فأنها لم تكن تسمح لي الآن — على رغم توددي اليها وتوسلاتي — الا بقبلة واحدة عند توديعها وذلك لسبب غريب ما يتعلق بها ارى ان له علاقة بعهودها .

اخذت هذه الزيارات تصير لدي احلى جزء في حياتي شيئاً فشيئاً وفي الواقع كنت اعد الاوقات التي اقضيها بعيداً عن نخ — تل — كاحلاً على رغم ما كان بها من الحوادث المقلقة كما كنت اعد الفترة القصيرة التي اقضيها الى جانبها الحياة الحقيقية الوحيدة . ومع ان المناظر التي كانت تقع عليها عيناي في كل مكان في نيامون غريبة مدهشة وما كنت انتظره من القوة والسلطان فقد كانت دائماً ...

(وهنا فراغ آخر في القصة يتناول اياما كثيرة على ما يظهر) .

١٣

... وهذه الحفلة اقيمت في منتصف الليل وقد حضرها ابي وقدمت من اجله صلوات خاصة لانه كان يشعر بضعف جسماني منذ ايام .

وفي الواقع سقط تقريباً حساب فرعون بيني وبين حرحور لانه كان ضعيف الجسم بحيث كان لا يستطيع تقريباً ابداء اشارة ولم يعد يهتم على ما يظهر بحكم البلاد . على ان اعجابه بي كان شديداً وقد ابلغني غير مرة انه لا يحجم مطلقا عن ترك مقاليد الحكم وادارة شئون البلاد كلها في يدي — ولو انه خيل الي ان معظمها في يد حرحور رئيس الكهنة اذ كثيراً ما كان يزور ابي سراً اثناء غيابي او قبل استدعائي فيحمله بما له من السلطة القديمة والنفوذ على الموافقة على امر من الامور السياسية او اخضاعه لشي ما يريده .

كان علي دائماً ان اكون يقظا متحفزاً لصد حملات حرحور واحباط مساعيه اذ طالما كان يتوخى الحذر والتكتم بحيث كنت لا استطيع رؤية شيء يدل على غرضه الا عندما يصل الى بغيته .

كان القصر الملكي ساحة النزال والمصارعة وجسم ابي الشيخ المسن بيننا دائماً والجائزة هي تاج مصر المزدوج الجليل الشأن . على ان هذه كلها كانت بعيدة عن دواعي سروري لان يدي — والامور على ما هي عليه — كانتا مقيدتين لان

السلطة الزمنية كانت لأبي السلطة الروحية لحرحور – في حين لم يكن لي شيء سواء من هذه او من تلك . ولو كنت فرعوناً لكان على رئيس الكهنة ان يغير خطته والا اشتد النزاع بيننا .

اثارت الحالة بالاجماع ثائرة غضبي بحيث جال بخاطري ان اخمد انفاس حرحور . وفي الواقع سألت ساست اذا كان في وسعي ان ادعوه للمبارزة فضحك وقال :

– كلا وايم الحق . ان هذا يكون الجنون بعينيه لانك اذا قتلت ضاعت قضيتنا كذلك لان كهنة آمون لا يسكتون على مثل هذا العمل بل يثيرون الشعب ضدك في حين يوجد الآن – والاحوال على ما هي عليه – كثيرون يميلون الى الانضمام اليك . وفوق ذلك لدينا بيانخ ابن حرحور الذي يوجد الآن في بلاد الحبشة تحت امرة القائد رافخوتب فانه يأتي ويطالب بحقوق ابيه . ان الوقت هو سلاحك الوحيد لانك شاب وجميع الجنود والشعب يحبونك – لانك مقاتل وامير وحاكم .

لا تكثر الكلام على صولجتك هذه اذ لا يمضي غير القليل حتى تستخدمها بجد عظيم واهتمام .

ثم تناول السلاح في يده ونظر اليها بثبات هنيهة ولم يلبث ان صاح بصوت غريب قائلا :

– ارى عليها دماً ، دما احمر ، دما من البيت الملكي ...

ثم القاها فجأة الى جانبي وضحك ضحكة غريبة ولزم السكوت .

على انني فكرت كثيرا في هذه الامور . وفي الواقع كانت هناك امور عديدة تستدعي التفكير في المسائل التي دار حولها البحث بيننا . فرأيت ان الشعب كما قال ساست يميل الي ولو انه كانت هناك قوة جاذبية اخرى من نحو

الكهنـة لاسباب دينيـة لان حرحور واوسر كانا يسعيان لحمـل الشعب عـلى الاعتقاد بانني عـدو لعبادة آمون اذ رأيا ان هـذه هـي الوسيـلة الوحيدة التي يستطيعان بها محاربتي .

بيد ان حزبنا كان يزداد قوة على رغم ذلك كله بحيث اضطر الامير سيتو الى الهرب الى الجنوب لاعتقاده ان حياته – حتى في قصر حرحور – عرضة للخطر من جانب حزبنا .

كنت اقص جميع هـذه الحوادث عـلى نحح - تل – كا يوماً بعـد يوم اثناء زياراتي السرية لهـا في حديقة هيكـل آمون . وقـد كنت دائماً اسر لسرورها واحزن لحزنهـا لانني عقـدت العزم – وهي لا تدري – عـلى انه سيأتي يوم تشاطرني فيه افراحي واحزاني وانتصاري .

جاءني ميريس بعد تناول الغداء وقال ان بعض كهنة آمون يريدون المثول بين يدي في الفناء الصغير خارج جناح القصر الخاص بي فتولتني الدهشة لهذا الطلب وذهبت اليهم فوجدت جماعة كبيرة من الكهنة ومعهم بعض جنود من حرس حرحور برآسة احد كبار الكهنة وكان شيخاً ماكرا اسمه سورفاست ولما سألته عن مهمته اجابني قائلا انه آتي للقبض على كاهن مارق يدعى آما حكم عليه بالاعدام لجريمة اقترفها وانه علم بوجوده في خدمتي بين حراسي .

لم تكن لي ثقة كبيرة بآما . ولما كان هو الذي اراني الممر السري الى الحديقة ويعرف سري فقـد فكرت كثيراً في قتـله . ومع ذلك رأيت انـه خير لي ان استبقيه في يدي على ان ادعه في يد احد غيري وعلى ذلك رفضت ان اسلمه اليهم فتبسم سورفاست عندها ابتسامة تنم على الخبث واخرج رقاً مختوما بختم فرعون يخول له السلطة لاستلامه .

ثار غضبي اذ ذاك اذ رأيت كيف ان حرحور احتال على ابي اثناء غيابي وعلى ذلك امرت سورفاست ان ينتظر ريثما اعود ثم ذهبت في الحال وطلبت

المثول بين يدي ابي فرعون لاحصل منه على اذن اما بابقاء آما بين حاشيتي او اتولى بنفسي عقابه لانني لم اشأ ان يقع في يد الكهنة الذين يحتمل ان يكرهوه قبل موته على افشاء سر زياراتي السرية في المساء حديقة هيكل آمون فيحولون عندها دون رؤية حبيبتي بسد الممر او باتخاذ وسيلة اخرى .

على انني لسوء الحظ القيت فرعون غضباناً فلم استطع الحصول الا على امر باعدام الرجل قبل المساء سواء على يدي او على يد احد غيري . وعلى ذلك قفلت راجعاً وقد ارتاحت نفسي لانني حلت دون تسليم آما وما لديه من الاسرار الى جماعة الكهنة الذين يبغضونني ويعملون للاضرار بي .

وصلت الى جناحي فتقدم ميريس الي وسجد امامي ثم صاح قائلا :

– لا تغضب على عبدك ايها الامير القدير ، وارث العرش .

فسألته قائلا :

– ماذا جرى ؟

– ارحم عبدك ايها الامير لانه لا يخدم احداً سواك . دخل سورفاست عنوة بعد ذهابك وقبض على الجندي آما من بين الحراس وذهب .

فصحت بغضب قائلا :

– ايها الكلب . لماذا جئت تعوي الي ؟ اتجرأ على اخباري ان الكهنة قبضوا على احد جنودي دون اذني .

– لم تكن لدينا حيلة ايها الامير . فقد حاولت ان اوقفهم ولكنهم دفعوني جانباً واروا رئيس الحرس خاتم فرعون وشارته . لم تكن معنا ولذا لم نجد ما نستطيع عمله ضد امر فرعون لان مقاومة اوامر معناها الموت والهلاك .

فصرخت في وجهه قائلا :

سيكون جزاؤك الموت على كل حال وفي الواقع رأيت بكل جلاء انه ان لم يمسك آما لسانه — الامر الذي لا يستطيع القيام به رجل خائن مثله — فانه لا مندوحة من انتهاء زياراتي الحلوة السرية لحبيبتي .

اخذ ميريس يمرغ خديه امامي قائلا انه لم يكن في وسعه ان يفعل غير ما فعـــل ولكني رفسته بغضب ثم ذهبت الى غرفتي الخاصـة وارسلت في طلب ساست .

اكفهر وجه رئيس السحرة الشاب عندما فرغت من ذكر قصتي لان وجود آما في ايدي كهنة آمون امر خطير بصرف النظر عن زياراتي للحديقة .

اخيراً قلت :

— ومع ذلك سأذهب الليلة لزيارة حبيبتي نح — تل — كا سأذهب مدججا بالسلاح ومعي ميناس وبعض الجنود . واذا كان آما قد اطلعهم على شيء من سري فانهم سيغلقون الممر بـلا ريب وعندهـا لا يمسني اذى اللهم انني لا اجـد مندوحة من البحث عن وسيلة اخرى لدخول الحديقة .

وفوق ذلك يحتمل أن يمسك آما لسانه فلا يبوح لهم بشيء من سري .
فحاول ساست ان يردني عن عزمي على انه لما رأى مني عناداً وأصراراً على تنفيذ رغبتي تمتم قائلا :

— ان سكوت آما بعيد الاحتمال لان كهنة آمون معروفون بالمكر والدهاء. كن واثقاً من انهم سيكتشفون سرك . وفوق ذلك لا يقومون بعمل يبدو جلياً ظاهراً في اعين الآخرين بل يحتمل ان ينصبوا لك فخاً ويقبضون عليك بحجة انك دنست مكاناً مقدساً فاتوسل اليك ان لا تذهب .

مكثنا مدة طويلة نتحاجج ونتجادل على هذه الحال الى ان كانت لي الغلبة عليه في النهاية لانني كنت مصمما على رؤية حبيبتي مهما كانت العراقيل . على

انني اذعنت لارادته في امر واحد فقط وهو الصفح عن ميريس فقد خاطبني قائلا :

— انك في حاجة الى جميع خدمك المخلصين وميريس ليس خائناً ولكنه غني ابله . وعندي لا يستطيع ان يعصي كاهناً يحمل امر فرعون .

رأيت ان ساست اصيب فيا قال ولما كانت ثورة غضبي قد ذهبت ارسلت في طلب ميريس بعد ذهاب ساست واخبرته انني عفوت عنه فقبل عندها نعلي ودموع الفرح تجري على خديه . واخيرا وقف على قدميه ثم قال :

— ان حياتي لك ايها الامير ولا اخالك تجهل انني اموت بكلمة تبدر منك ولكني اريد ايها الامير ان اموت بحالة اكثر فائدة لك من موتي كعبد مذنب .

فأجبته قائلا :

— ربما تموت كما تقول يوماً ما .

ثم نظرت اليه نظرة غريبة وانا لا ادري السبب الذي حملني على التفوه بمثل هذه الكلمات اللهم الا انني شعرت كأن روحاً حركتني على قول ما قلت وبعدها امرته بالانصراف .

تأهبت في المساء لزيارة حبيبتي نح . تل كما حسب عادتي . وقد كان ميناس مولعاً بحب فتاته ويتوق الى رؤيتها بحيث لو تخلفت عن الذهاب ما احجم هو عنه . وفي الواقع رأيت ان الحب صلة غريبة استطاع ان يربطنا بهذه الحال جسما وروحاً بحيث كنا نسمي حبنا رابحاً اذا فقدنا كل شيء دونه واستطعنا انقاذه من الهلاك .

ومع ذلك اشتد قلقنا من نحو آما وهل يفشي سرنا قبل موته واذا فعل فماذا يكون نصيبنا ؟

وعلى ذلك تسلحنا بالخناجر ولبس كل منا قميص من الزرد الشرقي وحمل

ميناس سيفه وحملت انا صولجتي وقد رافقنا ايضاً ستة من جنود الخيتاس المسترزقة فوضعتهم بين الاحراج بعيدا عن المدخل السري للممر وامرتهم ان يكونوا على استعداد لنجدتنا اذا ما سمعوا نداءنا ثم سرنا خلسة في الضوء القليل بين الاشجار الى ان مددنا ايدينا الى الحجر السري بقلب مضطرب .

ضغطنا على الحجر حسب العادة فدار لابتهاجنا وبان مدخل النفق امامنا فكان ذلك دليلا على ان الكهنة لم يغلقوه .

اضأت المصباح الذي نحمله ودخلت اولا ثم سرت في المقدمة وصولجتي في يدي يتبعني ميناس شاهراً سيفه خلفي فاجتزنا النفق على هذه الحال في سلام الى ان وصلنا في النهاية الى درجات المنفذ المؤدي الى الحديقة وعندها تنفسنا الصعداء اذ علمنا ان الكهنة على الارجح لم يسمعوا شيئاً عن قدومنا وانهم لابد ان يكونوا قد قتلوا آما دون ان يسألوه شيئاً ولو ان ساست رأى غير هذا الرأي .

وبينما كنا سائرين بين الشجيرات اذ ظهرت فتاة فجأة كانت تنتظر على ما يظهر ثم تقدمت وارادت ان تلقي نفسها بين ذراعي ميناس ولكن وقعت عيناها علي اولا فتوردت وجنتاها خجلا ومالت برأسها الى الوراء . ولما كانت لا تعرف من انا لان ميناس حفظ سري سألتني المعذرة برشاقة وقالت انها كانت تظن انه وحيداً .

ولما كنت شاباً واقعاً في شرك الغرام كذلك ضحكت وامرت ميناس ان يقبلها فتردد قليلا ولكنه اذعن في النهاية فقبلها مرتين او ثلاثاً واذ ذاك حولت رأسي بعيداً عنها لانني شعرت بشيء من الحزن عندما فكرت بنح – تل – كا وكيف انها لا تسمح لي الا بقبلة واحدة في كل مرة قائلا اذا كان آمون سيعفو عن قبلة واحدة كل يوم فانها مع ذلك لا تستطيع ان تنسى ان مجرد التفكير بالحب خطأ . ومع ذلك رأيت وانا اراقب ميناس وفتاته ان هناك اناساً يستطيعون ان ينسوا ما يزيد عن مدى القبلات وينجون من العقاب .

على انني بينما كنت اتحول للذهاب الى نح – تل – كما سمعت الفتاة تتمتم كلمة او كلمتين عن وجود شيء سري بين الكهنة هذه الليلة فوقفت هنيهة على انني ذكرت ان الفتاة تشير بلا ريب الى القبض على آمـا وقتـله وعلى ذلك واصلت السير الى الكوخ الصغير ولم تمض لحظة اخرى حتى كنت الى جانب حبيبتي في منعزل بعيد في زاوية الحديقة .

١٤

مكثنا مـدة طويلـة نتحدث معـاً في امور عديدة ليست ذي بال كعادة المحبين ولكني اخبرتها في النهاية عما يجري في القصر وما اصاب آما فاضطربت عندهـا وقبضت عـلى كلتـا يدي بأصابعها الصغيرة الباردة ونظرت الى عيني وقالت :

– كن على حذر اي حبيبي رعمسيس . انك لا تعرف هؤلاء الكهنة مثلي انا التي عشت بينهم فانهم لا يحجمون عن شيء متى وقفوا على سرك واذا سمحت لي باصدار حكمي قلت انهم لا بد ان يكونوا الآن قد انتزعوا السر من قلب المسكين في الغرف السفلى وبعدها سينصبون لك الفخاخ هنا ويقتلونك ...

فصحت دهشة قائلا :

– ماذا ! يقتلونني ! يقتلونني انا الامير وارث عرش مصر ! لا ريب في انهم لا يقدمون على ذلك ؟

– كلا . انهم يقتلونك اذا وجدوك وحيداً وثق انهم ينتحلون لانفسهم اعذاراً كثيرة فيقولون انهم يجهلونك وانهم زعموا انك رجل من عامة الشعب تجرأت على تدنيس مكان مقدس وغير ذلك من الاعذار . ولعمري لا يهمهم ما

يصيبهم متى قتلت ، وفي الواقع يرى كثيرون الموت بسببك شرفاًفقط اذا اتيح لهم التخلص منك . ثم اذا فرض ولم يقتلوك فانك ستجد نفسك في مأزق حرج لانهم سيتهمونك في الحال بتدنيس الهيكل المقدس وانتهاك حرمته لانني منذورة الى آمون ... ولا اخالك تجهل ماذا يقولون ... انك تعلم ما يأتي لاجله الرجل هنا .

ثم توردت وجنتاها حياء وقالت :

واذا اخبرناهم الحقيقة لا يصدقني او يصدقك احد . وقد حدث منذ اعوام عديدة ، قبل ان يجلس والدك على عرش مصر ان كاهناً من كهنة « رع » في منف نقض عهوده لاجل اميرة تدعى رامتزو وفرا معاً الى الصحراء فلم ينفعها شيء ولو انها كانت ابنة فرعون لانهم قبضوا عليها فيما بعد فانتحرا لكي لا يقعا فيما هو ادهى وامر . ويعلن القبر الذي اعد لها الى اليوم وتتلى اوراق البردي التي تتضمن خزيها وعارها على جميع من ينذرون حياتهم للمعبود آمون .

— ولكن الا تعلمين ايتها الحبيبة انني مدجج بالسلاح خبير باستخدامها وانني اتوق الى القتال ؟

فانتفضت الفتاة وقالت :

— اواه . لا اطيق مجرد الفكرة .

ثم رفعت يدي الى ثغرها وقبلتها بحنان كما تقبل الام رضيعها وقالت بلهفة .

— قد يمسك احد بأذى واذ ذاك ماذا افعل ... اواه . ان هؤلاء الكهنة الاشرار لئام . لقد كان الدين في مصر روح البلاد فأصبح اليوم سلاسلها واغلالها . ولعمري حتى اوسر رئيس السحرة ...

ثم سكتت فسألها في الحال قائلا :

— ماذا تريدين قوله عن اوسر ؟

– أنه ... حسن . انه رئيس سحرة آمون ، ومع ذلك يريدني كما يريد اية فتاة اخرى .

ثم دفنت وجهها في منكبي وتعلقت بي وهي تنتفض ثم عادت فقالت :

– انه يتكلم عن الشرف العظيم والاخلاص لآمون القدير الذي يناله من يخدم احد خدامه المخلصين ...

فوضعت ذراعي حول وسطها وصحت بغضب قائلا :

– تبا له من شيخ ذميم ! يا له من ارقم خبيث . سأذكر هذا وحق ازيس اذا طال عمري .

هدأ روع الفتاة قليلا واستطردت في حديثها فقالت :

انني لا اخشاه كرجل بل كساحر لانه يسلط علي قوته احياناً فأشعر وقد غادرتني قواي . لقد هربت في اول مرة قام فيها بهذا العمل وفي المرة الثانية قذفته بمبخرة فلم يعد الكرة في المدة الاخيرة ولكن قد يعود يوماً ما وعندها ربما ... اواه ، كم ابغضه ، كم ابغضه !

انتفضت ثانية وجذبت عباءتها حول جسمها . ومن الغريب انني شعرت فجأة ببرد كذلك مع ان اشعة الشمس كانت لا تزال ترى وهي تنير على الازهار والشجيرات .

نظرت بعدها – وكنت على وشك التكلم – فرأيت لدهشتي ميناس واقفاً عند الباب في ضوء الشمس قبيل غروبها . ومما زاد عجبي انني لم اره عند اقترابه لان النافذة التي كنا جالسين بجانبها هي المنفذ الوحيد الذي يطل على الطريق .

خاطبته بدهشة قائلا :

– ميناس ! كيف جئت الى هنا .

وكانت نح – تل – كا جالسة الى جانبي فنظرت اليه بعينيها السوداوين نظرة تنطوي على الخوف والدهشة .

على ان ميناس لم يجبني على سؤالي وقال بصوت خافت ثلاثاً .

– حذار ايها الامير .

ثم اختفى فجأة دون ان اراه تقريباً .

قفزت من مكاني وهرعت خارج الكوخ لأسأله عن معنى قوله ولكني لم اقف له على اثر سواء وراء الكوخ او بين الاحراج .

اخيراً عدت وقد تولاني العجب فالقيت نح – تل – كا كا غادرتها تحدق النظر الى الامام من خلال الباب .

تمتمت قائلا :

– يا للعجب ! انه ليس هناك ... ماذا ؟ ما الخبر ؟ هل رأيت حلماً او هل رأيته ايضاً ؟ .

فأجابني بصوت خافت قائلا :

نعم رأيتها .

– فكررت قولها بصوت مبحوح قائلا :

– رأيتها ! ماذا تعنين ؟ .

– ان ما رأيته ليس شخصاً لانني لم أر له خيالا في الشمس بل أعتقد انه روح او « كا » وهي آلهة .

– ولكن كيف يستطيع ميناس ...

فقاطعتني قائلة :

– ان منبع حياتي ، ان ذاك الشبح قال :

« حذار » فهو رسول نذير ... اواه ، اذهب اذهب الآن اتوسل اليك ان تذهب والا اصابك شيء هنا . ولعمري أشعر في الجو بشيء مروع رهيب .

ومع انني كنت بعيداً عن الهدوء والطمأنينة فقد قلت لها :

– كلا . هدئي روعك واطمئني . ربما لم تكن روح ميناس ...

على انها حولت عينيها الجميلتين نحوي وقالت :

– انك تعلم انها هي .

فلزمت الصمت لانني كنت اعرف في قلبي انهـا هي في حين شعرت بخوف كذلك .

أخذت نح – تل – كاتتوسل الي بصوت مختنق قائلة :

– اواه : يجب ان تذهب الان وكذا يجب علي ان اذهب كذلك اكراماً لك لانهم اذ رأوني وعرفوني علموا انني انا التي احبك فيستطيعون عندها ان يؤلموك من طريقي . وسأبذل كل شيء في سبيل خداعهم بحيث لا يعرفون أيـة كاهنة منا تحبهـا لانهم لم يرتابوا في امرنا الى الآن أي رعمسيس حبيبي . اذهب وازيس معك تحميك وتحافظ عليك ربما كان الخطر ينتظرك فسأصلي لاجلك واراقبك بروحي .

اخذتها بين ذراعي وقبلت شفتيها المرتعدتين وهي مغمضة العينين مستسلمة للاقدار . على انها لم تلبث أن انتعشت بالحياة واخذ جسمها ينتفض وجداً وغراماً فنسيت آمون وغضبـه وطوقت عنقي بـذراعيها ثم قبلتني مثنى وثلاث ورباع بلهفة شديدة وقـد التصقت بي بحيث كنت اشعر بدقات قلبها من خلال ثوبهـا

الرقيق .

اخذت الفتاة تتمتم بصوت متقطع قائلة :

— حبيبي . حبيبي .

وأخيراً انسلت برشاقة من بين يدي عندما اردت ان اقبلها مرة اخرى ثم هرعت الى باب الكوخ وعادت تتوسل قائلة :

— اذهب الان ايها الحبيب . وادعو هاتور المقدسة ان تقيك من كل شر واذى .

خطوت خطوة الى الامام ولكنها تحولت وذهبت فلمع ثوبها الابيض لحظة في الظلام ثم اختفت عن الانظار .

سرت كما لو كنت في حلم بخطوات بطيئة الى مدخل النفق . وكان شطراً من فكري في دورة لما رأيته والشطر الاخر متيقظاً لما قد يصيبني من الخطر

أخرجت خنجري من غمده وقبضت بيدي اليمنى على صولجتي أثناء سيري بين الاحراج ولكني عثرت عند مدخل النفق بشيء ما بحيث كدت اسقط على وجهي فأمسكت ببعض الاعشاب وملت الى الامام ثم نظرت فرأيت ما جمد له دمي في عروقي . ولا عجب فقد شاهدت على نور الغسق الكاهنة التي كانت تحب ميناس ملقاة على الارض وثوبها الجميل ملطخ بالدماء . وكانت قد فارقت الحياة تماما اذ رأيت طعنة نجلاء تحت عنقها الابيض الجميل في حين وضعت على صدرها ورقة من البردي كتب عليها : « هذا نصيب كل دنس يجرأ على انتهاك حرمة امون العظيم » .

انتصبت واقفاً وقد تولاني الرعب الشديد . ماذا حدث يا ترى ؟ لا بد أن يكون الكهنة قد اكتشفوا امرنا . ثم ميناس أين هو ؟ لم أجرأ الظن بانه قتل أيضاً ولكن كيف ان روحه « كا » ظهرت لي في الحديقة ؟ .

نظرت فيما حولي ولكنني لم استطع ان ارى له اثراً وكذا لم أشاهد اثراً بين

الاشجار والازهار يدل على نشوب قتـال ؟ على انني رأيت ان المصـباح الذي وضعناه عند وصولنا لا يزال مضيئاً فتركت جثة الفتاة وحملت المصباح في يدي واطللت برأسي نحو درجات مدخل النفق . وكانت السكينة شاملة فلم أستطع رؤية شيء في الظلام .

وكان قلبي مفعما بخوف لا اعرف كنهه وقد خيل الي هنيهة انني أرى الشبح الذي ظهر امامي منذ مدة وجيزة .

مددت يدي بالمصباح ثم نزلت بكل حذر وانتباه الى مدخل النفق تاركا ورائي تلك الحديقة الغناء والفتاة المدرجة بدمائها بين ازهارها ورياضها .

هبطت درجات السلم ببطء متوقعاً في كل لحظة رؤية الكهنة بثيابهم البيضاء في الدائرة الضيقة التي ينيرها المصباح امامي . وبينا كنت اجتاز فوق الاساس الصخري نظرت فيما حولي علي اري دليلا على وجود احد ممن خشيت ان يكونوا كامنين للانقضاض علي ولكني لم ار شيئاً ولو انه خيل الي انني سمعت همساً فجائياً فوقفت ولكني لم اسمع غير دقات قلبي التي كانت تسمع بجلاء وسط السكون الرهيب المحيط بي .

واصلت السير فوصلت الى الجزء المغشى بالاخشاب في الممر، ثم اخذت في صعود الجزء المنحدر الطويل . وكان العرق يتصبب عن جسمي في هذا المكان المنعزل وتخدرت اصابعي لشدة قبضتي على صولجتي . على ان السلامة كانت على مقربة مني لانني وصلت تقريباً الى الحجر السري في طرف النفق .

تنفست الصعداء . ولكن لم تكد تطمئن نفسي حتى سقطت اشعة المصباح على جسم ابيض ملقى على ارض النفق فاقتربت وملت الى الامام لكي اتحقق منه ولم ألبث ان صرخت وسقط المصباح من يدي ثم ترنحت الى الوراء في الظلام لهول ما وقعت عليه عيناي .

نقشت على كرتي عيني صورة ميناس المروعة نقشاً عميقا وقد جرد من ثيابه

وجحظت عيناه واثخن جسمه جراحا وطعنا وشوه جسمه بحالة مخيفة لا يمكن
وصفها في حين الصقت في صدره بواسطة خنجر — قطعة من الرق تماثل التي
وضعت على صدر الفتاة التي وجدتها مدرجة بدمائها في الحديقة .

وبينا كنت مستنداً الى الحائط وقد وضعت يدي على عيني متعمداً ا
احجب عنها هذا المنظر الرهيب اذ سمعت اصواتا تهمس بلهفة بعيد
خلفي ورأيت اشعة مصباح منعكسة على الحائط ... فقلت ق
فشى آما سرنا في النهاية فقد مات ميناس وماتت فتاته — والآن لا بد ا
يكون الكهنة قد جاؤا يقتفون اثري من الممر السري .

تقدمت الى الامام واخذت ابحث عن اللسان الصخري بقلب مضطرب
وخوف شديد لانني كنت اشعر بجثة ميناس اللينة تحت قدمي .

اخيرا عثرت على اللسان الصخري ثم ضغطت عليه ... ولكن دون جدو
فحاولت الكرة المرة بعد الاخرى وسط ظلام دامس ملقيا كل قوتي حين كانت
اشعة المصباح تقترب شيئاً فشيئاً فوق الممر ولكن لم يتحرك شيء وبقيت
الصخرة ثابتة كما هي .

— اخيراً قطعت كل رجاء . وكان العرق يتصبب فوق وجهي . ولا عجب
فقد ادركت الان كل شيء — ادركت الدسيسة المروعة القاسية الرهيبة
ولعمري هذا هو السبب الذي من اجله حملوا جثة ميناس الى طريق النفق
عندما قبضوا عليه بلا مراء وقتلوه في الحديقة مع فتاته الحسناء ، وهذا هو
السبب الذي من اجله كتبوا الرق واغلقوا الحجر ، نعم فعلوا كل ذلك لكي
اجده في هذا المكان عندما احاول الفرار عبثاً ولكي اعلم انه سيصيبني ما اصاب
عما قريب وان هذا سيكون مصيري الذي لا مفر منه . انهم شياطين مردة
كهنة فقد حبسوني في طرف النفق وحيداً مع جثة صديقي في حين كان ب
وسعي ان أرى بحالة جلية نور المصباح . وهو ينعكس على ثياب الكهنة
البيضاء وعلى سيوفهم المسلولة وهم قادمون .

١٥

وبينما كنت رابضاً على هذه الحال في الظلام ذهبت مخاوفي الشديدة شيئاً فشيئاً لانها تولدت من امر مروع مجهول فتلاشت عند قدوم عدو لدود . وفي الواقع فكرت في نفسي فيما يجب عمله فلم اجد غير طريق واحدة ولكن هذه الطريق يتقدم فيها الآن كهنة آمون ببطء ولكن لمهاجمتي باطراد .

رأيت بعد هنيهة أن احسن وسيلة هي الرجوع ومباحثتهم ثم اطفاء المصباحين اللذين معهما والهرب في الظلام . اما ما يجب عمله بعد ذلك فقد رفض عقلي التفكير به لان الحديقة كانت محاطة بالاسوار والمنفذ الوحيد هو طريق قصر ثوثميس المملوء بالكهنة والكاهنات ومنه الى الهيكل .

على انه خيل الي أن هذه هي الوحيدة وعلى كل حال كان خيراً لي ان اموت دفاعا عن نفسي من ان اموت كعصفور داخل قفص . وعليه توسلت الى بتاح وسألته المساعدة والمعونة ثم شددت الضغط على صولجتي بيدي اليمنى وحملت خنجري في يدي الاخرى وسرت مسرعاً فوق المنحدر نحو الضوء . ولما كانوا يتوقعون رؤيتي عند طرف النفق فلا ريب في انهم يضطربون عند رؤيتي وقد جئت لملاقاتهم .

تقدمت حتى صرت على بضع خطوات منهم . ولما رأيت ان نور المصباح

الذي يحمله الكاهن الامـامي على وشك السقوط علي صرخت صرخة شديدة ثم حملت على الكاهن الذي يحمل المصباح وضربت المصباح بصولجتي فحطمته قبـل ان ينتبه الرجل لما اصابه . ولما كان المصبـاح الاخر على مسافـة بضع خطوات الى الخلف صرت في الظل فجثوت على ركبتي وامسكت الرجـل من رجليـه وقذفت به خلفي . وقد دهش الكاهن التالي لسقوط رفيقه فجأة بحيث تمكنت من طعنه في احشائه بخنجري قبل ان يقترب مني او يدرك حقيقة ما جرى .

رأيت نفسي على اثر ذلك وجهاً لوجه مع الكاهن الثالث وهـو الذي كان يحمل المصباح الثاني فصوب كل منا الى الآخر ضربة فسقطت ضربتـه على قميص الزرد الذي كنت ألبسه تحت ثيابي فأصابني رضوض شديد وسقطت ضربتي على المصباح فسقط من يده وحلت الظلمة الحالكة التي اجـد فيهـا رجائي الوحيد بالنجاة .

وهكذا نفث بتاح العظيم الذي يسهر علينا ويحمينا — في من حكمته فقـد طوقت خصمي قبل ان يتمكن من ضربي وشددت الضغط حول وسطه وقـد التصقت ذراعاه بجانبيه بحيث لم يستطع ان يمسني بسوء ثم رفعتـه بكـل قواي واستخدمته كدرع وهرعت به من فوق المنحدر .

ساد الهرج والمرج بين الآخرين بسبب الظلام وصياح الرجل الجريح ودب في قلوبهم الخوف فأفسحوا لي الطريق وشققت طريقي بينهم كما تشق السفينة بمقدمها لها طريقا بين الامواج .

مررت بثلاثة رجال على هذه الحال فحاولوا ضربي بسيوفهم عبثاً ولكن يظهر ان رابعهم كان اكثر استعداداً من رفاقه فصوب الي طعنة شديدة ولكنه لم يكن يعلم شيئاً عن الدرع الذي احمله فهوى سيفه على جسم رفيقه اولا فألقيته على الارض ولما ادركت ان الكهنة صاروا الان كلهم خلفي هرعت وسرت اعدو في النفق مقدما آيات الحمد والثناء الى المعبود بتاح .

وبينا كنت اجتاز اساس السور اذ طرأت على عقلي فكرتان : الاولى ان هناك كاهناً مترصداً في الحديقة عند مدخل النفق لانني رأيت شبحه والثانية ان الطريق السرية التي على اليسار وهي الطريق التي جاء منها الكهنة — مفتوحة .

تحولت في هذه الطريق دون اقل تردد وسرت فيها مسرعاً في حين سمعت صيحات احد الكهنة وكان قد ادرك قبل رفاقه انني افلت من ايديهم ونجوت منهم .

هرعت في هذه الطريق الصخرية وكانت اضيق من الاولى كثيراً بحيث لا تسع غير شخص واحد وفوق ذلك كانت مضاءة هنا وهناك بمصابيح تركها الكهنة الذين خرجوا للقضاء علي .

وكانت هذه الطريق بلا مراء مبنية على طول اساس السور الكبير الذي يحيط بالحديقة وقصر الكهنة وجميع ابنية الهيكل لانها كانت تمتد الى الامام مباشرة الى مسافة طويلة كما كانت مرصوفة بأحجار تماثل السور الاعلى .

سمعت بعد هنيهة صدى صيحة بعيدة ورائي فرأيت ان الكهنة شاهدوا خيالي على نور المصابيح الضئيلة وانهم اخذوا الآن يدخلون من طرف النفق الآخر .

اجتزت بضعة ابواب على اليد اليمنى على اني ادركت ان كل هذه الابواب تؤدي الى قصر الكهنة فواصلت السير مسرعاً الى الامام . وفي الواقع ذكرت انني دخلت الحديقة من الجانب الجنوبي فعلمت ان الدهليز الذي اسير فيه يؤدي بلا مراء نحو الغرب الى الهيكل نفسه ونحو النهر الذي في طرفه الاخر يوجد السلام .

على انني لم البث ان شعرت بخوف جديد اذ رأيت الممر وقد اتسع امامي

فجأة وزاد ارتفاعاً ثم شاهدت النقوش والصور على جدران الدهليز الذي كان مضاءاً بمصابيح كبيرة من البرنز مدلاة من السقف .

وكان على الجانبين أبواب كثيرة ودهاليز اخرى كان يخرج منها الكهنة من وقت الى آخر وهم يتنقلون من غرفة الى اخرى في حين تغير وجه الممر الى صخور حمراء وكانت هناك بضع درجات تؤدي الى مستوى منخفض .. وهكذا رأيت انني وصلت الى شبكة من الغرف تحت الارض ومقصورات سرية تحت الجزء العتيق من الهيكل كان كهنة آمون يعقدون فيها جلساتهم السرية .

وقفت هنيهة مبهوتا واخيراً ادركت انه لامندوحة لي من مواصلة السير لانني لا استطيع الرجوع ثانية وايقاع الذين يتعقبوني في الفخ نفسه الذي اوقعتهم فيه من قبل خصوصاً في ممر اضيق من الاول مضاء بمصابيح عديدة .

نعم لم يكن مندوحة لي من مواصلة السير والافلات من كل رجل يحاول ايقافي اذ لا ريب في ان هناك مخرجاً في النهاية الى أفنية الهيكل او الى شاطيء النهر . اما اذا تحولت الى احد الجانبين وسرت في دهليز آخر فانني اتخبط تحت هذا البناء الواسع الى ان يقبضوا علي ويقضون علي مثل فأر صغير .

ولما كنت قد سبقت الكهنة الذين يطاردونني بمسافة بعيدة سرت على مهل لكي لا اثير ارتياب احد في الحال وتقدمت بأنفاس مترددة الى دهليز واسع .

اجتزت غرفتين على هذه الحال رأيت من خلال ابوابها المحنطين وهم يشتغلون بتحنيط جثث الموتى وسمعت تراتيل كهنة الجنازات . وبينا كنت اجتاز الغرفة الثالثة اذ خرج منها رجل فجأة فـأحدق النظر الي هنيهة والى ثيابي الملطخة بدماء الكاهن الذي قتل بين ذراعي والى صولجتي وخنجري المشهور في يدي ثم لم يلبث ان جحظت عيناه رعبا وهلعاً .

اخيرا هرع الرجل ثانية الى الباب فواصلت السير مسرعـاً في حين كنت اسمع خلفي وقع اقدام الذين يقتفون اثري .

نظرت خلفي بعد هنيهة فرأيت الرجل الذي اخفته يتكلم باهتمام مع رجلين آخرين ويشير الي . ولا ريب في انهم كانوا في حيرة لا يدرون ماذا يفعلون لأنهم كانوا يجهلون المؤامرة فدهشوا لرؤية رجل غريب يسير بين اماكنهم المقدسة أو انهم زعموا لاول وهلة انني روح .

على انه لم تمض لحظة وجيزة حتى وصل الآخرون الى الدهليز واذ ذاك وقع نظرهم علي فصاحوا صيحة الغضب . وكنت قد استرحت قليلا فجريت ثانية ومع انهم كانوا على مسافة قصيرة خلفي الا ان التعب كان لحسن الحظ قد اعيى الكهنة الذين كانوا يحملون السيوف .

واتفق ان اعترضني رجل في طريقي فدفعته الى الارض وهرعت مسرعاً فاجتزت بضعة ممرات وابواب اخرى .

لاحظت غرفتين مملوءتين بأوراق مصنوعة من الرق ثم خيل الي انني رأيت في غرفة اخرى سورفاست وهو الكاهن الذي جر علي كل هذه المتاعب وكان معه جماعة من العبيد الغلاظ يحملون ادوات التعذيب . وكذا وقع نظري على اوسر رئيس السحرة وكانت تبدو على وجهه دلائل الغضب والدهشة .

خرج احد الرجال وبعض الخدم ولما رأوا الذين يطاردونني حاولوا ايقافي ولكن لم اكد اصل الى الرجل حتى صدمته بصولجتي صدمة قوية القته على الارض والدم ينفث من اذنيه وانفه .

صارت الطريق خالية امامي مرة اخرى فصعدت بعض درجات في طرف الدهليز تؤدي الى ممر آخر ضيق رأيت انه يميل نحو اليمين بعد نحو خمسين خطوة ثم يتشعب الى ثلاثة طرق .

وقفت هنيهة متردداً امام هذه الطرق واصوات الجلبة تسمع من ورائي لا سيا صوت اوسر . وبينا كنت على هذا الحال من الحيرة والارتباك اذ خيل الي فجأة انني اسمع صوتاً يهمس في اذني – هو صوت نح . تل . كا وكأنه يقول .

– الى اليسار اي رعمسيس .

لم اتردد بعد ذلك لحظة واحدة فتحولت نحو اليسار – دون ان افكر بهذا السر بل ذكرت فقط ان نح . تل . كا تصلي وتتوسل الآن لاجلي بلا مراء – ثم هرعت محاولا الوصول الى منعرج في الطريق قبل ان يصل الكهنة الى مفترق الطرق .

وكان هذا المنعرج يؤدي الى مكان مظلم لان الطريق كانت خالية من المصابيح وفوق ذلك كانت قليلة الاستعمال غير مرصوفة . وقد كان علي ان اسير ببطء بسبب الظلام ولكني واصلت السير مسرعاً مدفوعاً بقوة ايمان استمدتها نفسي من ذاك الصوت الذي سمعته – الى ان اخذ الطريق لفرحي وابتهاجي يرتفع شيئاً فشيئاً .

لم اعـد اسمـــع اذ ذاك شيئاً من جلبة الذين يطاردونني واذ ادركت انهم ساروا في منعرج آخر تنفست الصعداء وسرت وقد افعم قلبي رجاء .

وفي الواقع لم البث ان صحت صيحة الابتهاج والفرح اذ رأيت امامي منفذاً تنبعث منه ضوء النجوم الساطعة في السماء – ان صوت نح . تل . كا او صلوات نح . تل . كا قد قادتني الى الطريق الصحيحة .

خرجت من هذا المنفذ فوجدت نفسي على مقربة من مرسى صغير عـــلى شاطىء سيحور (النيل) غير انني لم اكد اصل الى حافة الماء حتى رأيت فجأة خمسة اشخاص او ستة مدججين بالسلاح وسمعت صوتاً يناديني قائلا :

– من انت ؟

اضطرب قلبي مرة اخرى وشددت الضغط على صولجتي ومع ذلك اجبت بهدوء واطمئنان ما استطعت قائلا :

– انا الامير رعمسيس ولي العهد . تكلم من انت ؟

فأجابني صوت ساست لابتهاجي قائلا :

– شكراً للمعبود بتاح العظيم الذي ساعد معلوماتي الحقيرة في ذلك . هل انت في سلام ايها الامير ؟

– نعم في سلام اذا استثنيت بعض رضوض . ولكن كيف علمت يا ساست بأمري وكيف جئت الى هنا ؟

– رأيت انذاراً بخطر محدق بك ، وربما كان ذلك حلماً وربما كان غير حلم وعلى كل حال جئت مع امينمحعت بهؤلاء الرجال القلائل من حرسك وخرجنا للبحث عنك . ولعمري اوحى احد الآلهة الينا ان نمر بهذا المكان لكي نلتقي بك على هذه الحال .

فاه ساست بهذه الكلمات ثم قادني برفق – لانني كنت منهوك القوى من القتال والجري – الى الشاطىء حيث كان هناك بعض زوارق .

على انه بينا كنا نركب الزوارق اذ حمل علينا جماعة كبيرة من الرجال شاهرين سيوفهم ورماحهم وقد جاؤا من مكان ما فوق الصخور .

كان هؤلاء الرجال من كهنة آمون . ولا ريب في انهم عرفوا في النهاية المنعرج الذي سرت فيه فجاؤا من فوق الارض يحاولون قطع الطريق علي – ولكن بعد فوات الفرصة .

صاح ساست قائلا :

– ادفعوا زوارقكم . ادفعوا زوارقكم .

ثم همس في اذني قائلا :

– انهم اكثر منا عدداً وليس في وسعنا مقاتلتهم .

وبينا كنا ندفع زوارقنا الى النهر سمعت اوسر – لانه هو الذي قاد الكهنة الى

هنا – يقول وهو يقرض على انيابه .

– يظهر انه وجد اصدقاء .

ثم رفع صوته واخذ يصيح قائلا :

– اعلم يا من تقود هؤلاء الجماعة مهما كنت ان الذي ينتهك قداسة آمون ...

فهمس ساست في اذني عندها قائلا :

– اراه يدعي انه لا يعرف انك الامير لانه يدعوك بقائد هؤلاء الجماعة . ان هذا جزء من دسيسته اذ في وسعه ان يقول فيما بعد – ويعزز قوله بشهود – انه لم يدرك من انت .

اراد اوسر ان يستمر في صياحه ولكن احد رجالنا قذف سهماً وحذا حذوه اثنان من الكهنة فأطلق امينمحعت عليهم سهماً اصاب احدهم اذ سمعت صرخة الم بحيث اختلط صوت رئيس السحرة وصوت ساست بأصوات الغضب التي تعالت بعد ذلك .

وبينما كنا نسير بزوارقنا في النهر بسرعة رأيت اشباح اوسر ورجاله وهم يتقدمون الى الزوارق الاخرى فأدركت انهم عقدوا العزم على اللحاق بنا قبل ان نصل الى القصر الملكي .

١٦

نزلنا الى البر على ضفة النهر الاخرى ولكن القصر كان لا يزال بعيداً وعلى ذلك رأيت نفسي مرة اخرى اجري في شوارع المدينة يطاردني كهنة آمون كا - رى ذلك من قبل مرة قبل وصولي الى نيامون . ومع انني رأيت مما يدعو ا، العجب ان اهرب انا وارث عرش مصر على هذه الحال غير انني ذكرت ان حزب حرحور في طيبة لا يزال قوياً ذا سلطان .

رأيت انه مهما كان وقع موتي بين الشعب شديداً فانه لا تمضي مدة وجيزة حتى ينسى امري لان الجميع ليسوا على رأي واحد وعندها يصير حرحور ثانية وارث العرش ويفوز بحقه . وعلى ذلك رأيت ان التروي خير وسيلة الى ان اصير بين حاشيتي فاستطيع ان اعلن نفسي لاوسر وعندها يعلم من انا فلا يجرأ على مهاجمتي .

سرنا عدواً في شوارع المدينة المظلمة الى ان اقتربنا في النهاية من ابواب القصر الملكي ورأينا لمعان اسنة حراب الحراس في ضوء النجوم .

و'جتزنا رحبة صغيرة امام باب القصر ثم اخذنا نقرع الابواب فانفتحت فجأة وظهر منها بضعة اشخاص يرتدون اردية سوداء وعبد يحمل شعلة فاختلطنا بهم بحالة اضطراب واصطدمنا ببعضهم واذ ذاك رأينا رجالا آخرين وهودجاً مغلقاً

يجتازون الباب كذلك .

صاح قائد اعرفه قائلا :

– ما هذا ؟ من يجرأ على مثل هذا ...

ثم سكت فجأة وتولته الدهشة كما دهش الاخرون اذ ظهر كهنة آمون في تلك اللحظة من نهاية الطريق وحملوا علينا بسيوفهم ورماحهم وعلى انهم لما رأوا على نور الشعلة اننا ازددنا عدداً بمن اختلطنا بهم واننا صرنا عند باب القصر وقفوا مرتابين زاعمين انه وصلتنا نجدة واننا صرنا متأهبين لملاقاتهم .

لزم جميعنا الصمت على هذه الحال دهشة أو تعباً اما انا فقد زعمت ان الرجال الذين التقينا بهم من حراس القصر وانهم كانوا يخفرون الابواب ولذا قدمت فروض الشكر الى الآلهة لنجاتنا في آخر لحظة .

وبينما كنت على وشك التكلم اذ تقدم القائد الذي تكلم اولا وصاح قائلا :

– افسحوا الطريق . افسحوا الطريق .

على ان اوسر رئيس سحرة آمون تقدم فجأة امام رجاله وصرخ قائلا :

– الزموا الصمت والسكوت . ان رئيس سحرة آمون يتكلم !

ارتد قائد الحرس ورجاله الى الوراء دهشة لان الجميع كانوا يخشون رئيس سحرة آمون وصولته العظيمة . ولعمري اخذت تقريبا اشاطرهم هذا الخوف ولاعجب فقد كان مشهد الرجل رهيباً وهو واقف بجسمه القصير الضخم ويداه مرفوعتان فوق رأسه وصوته يرتجف انفعالا وضوء الشعلة ينير فوق رأسه وفي عينيه الجامدتين ووجهه الخبيث . اما ساست فكان وحده جامداً لانه كان رئيس كهنة بتاح ولديه قوة سحرية كذلك فكان لا يخشى احداً وقد همس في اذني قائلا :

ـ لا تتكلم . الزم السكوت واسمع مـاذا يقـول . اذا كان يدعي عـدم معرفتك كما فعل منذ مـدة وجيزة فـان في وسمـه ان يصب عليك اللعنات ـ ولعنة آمون رهيبة واذا أخبرناه او شاء في النهاية ان يقول انـه يعرفك فـانه يستطيع ان يطلب الى فرعون امراً باتهامك بتدنيس ما هو مقدس وعندها تسير الامور سيراً غير ملائم لك ولقضيتنا ...

رفع اوسر صوته فجأة واخذ يهز ذراعيه العاريتين من ناحية الى اخرى في حين احاط الكهنة به ثم صاح قائلا :

ـ اي آمون ـ رع ابا النور القوي ..اي ميوت والدة الجميع التي ينبع منك كل شيء ان خوفس الشاب الذي تجوب جميع احياء الليل ، اسمعوني انا « خرهب » آمون وخادمكم الامين وحافظ اسراركم وحامي قوتكم .

سكت رئيس السحرة ومع ذلك لم يجرأ احد على التكلم لان اوسر كان يبدو في تلك اللحظة كأنه شيء فوق البشر . واذ ذاك تولاني شيء من الذهول، تولد فجأة من الليل المظلم وصوت الساحر الرهيب وضوء الشعلة الوحيدة وهي تنير على جلده الاسمر وبياض عينيه القاسيتين ثم من القوة الرهيبة التي يتمتع بها ـ ولدت كل هذا الرعب في قلبي وأحدثت قشعريرة في جسمي .

عاد الساحر الى الكلام فقال :

ـ اي آمون ـ رع . لقد انتهكت حرمتك والعذارى اللائي انذرن لك اعتدى عليهن ودنست قداستك فلا تنظر الى كل ذلك ايها المعبود العظيم بل ارسل الى روحك لكي اعلن ارادتك . لقد ارتكب اربعة اشخاص الآثام ضدك نال اثنان منهم العقاب وسيعرف احدهم في الحال . اما الرابع فانه غير معروف ولكنه وقـع في يدي . ماذا نفعل بـه ايها المعبود ؟ تكلم اكن لامرك المقدس طائعاً مختاراً !

جمد الجميع في اماكنهم عند سماع هذا الاتهام الرهيب واوجست خيفة

عندما رأيت عيني الساحر تنظران الي وعلمت انه اختار ان يتجاهل معرفتي لكي يصب الاذى على رأسي . على انني ابتهجت في قلبي لانه لم يكن الى الآن قد عرف نح . تل . كا ولا يحتمل ان يعرفها بين الكاهنات .

صرخ اذ ذاك عقاب الليل من مسافة بعيدة وسط الظلام فتبسم الساحر عندها ابتسامة الظفر ثم رفع رأسه ثانية وقال :

– لتنزل عليك لعنة آمون – رع الاب القدير ولعنة ميوت الأم ولعنة خونس الابن ، لتنزل لعنة سخت التي رأسها رأس هرة، آلهة الطهارة والانتقام، لتنزل اللعنة المجهولة ، اللعنة التي يخفى اوزوزيس نفسه منها وجهه ، لعنة الموت التي ستتسرب اليك قريباً والتي ستكون عذابا لـك بعد الممات . لـن تعرف روحك راحة في آمنتي ولا جسمك في قبره بل يتنقلان دائماً من مكان الى مكان الى ان يصيرا سخرية وعاراً في اعين الاجيال التي لم تولد بعد . استنزل كل هذه اللعنات ولعنة آمون – رع المقدس عليك – مهما تكن – يا من تقود هؤلاء الجماعة الذين اراهم امامي . لقد تكلمت انا اوسر رئيس كهنة آمون .

وقفت مبهوتا لهول الكلمات التي صبها الساحر على رأسي كما بهت جميع الذين كانوا حولي لان اوسر كان معروفا ومهابا لقوة سحره في جميع انحاء البلاد . ما العمل يا ترى وماذا أفعل ضد هذه اللعنة ؟ لقد بدت علامات الارتباك حتى على وجه ساست نفسه .

همس ساست وسط هذا السكون الرهيب قائلا :

– لاتخف . ان هذه اللعنة لا تقع عليك ولعمري اشعر بذلـك داخل قلبي. لا ادري كيف يسمح بتاح العظيم بذلك ولكنه سيسمـح بـه والا لا اكون ساحراً .

جاء الجواب على كلمات ساست لان القائد الذي كان يتولى قيادة الشرذمة الصغيرة التي كانت على وشك الخروج من ابواب القصر قال بصوت :

– ألا تدري أي رئيس سحرة آمون النبيل على من استنزلت لعنتك ؟ الا تعرف من زعيم هذه الجماعة ؟ .

دهشت لهذا السؤال لان القائد لم يكن في وسعـه ان يعرفني في الظلام وانا متنكر على هذه الحال وكذا لم يكن لدى الفريقين وقت لتبادل الحديث .

لعق الساحر شفتيه كما هي عادته وقت الظفر او الارتباك وقال :

– كلا . ولا يهمني انا الذي لا افوه الا بما توحي بـه الالهة على لساني فسواء أكان كاهنا او نبيلا او عبداً – وهنا سكت سكوتا ذا معنى وقال – او اميراً فان اللعنة التي فهت بها يجب ان تكون .

فاستطرد القائد في كلامه باضطراب وقد ثار غضبه قائلا :

– انه المعبود فرعون نفسه هو الذي يقود هذه الجماعة . فرعون الذي يوجد داخل هذا الهودج مريضاً فقد امرنا منذ نصف ساعة فقط ان نحمله سراً الى هيكل ازيس لكي تقدم الصلوات عن صحتـه في ساعـة منتصف الليـل . من الذي تعني لعنته ايها الساحر ؟ .

ثم نظر الينا نظرة تنطوي على الارتياب وقال :

– ان فرعون هو زعيم هذه الجماعة لانه لا يوجد اعلى من حاكم مصر . انـه هو الذي صببت عليه لعنتك .

تعالت اصوات الهلع والرعب من افواه الذين كانوا معي ومن بعض الكهنة ايضاً وفتح اوسر الشعلة اولا علامات الغضب والخيبة على وجهه اخيراً علامات الخوف .

على انه تملك عواطفه في النهاية وقال :

– لقد تكلم آمون على لساني فلا مندوحة من وقوع اللعنة .

قال هذا ثم نظر الي نظرة تنطوي على المقت والغضب الشديد .

همس ساست ثانية قائلا :

انظر . لقد كان نصيبه الفشل كما قلت . ان اللعنة لم تقــع عليك ايها الامير ولا يمكن تغييرها الآن وكذا لا يستطيع ان يشكوك بصفتك الامير لاننــا في هذه الحالة نحاسبه على ادعائه عدم معرفة من انت .

فقلت بامتعاض شديد :

– نعم لقد باء بالخيبة والخسران ولكن ما اعظم الثمن ! لأن لعنة امون لا يمكن رفعها وقد وقعت على فرعون الذي لا يعادل على رغم قداسته ـ آمون قوة .

قال امينمحعت وكان لا يهاب ساحراً ولا لعنة .

– هل ارسل الى جسمه الضخم سهما من سهامي كما يرشق الاطفــال خنفساء بدبوس في الرمال ؟ .

على ان ساست منعه ثم تقدم الى الامام وسط السكون الرهيب في حين سمع صوت يشبه الانين من هودج فرعون المريض .

صاح ساست بشجاعة قائلا :

– اعلم أي اوسر ان سحرك قد طاش سهمه في هــذه المرة . انني اعلم حق العلم انك كنت تصوب سهمك الى شبل ولكنك أصبت اسدا وهذا آمون ان لدي انا خرهب بتــاح في منف شيئاً من القوة كذلك وقــد نظرت الليلة الى المستقبل فرأيتك أي اوسر ميتاً – نعم ميتاً ميتة مروعة بسحرك . لقد اسأت استعمال الموهبة التي أعطتها اياك الآلهة وبهذه الموهبة ستموت .

فقال اوسر ساخراً :

– لا تخف علي أيها الخرهب الصغير لانني اعلم انني لا اذهب وحيداً الى آمنتي واظن انك سترافقني في تلك الرحلة اذا ما حان الوقت .

ثم تحول بغضب واختفى هو وكهنته في الظلام وغادرونا حيث نحن في حيرة واضطراب ولا عجب فقد بهت الجميع بحيث لم يكد يدرك احـد منا ما جرى وما كان .

ذهبت بعد ذلك الى هودج فرعون ثم اطللت برأسي وناديتـه باسمه في حين كان العبد الذي يحمل الشعلة واقفاً الى جانبي .

لم يجبني والدي بكلمة وكان وجهه متوتراً محمراً ويـداه الذابلتان تمسكان بالغطاء والظاهر انه لم يعرفني فأشرت الى القائد بقلب حزين ان يسير على انني قلت في نفسي انه كان يجب على فرعون ان لا يقرر الخروج على هذه الحـال في برد الليل ولو كان خروجه للصلاة لاجله .

سار القائد ورجاله بالهودج فوقفت اراقبهم وبعدها ذهبت الى غرفتي الخاصة تعباً حزيناً حيث خلعت ثيابي الملطخة بالدماء واستدعيت بعض العبيد للاعتناء بما اصاب جسمي من الرضوض .

أخيراً ارسلت في طلب ساست واخبرته بكل مـا جرى قبل ان يلتقي بي فذكرت له وفاة ميناس صلوات نح . تل . كا .

وكان ساست يصغي الى ذلك كله بعجب ودهشة فعجب كيف نجوت من كل هذه المخاطر واجتزتها سالماً .

تـكلمنا بعد ذلك عن كراهية اوسر وكيف ان اللعنة الرهيبة التي أراد ان يصبها على رأسي وقعت بمثل هذا الاتفاق الغريب على ابي الشيخ المسكين .

على انني كنت منهوك القوى من الجري والقتـال والرعب والخوف والفرح وكثير من الانفعالات النفسية المختلفة بحيث غلب علي النعاس في النهاية فنمت وساست لا يزال يتـكلم .

١٧

استدعيت في صباح اليوم التالي الى غرفة أبي فوجدته مريضاً جداً وكان لا يستطيع مخاطبتي ولكنه كان لا يذكر شيئاً مطلقاً مما فاه بـه اوسر رئيس سحرة آمون ولم يجرأ قائد الحرس او اي رجل آخر على ان يخبره شيئاً مما جرى .

أخذت اعزيه ما استطعت وجلست الى جانبه حتى نام وعندها امرت جميع الاطباء والجواري والعبيد والخدم الذين احتشدوا في الغرفة بالانصراف . وقد وجدت الطبيب الشيخ الذي اثار غضبي في مسألة محاولة بسار اغتيال حياتي فطردته بصفة خاصة ووضعت بدلا منه اطباء اصغر منه سناً اعظم خبرة ومهارة .

اكد لي جميع الاطباء ان فرعون المعبود مصاب ببرد بسيط اثر في جسمه لشيخوخته وانه سيعيش مدة طويلة اخرى ولو انه لا يستطيع ان ينظر بنفسه في شئون الملك . وعلى ذلك شعرت بشيء من الارتياح والطمأنينة فذهبت الى غرفتي حيث مكثت مدة اتحدث مع ساست وامينمحعت في امرنا . وفي الواقع حزنت لوفاة صديقي مينساس واضطربت افكاري لاكتشاف زياراتي السرية للهيكل .

وبينا كنا نتحدث اذ دخل علي جندي من جنود الحيثاس المسترزقة تبين لي انه واحد من الجنود الذين تركتهم بين الاحراج عند مدخل النفق السري فسجد امامي وقال :

– لما لم نسمع عنك شيئاً يا مولاي طول الليل وفي صباح اليوم التالي ارسلني رفاقي الى هنا لكي اقف على ما جرى ولاعلم هل نستطيع العودة طلباً للطعام والراحة .

تـأثرت نفسي لاخلاصهم هـذا لانني نسيتهم بالمرة لخطورة الحـوادث التي وقعت وتدفقها مرة واحدة فأمرت ميريس ان يرسل عبـداً ليأمر الآخرين بالعودة وان يعطي كل جندي منهم قطعتين من الذهب مـكافأة له على اخلاصه وولائه .

خطرت ببالي بعد ذلك فكرة كانت بعيدة عن عقلي بسبب المخاطر الغريبة التي شهدتها وهي انني صرت لا استطيع الان مقابلة نح . تل . كا بعد اكتشاف السر حتى اتوفق الى معرفة طريق اخرى الى الحديقة .

ثم ذكرت بحسرة وتألم ان نح . تل . كالا تعـلم حتى الآن هـل نجوت من قبضة الكهنة أم لا وعلى ذلك ذهبت في الحـال مـع حاشية صغيرة للتعبـد في هيكل آمون لكي تراني على قيد الحياة وبخير فتتشدد وتتقوى . وفوق ذلك اردت الذهاب لكي يعلم حرحور واوسر وسورفـاست وغيرهم انني لا اخشاهم ولا اخشى دسائسهم ولا اخاف التجول مـع قليـل من رجالي حتى بعد الذى جرى ليلة امس. ولما كان اوسرادعى ليلة امس عدم معرفتي لـكي يقبض علي او يقتلني او يصب على رأسي لعنة دون ان يسأله احد فقد كان اليوم مقيداً بالقيد نفسه .

وفي الواقع طمع اوسر في الاكبر والغير المحقق فلما فشل اضاع كل فائدة – اللهم الا منعي من زياراتي للحديقة كل مساء . وكان الساحر – حتى في هذه

الآونة – لا يحجم عن التشهير بي اذا ضمن تأييد اهل نيامون له ولكن لحسن الحظ كان معظمهم يميل الي . ولما كان الساحر لم يذكر شيئاً عن حقيقة امري فانهم لا يصدقونه الان اذا اقدم على التنديد بي .

سار كل شيء في طريقه الحسن في هيكل آمون فقد كان في وسعي ان أرى من المكان الذي وقفت فيه ما تجلى في عيني نح . تل . كا من الارتياح والفرح بحيث غادرت المعبد بقلب مرتاح .

على انني التقيت اثناء عودتي الى القصر برسول هرع الى هودجي وخر على وجهه امامي في الحال فسألته بخمول قائلا :

– ماذا وراءك ؟

واأسفاه ايها الامير على ارض « خم » ان اباك فرعون ، رعمسيس حاكم الاراضي العلياوالسفلى مات الان ! واأسفاه . ان المعبود الصالح معطي الحياة مثل الشمس الذي جعل حدود بلاده حيث شاء – يقف الان امام اوزوريس في قاعة المحاكمة في آمنتي . ان فرعون الذي ...

على ان هذا النبأ المروع كان قد اربك عقلي بحيث قطعت على الرسول صياحه وامرت العبيد ان يجدوا السير وقد تملكني القلق لان حالة فرعون على ضعفه لم تكن لتدل على قرب منيته بهذه السرعة .

كان القلق قد استحوذ علي بحيث رأيت ان سرعة العبيد لا تكفي فقفزت من الهودج وامسكت مركبة احد التجار المارين وامرته ان يذهب بعدي الى القصر ليأخذ مركبته ومكافأة له وهكذا ذهبت بسرعة الى القصر .

وجدت النداببن في فناء القصر وكانوا يرتدون ثيابا ممزقة وهم يندبون ويحثون التراب على رؤوسهم في حين كان الخدم والعبيد في الداخل يسيرون بخطوات خفيفة وسكون تام .

التقيت بالوزير نيفر عند الباب الداخلي فوجدت الحزن والخوف اخذ منه مأخذاً عظيما . ولا عجب فقد كان يحب فرعون حباً يكاد يفوق حبي له ، وفوق ذلك كان يخشى — وهو الخادم المخلص الامين — ان يفقد مركزه في النزاع الذي لا مندوحة من وقوعه للاستيلاء على السلطة .

صاح الوزير قائلا :

— اواه ايها الامير رعمسيس . لقد مات فرعون العظيم منذ ساعتين . ان الخطب جلل والمصاب .

فقاطعته قائلا :

— نعم وهذا هو السبب في قدومي بهذه السرعة .

— ما العمل ايها الامير ؟ هل سيستولي حرحور على العرش ؟ وهل غالبية الشعب من انصاره ؟ هل ستتوج ملكا على مصر ؟ .

— هدىء روعك يا نيفر . تقدمني الى حيث وضعتم جثة المعبود العظيم الذي كان منذ مدة وجيزة المعبود الصالح .

وصلنا الى باب مخدع فرعون حيث زرته منذ ساعات قليلة وهناك رأيت جماعة الاطباء الذين عينتهم للاهتمام به وقد تولاهم الهلع فسألتهم الخبر فقالوا ان صحة فرعون تحسنت على ما يظهر نحو الظهر غير انه لم يلبث ان صرخ صرخة عظيمة وتمتم شيئاً عن لعنة ثم مات دون ان تجدي مهارتهم الطبية شيئاً . ثم قالوا انهم لا يستطيعون ادراك هذا السر واقسموا انه لم يمت بسم اوبشيء من هذا القبيل . وفي الواقع خافوا ان آمر بقطع رؤوسهم ولكنني صفحت عنهم فتقبلوا عملي بالشكر والامتنان .

دخلت بعد ذلك الغرفة حيث كانت جثة فرعون فوق سريره ونساؤه وجواريه يندبن ويبكين تحت قدميه في حين التفت بعض جنوده من حوله .

أحدقت النظر مدة طويلة الى وجه ابي الشاحب النبيل واطلت التفكير في الموت الذي سيداهم الجميع عاجلا أو آجلا ويجعل الملوك والصعاليك في مستوى واحد ثم عجبت من أمر روح فرعون واين توجد الآن وهل ترانا . وقد تولاني ايضاً شيء من الخوف لان لعنة اوسر التي تنبأت الموت العاجل قد تحققت ولم ادر هل تحرم جثة فرعون الراحة وتصير موضع سخرية اجيال لم تولد كما قالت اللعنة .

أخيراً صليت الى بتاح والى ازيس ونفثيس وحماة الموتى ان يحاكم ابي محاكمة عادلة حسنة اذا ما وقف امام ازوريس وأن يدخل الى راحته في دار السلام . غادرت الغرفة على اثر ذلك حزين القلب فالتقيت مرة أخرى بالوزير نيفر فخاطبني قائلا :

– هل يسرك ايها الامير رعمسيس الذي صرت بحق الارث فرعون مصر الغير المتوج – ان تصدر امرك بمراعاة الحداد ؟

فأجبته بحزن قائلا :

– نعم .

ثم ذهبت الى الغرفة الصغيرة التي التقيت فيها مع والدي لاول مرة وجلست على العرش نفسه المصنوع من المرمر ثم استدعيت الاشراف والنبلاء والضباط والكتبة وغيرهم من رجال البلاط فلما اكتمل عددهم اصدرت أمراً بأن تكون ايام الحداد على فرعون اثنين وسبعين يوماً وان ترتل اغنية الحداد مرتين كل يوم وان لا تقدم قرابين او تقام حفلات بل تغلق جميع الهياكل ويصوم الناس صياماً عاماً .

هذا هو الامر الذي اصدرته انا فرعون مصر ، رعمسيس الثالث عشر بحق الدم وأنا لا ادري هل اتوج ملكا على الاراضي العليا والسفلى لانني كنت شديد القلق من نحو حرحور وحزبه وما عولوا عليه الآن .

وبينما كنت افكر على هذه الحال وانا جالس على العرش اذ جاءني ميريس وقال ان رئيس كهنة آمون ورئيس السحرة وحاكم المدينة جاءوا الى القصر عند سماع الخبر فاستقر رأيي اذ ذاك على ان أريهم انني في الواقع لست السيد الحقير فرفضت مقابلتهم في الحال وامرتهم ان يقابلوني بعد الظهر في قاعة المحاكمة اذ رأيت من الملائم ان تكون اول مقابلتي لهم بعد وفاة والدي علنية لكي يعلم الجميع انني عقدت العزم على ان احكم البلاد كفرعون مصر مهما قال حرحور او فعل .

ذهبت بعد ذلك الى جناح القصر الخاص بي لكي يساعدني عبيدي على ارتداء ثيابي الملكية ولكي استشير ساست وامينمحعت .

لم اجد ساست بالقصر على انه عاد بعد هنيهة وقال انه لما علم بوفاة فرعون بث جواسيسه – وكان لديه الآن عدد كبير منهم – في جميع انحاء المدينة وبين الجنود لكي يعلم خطة الجميع ازاء الحالة الحديثة .

استطرد ساست في حديثه فقال :

– لقد جئتك بأنباء سارة ايها الامير لان الامور سارت في المدينة سيراً حسناً لم نكن نتوقعه وقد اظهرتها كلها تلك الضربة الفجائية واعني بها وفاة ابيك فرعون . ان جميع رجال الجيش هنا – عدا حرس حرحور - في جانبك نظراً لغياب الجيش الآخر الموجود الآن في بلاد الحبشة . اما السكان فانهم يميلون الى توليتك فرعوناً عليهم لانك محبوب بينهم .

« على ان الخطر الاكبر أيها الامير انما هو على ما ارى من جانب الكهنة ومالهم من السلطة على الناس فعليك الان ان تتوخى الحذر ما استطعت في تسلية نفسك لأن معظم السكان يعلمون انك تربيت في هيكل بتاح في الوجه البحري وربما زعموا انك لست مقبولا من آمون – وهو اعتقاد قد يكون الان موجوداً في أدمغتهم بسبب خطة حرحور ورجاله نحوك . ومع انهم لا يميلون اليه كرجل

فانهم يخشونه كرئيس للكهنة وثق انه يعرف هذه الحقيقة وانه لن يألو جهداً في تقديم البراهين على كراهية آمون لك .

« وسيحاول الان أكثر من أي وقت مضى ان يحط من قدرك وينزع ثقة الناس بك من الوجهة الدينية فيرميك بانتهاك حرمة الاشياء المقدسة وعدم مراعاة الصيام وغيره من الطقوس الدينية والتعدي على القوانين المقدسة وغير ذلك وربما التجأ الى الاحلام والنبوءات لأن الشعب جاهل يعتقد كل ما يقال له من هذا القبيل .

« ولا ريب في انه اذا استطاع حرحور ان يقوم بهذا العمل قبل ان تتوج وتصير ملك مصر الحقيقي فان الامور تكون غير ملائمة لك لان السكان اذا كانوا الآن يميلون اليك ويودون أن تكون حاكما عليهم فأنني اعلم جيداً انهم يفضلون حرحور عليك اذا ادخل الكهنة في أدمغتهم انك لست محبوباً من آمون . اما اذا وضع التاج على رأسك فانهم يطيعونك في كل شيء .

« اما فيما يتعلق بالمشاكل الحالية مع حرحور فلا تخف لان حزبه أضعف من ان يستطيع القيام بشيء اللهم الا الخضوع ولو انه سيلتوي ويلتف كالثعبان لكي يبعدك عن ان تصير ملك البلاد الحقيقي ما استطاع ولكي يجد وقتاً كافياً لتدبير دسيسة ناجحة » .

تكلمنا في هذا الموضوع مرة اخرى بعدذلك وأخيراً ذهبت في الساعةالمعينة الى قاعة الحكم الكبرى حيث سجد الجميع أمامي وناداني معظمهم باسم فرعون ولو ان حزب حرحور كان لا يزال يدعوني اميراً لأنني لم اتوج بعد .

جلست في المكان المعد لي وبعد ان أخبرت حرحور بالخسارة التي اصابتني واصابت مصر بفقد والدي سألته متى اتوج ملكا على البلاد في هيكل آمون.

فرفع عينيه عندها واجابني قائلا :

– اعلم ايها الامير رعمسيس يا من ستتولى عرش مصر انني رأيت ليلة امس رؤيا تتعلق بهذا الامر يشهد بها اوسر رئيس السحرة والكتبة القديسون الذين دونوها . وقد خيل في هذه الرؤيا ان آمون العظيم نفسه يتكلم معي انا الخادم الوضيع ...

فسمعت اذ ذاك همساً من طرف القاعة حيث وقف بعض رجال الشعب بأمري . وفي الواقع كان في وسعي ان اسمع تمتمتهم عندما كان الذين في الداخل ينقلون هذه الاقوال للجموع الغفيرة التي كانت محتشدة في الفناء وفي الشارع الخارجي .

على انني ذكرت اذ ذاك قول ساست عن الاحلام والنبوءات فادركت ان الامور ستكون شاقة متعبة .

استطرد حرحور كلامه قائلا :

– اعلم ايها الامير ان المعبود آمون العظيم الذي لا يجوز ذكر اسمه قال لي الرؤيا انه لا يجدر مطلقاً بالملك الجديد ان يتوج في أيام الحداد على الملك القديم واذا فعل فانه يصب لعنته عليه وعلى سكان مصر ولو انني اذ ذاك لم اكن ان أعلم ان وفاة فرعون التي آلمت نفوسنا وأحزنت قلوبنا ستأتي بهذه السرعة .

ثار غضبي لهذا القول اذ أيقنت انني لا استطيع ان أفوه امام المجتمعين بما أريد، لانهم كانوا بلا ريب يخشون رئيس الكهنة ويؤمنون بكل ما قالهخصوصاً فيما يتعلق باللعنة التي ستقع عليهم .

زعمت ان أمسكه من كلامه فسألته قائلا :

– وهل تؤمن بهذه النبوءة واللعنة ؟

فاظهر دهشة وقال :

– هل يجرأ رئيس كهنة آمون على الكفر بكلمة آمون ؟

ثم استطرد في حديثه وقد ألقى نظرة على اوسر قائلا :

– وفوق ذلك اذكر لعنة اخطأت المرمى ليلة امس وسقطت حيث كان يجب ان لا تسقط ولكن هل هذا يؤثر في اللعنة نفسها؟ كان جزء منها « ان يحل الموت عاجلا » فهل تحقق ذلك ام لا ؟ – ثم نظر الى بعض الواقفين على مقربة من العرش نظرة ذات معنى–او هل قال الاطباء ان فرعون مات موتاً طبيعياً ! ثم من يدري هل لا تتحقق بقيتها في الايام المقبلة ؟

رفع حرحور صوته مرة اخرى وعاد فقال :

ثم حدث منذ اعوام ان تنبأت هاتور ايها الامير بأن الويل سيقع على رأس ابيك بسببك فهل كذبت هذه النبوءة اذا ذكرت ما وقع امس .

جلست هنيهة ساكناً افكر في مهارة هذا الرجل ودهائه . وكذا لزم الجميع الصمت لانهم رأوا – حتى الذين منهم كانوا يحملون ما وقع ليلة امس – ان حرحور قد نال شيئاً من الفوز .

اشتد استيائي ايضاً لنبوءة هاتور التي ذكرني اياها بهذا الحال . ولعمري رأيت ان طرق الالهة غريبة لان اللعنة التي كان يقصد اوسر القاءها على رأسي وقعت على فرعون وبهذا الاتفاق وبتحقيقها قد تحققت ايضاً نبوءة هاتور القائلة ان الويل سيقع على رأس ابي بسببي .

استطرد رئيس الكهنة في حديثه قبل ان اجد متسعاً من الوقت لاجابته فقال :

– ارى والحالة هذه ايها الامير ان خير وسيلة هي الاذعان لما ارادت الالهة ان تعلنه على لساني انا خادمها الوضيع .

تعالت اصوات الرضى والقبول من افواه الكثيرين الذين كان لهم ان يسمعوا اي رجل – حتى انا – يحاول عصيان كلمة آمون .

حنى حرحور رأسه بعد ذلك ووقف جانباً .

نظرت فيما حولي فلم اجد مخرجاً . ولا عجب فقد ضرب رئيس الكهنة ضربته بحذق ومهارة وقد ضربها بشدة بحيث جنى فائدة ولكنه لم يشدد فيها لى حد استياء الذين يريدون استمالتهم .

ساد سكون غريب على جميع النبلاء والقواد والكهنة والشعب وامتد الى الواقفين في الخارج .وكان الجميع تقريباً يذكرون نبوءة هاتور او علموا شيئاً عنها فدهشوا الآن لهذا الاتفاق الغريب الفجائي الذي زاد في احترامهم لنبوءات كهنة آمون – كما كان حرحور يعلم ذلك جيداً .

كان الشعب يميل الي ميلا ظاهراً ولكنهم كانوا يخشون حرحور . ولعمري لم اعجب لذلك لانه اذا كان هذا يبدو غريباً لا يمكن ادراكه لدي فكيف يكون لدى الذين يعتقدون ببساطة في آمون ونبوءاته ؟وفوق ذلك رأيت انني اذا استخدمت قوتي الحديثة ضد رئيس الكهنة بحضور الشعب فانني ارتاب في هل استطيع في تلك الحالة ان اتغلب على ارادته واتوج ملكا على البلاد .

وعلى ذلك اذعنت مكرهاً وكبحت جماح غضبي وقبلت ان اتوج بعد انتهاء اثنين وسبعين يوما وهي ايام الحداد على فرعون وأنا اعلم حق العلم ان حرحور انما يسعى لاكتساب الوقت لتدبير دسيسة بها ينزع الثقة بي من أعين جميع الشعب في الاراضي العليا . ومع ذلك امرت الجميع ان يأتوا الي ويقسموا يمين بين يدي وقد اذعن كثيرون من النبلاء المعروفين بميلهم الى حرحور لذلك بخبث زاعمين ...

(وهنا يقع فراغ آخر في القصة يتناول سبعين يوما تقريباً لان الاوراق التي كتبها ارثر رولي عن هذه المدة كانت مطموسة بحيث لا يمكن قراءتها مطلقاً) .

١٨

... بعد اقامة حفلة في الهيكل تقدم فيها القرابين عن روح ابي لان مدة الحداد ستنتهي بعد ايام قليلة .

ذهب الجميع بعد ذلك الى غرفة استقبالي الخاصة حيث دارت المناقشة حول هل نرسل رسلا الى بلاد الحبشة اولا للتحري عن الاسباب التي دعت الى عدم ورود انباء عن رافحوتب وجيشه منذ غادروا نيامون على ان حرحور وحزبه قالوا لا ريب في ان القائد وجد المشكلة سهلة فرأى ان لا يرسل أنباء مفضلا القدوم بها بنفسه عند عودته على رأس جيشه الظافر .

أخيراً استقر رأيي على ان ننتظر في هذه الآونة على ان نرسل رسلا اذا لم نسمع شيئاً عن الجيش قبـــل ان يصير القمر بدراً مرة اخرى وبعدها امرت الجميع بالانصراف وذهبت الى غرفتي منهوك القوى .

كان قلبي مثقلا بالاحزان اثناء جلوسي وحيداً مع افكاري فخيل الي ان الحياة ليست الا سرابا كاذبا او اياما خالية من الفرح — اياما لا استطيع فيها مخاطبة نح — تل — كا او اراها الا قليلا لان الهياكل كانت كلها مغلقة مراعاة للحداد . وفي الواقـع لم اضمهـا الى صدري او انظر الى عينيها منـذ تلك الليلة المروعة التي طاردني فيها الكهنة في النفق والممرات التي تجري تحت الهيكل .

كاد الشوق يذهب بصوابي الى قبلاتها وسماع صوتها العذب الرخيم وشعوري بجسمها الرقيق وهي مستسلمة بين ذراعي مثــل طفــل صغير وعشرتهــا الهادئة وتعزيتها الحلوة وتخفيف جميع متاعبي .

نعم كاد الشوق الى لقياها يذهب بعقلي ومــع ذلــك كان هذا مستحيــلا . وكنت اعرف ذلك حق المعرفة لانني ارسلت جواسيس حول سوار الهيكل فلم يجدوا منفذاً الى هناك .

وفي الواقع كان النفق السري اذا استثنينا المدخل العام للهيكل هو المدخل الوحيد وهذا لا يزال مغلقاً لانني حاولت الكرة غير مرة . وقد كان في وسعي ان أحفر حول هذا المدخل سراً ولكن عملي هذا لا يلبث ان يفشى سره فيغلق ثانية في اليوم التالي وعلى ذلك لا افوز الا بزيارة واحدة . وهذه الزيارة لا فائدة منها — ما لم — وهنا قــدحت زناد فكري — مــا لم تف هــذه الزيارة الواحدة بحاجاتي .

ذكرت ما قاله ساست وامينمحعت منذ مدة طويلة عن اختطاف نح — تل — كا الى القصر وكيف انني فكرت في هذا الامر اذ ذاك وبعدها ايضاً . فالآن وقد أصبحت فرعون مصر — في كل شيء الا في اللقب - فأي شيء اسهــل من ارسال جماعة من العبيد وحفر ممر الى النفق ثم اغرائها على القدوم معي او حملها اذا رفضت ؟ لا ريب في ان كهنة آمون سيقتفون اثري ولكن لما كنت انا الامير كلا بل فرعون الذي قمت بهذا العمل فان من المستطــاع كتمان الامر الى ان أتوج في سلام .

لم يبق على انتقال جثة ابي من ايدي المحنطين في هيكل آمون غير يومين ثم تنقل رسمياً فوق النهر الى مقرها الاخير في مقابر الملوك وبعدهــا أصير فرعون مصر القوي الذي لا يستطيع أحد بعد تتويجه ان يخالف له ارادة .

ومع ان حرحور حاول مرات عديدة ان ينصب لي فخاخاً وقــد اراد ان

يوقعني في تلك المشكلة الخاصة بالصيام التي نسيتها لولا ساست – فقد نجوت الى الآن من شباكه . وكان الشعب ايضاً معي ولو انهم كانوا لا يزالون يتأثرون من اعمال الكهنة ونبوءاتهم المستمرة .

لم يبقى غير ثلاثة ايام فقط ففي وسعي ان اقوم بهذا العمل بمساعدة ميريس وجنودي – وربما امينمحعت ايضاً الذي كان يميل دائماً الى اختطافها وبعد ذلك ...

خيل الي ان دقات قلبي وقفت لمجرد تصور الفرح الذي ينتظرني . ولا عجب فان نح . تل . كما كانت جديرة بتجشم الاخطار واستخفاف المتاعب والاهوال.

أخذت اذهب واجيء في ارض الغرفة افكر كيف يمكن تدبير الامر بالضبط .

دخل ساست علي بعد هنيهة – وكنت قد ارسلت في طلبه – فاخبرني ان الامور ليست سيئة كما كنا نتوقع .

ثم استطرد في حديثه قائلا :

– نعم ليست الامور سيئة اللهم الا فيما يتعلق بنبوءة جديدة اعلنها حرحور الآن وهذه النبوءة تتعلق بك .والظاهر انها وجدت رواجاً بين الشعب ولعمري ارى ان النبوءات وما أشبه ذلك هي سلاحه الوحيد الذي يستطيع استخدامه بحذق ومهارة لا يضعف أكثر من اللازم ولا بشدة تزيد عن الحد لأن الشعب حائر بين الخوف منه ومن قوته ونفوذه الديني وبين حبه لك . وسوف لا يستقر الامر على شيء حتى يقضي على هذا الخوف او ذاك الحب .

« يقول حرحور الآن ان آمون اعلن له انه ستظهر اشارة تدل على رضى المعبود عنك او عدم رضاه وان هذه الاشارة ستظهر في اليوم الذي ترسل فيه جثة أبيك الى منزل الابدية أي بعد غد واظن ان هناك حيلة في الامر فيجب

أن تكون على استعداد مخافة ان يظهر نذير الشر في ذاك اليوم ولو انني لا ادري ما الذي حمله على هذا القول ما لم يكن هناك شيء في نفسه . والآن عليك ايها الامير ان تتوخى الحذر ما استطعت مخافة ان ...

(وهنا يقع فراغ صغير آخر في القصة نظراً لوجود ورقتين آخريين لا يمكن قراءتها) .

... مع ساست في المساء . وعندها قال ميريس ان السيدة تنزو تريد مقابلتي على انفراد .

دهشت لقوله هذا واعدت ما فاه به قائلا :

– السيدة تنزو ! .

ولا عجب فقد ذكرت المرة الاخيرة التي خاطبتني فيها ابنة حرحور والكلمات القاسية المرة التي غادرت بها غرفتي ولو انها في الحقيقة كانت تخفي كرهها لي كلما التقيت بها تحت ستار ابتساماتها .

اخيراً امرت ميريس قائلا :

– مرها بالدخول . ولكن قف . هل لك ان تغادر الغرفة اولا يا ساست وسأرسل في طلبك في الحال لانها تريد مقابلتي على انفراد .

على ان ساست اجابني وهو مطرق الرأس قائلا :

– اتوسل اليك اي فرعون النبيل ، محبوب هورس ، ان لا تلقاها فنظرت اليه دهشة وقلت :

– ولم لا ؟ .

على انه لم يقابل نظرتي واجابني قائلا :

– لانه لاخير من هذه المقابلة .

– لقد قلت منذ بضعة شهور غير هذا القول يا ساست . أقول لا بـــد من مقابلتها فهل لك ان تذهب الى غرفتك ؟ .

ذهب ساست بتبرم ولم تمض بضع دقائق حتى دخلت تنزو الغرفة ولم يكد يغادر ميريس المكان وتسدل الستائر وراءه حتى هرعت الفتاة الي فجأة وقبـل ان اتمكن من منعها قبلت شفتي بلهفة شديدة وهي تتمتم بكلمات الحب والاعزاز.

اخيراً نزعت ذراعيها من حول عنقي وقلت دهشة :

– تنزو ! ما معنى هذا ؟ .

فتوردت وجنتاها وصدرها وكررت قولي بدهشة لذيذة وارتباك قائلة :

– ماذا تقول ؟ ما معنى ماذا ؟ .

– لماذا ... لماذا تقبلينني على هذه الحال ؟ .

فتملكت عواطفها وقالت بشجاعة .

– لم لا ؟ان هذا أمر طبيعي بين المحبين الذين حالت بين لقائهم موانع قاهرة كل هذه المدة الطويلة .

– ولكني ... اخبرتك ... في المرة الاخيرة عندما كنت هنا ... انا ...

– اواه يا سيدي رعمسيس . خل عنك هذا الان ! لاحاجة الى التكتم بعد الان لانني اعددت كل شيء كما امرتني . والان في وسع كل منا ان يصارح الآخر بحبه .

فزادت دهشتي وقلت متلعثما :

– لا ريب في انك مخطئة . ماذا امرتك به ؟ لقـد اخبرتك – وقد اسفت لانني آلمتك – انني لا استطيع ان اجيب طلبك ولا استطيع ان اقبل هبتك .

– نعم ولكنك قلت هذا القول خشية الجواسيس والرقباء ثم قلت شيئاً آخر بعدها فأخبرتني انك ... انك تهواني وامرتني ان اعد كل شيء كما اعددته الان ...

فقاطعتها قائلا :

– متى ؟ وكيف ؟ .

جاء اذ ذاك دور دهشتها فقالت :

تقول متى وكيف ! يا الهي ! في اوراق الرق التي ارسلتها الي .

ثم اتقد غضبها فجأة واخرجت من طيات ثيابها بضعة ملفات صغيرة مربوطة بخيوط حريرية ثم قالت:

– اخبرني هل ارسلت الي هذه الاوراق ؟ .

ساد سكون رهيب بيننا فنظرت الى الاوراق ولم البث ان ثار غضبي لانها لم تكن مكتوبة بخطي بل بخط رجل آخر ولكنها تدل على انها مرسلة مني في حين جاء ببعضها عبارات يستخدمها العاشقون .

اخيراً قلت متلعثما :

– هناك سوء تفاهم، لم اكتب هذه الاوراق اليك ولم ارها قبل الآن ولو انها ممضاة باسمي .

امتقع لونها فجأة وترنحت قليلا وهي واقفة . ومع انها كانت تشدد الضغط على اصابعها فقد كانت يداها ترتعدان مثل ريشة في مهب الريح .

قالت الفتاة بصوت مبحوح متوتر :

وهذا ؟ الم ترسل الي هذا على يد رسول امين برهانا على حبك .

ثم وضعت أمام عيني ذاك الخاتم المصنوع من الياقوت وهو الخاتم الذي أمر فرعون بصنعه والذي أعطيته لساست كسلطة تخوله القيام بشئوني .

صرخت فجأة قائلا :

– ساست ! ان ساست هو الذي فعل ذلك وهو يـدس الدسائس ويضـع الخطط دون معرفتي انه خدعني بدافع اخلاصه المقوت لي . ويحي من غبي ابله لم افقه الى عمله من قبل . ان له غاية واحدة يستخف بكل غاية سواها . أقول وحق المعبود « رع » ان هذا اكثر مما يجب . لقد أمرته ان يطلعك على الحقيقة بعد ان كذب عليك اول مرة وان يخبرك ... يخبرك انني لا احبب ...

– فقاطعتني مشيرة الى الاوراق والخاتم وكنت وضعتها على المنضدة .

– اذن كل هذا ... كل هذا كذب وخداع ؟ .

– الم ارسل اليك هذه الاشياء ولم اوص احداً بارسالها اليك .

– ثم لا تحبني ولا تهواني ؟ .

– أنا ... اواه يا تنزو . ولا اريد ان افوه بهـذه الاشيـاء . انني بريء في المسألة مثلك .. وسأعاقبه عقابا شديداً .

كررت قولها بصوت مضطرب لهفة تنطوي على القنوط قائلة :

– انك لا تهواني ولا تحبني ؟ .

فقلت برقة وقد حولت رأسي عنها :

– انا ... انا ... كلا لا احبك . ولعمري لم يتغير شيء مما أخبرتك بـه تلك الليلة .

اتقدت وجنتاها فجأة ثم امتنعتا كما كانتا ثم تأوهت تأوهاً طويلا وسكتت . على انها لم تلبث ان خاطبتني بحدة قائلة :

– اعلم أي رعمسيس انك لن تصير فرعون مصر ولو انك امير ، نعم انت الذي تظن انك تستطيع انت وأتباعك السفلاء – ان تعبث بقلب المرأة على هذه الحال . ان هذا هو الحال دائماً : ان الرجال لا يفكرون الا بأنفسهم فقط اما حب المرأة فليس الا ألعوبة يلعب بها ثم تنبذ جانباً . تسلية ساعة . لقد ارتكبت أي رعمسيس هذه الليلة اسوأ غلطة ارتكبتها في حياتك وستكون السبب في القضاء عليك – نعم في القضاء عليك .

ثم أسرعت في كلامها قائلة :

– لم تفلت الفرصة بعد من يدي لحل ما ربطته . انني امقتك الان وأيم الحق وسأبغضك مدى الحياة ولن انسى او اصفح . ستعرف كيف يمزق قلبك كما مزق قلبي لانني سأبحث عن تلك المغنية الصغيرة التي تهواها في الهيكل . لم تعرف بعد من هي التي تجرأت لاجلها على اغضاب آمون . ولو انهم سيبحثون الليلة عنها بحيلة ومكر . ولكن اعلم انني انا المرأة الضعيفة التي تحتقرها سأنجح حيث فشل الكهنة وعندها يكون لي الانتقام – الانتقام الحلو – اروع انتقام يمكن تصوره – ولو انك تزعم في غرور ان في وسعك ان تلقي اعظم هبة في حمأة .

اختطفت تنزو الخاتم والاوراق ثم نظرت الي بعينيها المتقدتين نظرة احتقار وغضب ملؤه الغيرة ثم هرعت من الغرفة .

على انني سمعتها تنتحب على اثر سقوط الستارة وراءها ..

وقفت جامداً في مكاني بضع دقائق ورأسي يدور من تأثير كلماتها السريعة الشديدة عندما أدركت كل ما جرى .

اخيراً ثار غضبي فصرخت مناديا عبيدي وأمرت احدهم ليستدعي ساست .

لم يكد الساحر يخطو اول خطوة داخل الغرفة حتى سلقته بلسان حاد

ورميته بكل نقيصة واقسمت ان اطرده من المدينة ان لم آمر بقتله قبلها لانني فوق غضبي من غشه حزنت ايضاً اكراماً لتنزو التي اصابهـا ما اصابها في هذا الامر اكثر مما اصابني .

وكان ساست يصغي الى اقوالي كلها صاغراً الى ان لزمت الصمت اعيـاء فاجابني عندها قائلا :

اقتلني اذا شئت أي فرعون ابن الشمس المقدس فانني خادمك دائماً ولكن اجبني على سؤال واحد فقط قبل ان تدفن خنجرك في صـدري واتوسل اليك بحق حياتك ، حياة فرعون ان تجيبني على سؤالي بصدق واخلاص .

ثم جثا ساست امامي على ركبتيه ثم استطرد في كلامه فقال :

ان اليمين التي اقسمتها في منف يحتم عليك ان تضـع مصر قبل كل شيء « قبل كل فخر وراحة ورغبة ، قبل حب كل رجل وكل امرأة ، قبل الهنـاء ، قبل السلامة ، قبل الحياة نفسها » . لقد ارتسمت امامك طريق لمساعدة مصر ولكنك وضعت الفخر والرغبة — حب المرأة اولا . الامر الذي لم ارتكبه انا الى هنا في مساعي التي بذلتها لاصلاح اغلاطك. الان اخبرني أي فرعون بحق المعبود بتاح الاعظم : من منا الذي يستحق اللوم اكثر من غيره ، انت الذي لم تفعل ما أقسمت به ام أنا الذي لا يربطني قسم والذي حاولت على كل حال ان أحقق غرضنا بكل وسيلة لدى .

وبينما كنت أفكر في كلماته خف غضبي قليـلا وحل مـكانه الخجـل لان ساست اصاب كبد الحقيقة فيما قال . وفي الواقع لم ألبث ان رفعت يدي فوق رأسي واخذت اصلي واتوسل بصوت عال قائلا :

— أيها المعبود العظيم بتاح ، الاله المقدس يا من تنازلت وخاطبتني مرة . ساعدني من الان فصاعداً لكي احرص على تلك اليمين التي اقسمتها امامك لقد

أخطأت : اريتني طريقا فرفضتها والآن سدت في وجهي ساعدني ايها المعبود العظيم لكي اسلك الطريق التي تريني اياها بعد الان مهما كان الثمن اصفح عني يا خالق الجميع واتوسل اليك ان تسامحني .

وقفت هنيهة صامتاً متوقعاً علامة على الصفح والغفران فوقع نظري على ساست وكان لا يزال جاثيا عند قدمي وهكذا ظهرت العلامة الى جانبي مباشرة .

خاطبت ساست قائلا :

ـ لقد صفحت عنك يا ساست . قم . لن اخبرك بشيء يتعلق بهذا الامر فيما بعد .

وقف ساست على قدميه ببطء ثم قال :

ـ لقد خاطبك بتاح أي فرعون في قلبه بمثل ما خاطبني به ان هذا جواب صلاتك .

ثم قدم الي فروض الطاعة وغادر الغرفة .

٢١

جلست وحيداً مدة افكر في كل ما جرى وما كان الى ان تجسمت فكرتان جليتان في عقلي وهما : اولا ان تنزو تكلمت عن الانتقام ، والانتقام من طريق نح — تل — كا التي لم تعرفها الى الان وثانياً قولها : « ولو انهم يبحثون عنها الليلة » .

اقلقت فكري هاتان النقطتان من نحو نح — تـل - كا فقلت : هـل اخذ كهنة آمون يبحثون عنها يا ترى ؟ لقد قالت تنزو ذلك الان كما قاله اوسر من قبل عندمـا كان يحاول صب تلك اللعنة عـلى رأسي وقال ساست ايضاً انهم سيحاولون القيام بهذا العمل بلا مراء .

نعم اعلم ان نح — تل — كا لا تزال في سلام لانني رأيتها في الهيكل عندما زرت المحنطين صباح اليوم ولكن هل لم يقبضوا عليها الى الان ؟ لعمري تكون الطامة الكبرى اذا استطاعوا معرفة التي يعرفون انني اهواها وزرتها سراً من قبل فقد يستخدمونها لهلاكي كشاهدة ثم يحاكمونني بتهمة انتهاك حرمة ما هو مقـدس . والادهى من ذلـك انهم قـد يؤذون الفتاة في تلك الغرف السريـة بتحريض تنزو التي تتأجج في صدرها نيران البغضاء والغيرة ، فيعذبونها او يقومون بأي عمل يرغمني على الاذعان لارادتهم بدافع هواي وحبي لها .

غلى دمي في عروقي . ما الذي حمل تنزو عـلى هـذا القول يا ترى ؟ وماذا يفعلون – ربما في هذه الساعة ؟ مهما يكن الامر فانني لا استطيع مساعدتها .

هذا ما جال بخاطري وقد تولاني اليأس والقنوط وانا اتنقل بحالة جنون من غرفة الى اخرى واعين العبيد تحدق النظر الي دهشة .

ثم ليس في وسعي ان اذهب اليها بطريق النفق ، ولا استطيع ان اتسلق الاسوار، ولا استطيع الوصول الى مقصورات الهيكل باية طريقة الا الى القيمان والافنيـة حيث اكون بعيـداً عنهـا مثـلي الان . واذا فرض وكان في وسعي الوصول اليها فماذا أفعل ؟ واأسفاه ان الوقت قد مضى بحيث لا استطيع حملها في هذه الساعة من الليل كما فكرت بذلك من قبل، لانه لا بد من التكتم وهي ليست وحيدة الان . ان اقرب وقت استطيع القيام فيه بهذا العمل هو مساء الغد عندما تسير ثانية في حديقة الهيكل . ومع ذلك الليلة ... يجب ان اعرف ما يجري في الهيكل الليلة ... آه . ربما استطاع ساست ان يساعدني بحكمته .

صفقت بيدي وأمرت العبيد باستدعاء ساست . وكان غضبي الاخير منه قد ذهب في هذه المشكلة الجديدة وشعرت بحاجة شديدة الى مساعدته .

جاء ساست فسألته ان يسديني النصح وبعد تفكير طويل قال :

– هناك وسيلة واحدة اي فرعون يا من لا تنتهي له حياة تستطيع الذهاب بها الى هيكل آمون ورؤية التي تحبها . ولما كنت قد اغضبتك هذه الليلة فقد عولت على مساعدتك في هذا الامر .

فقلت بابتهاج .

– لقد أحييت املا جديداً في قلبي يا ساست .

هممت باستدعاء العبيد ليأتوني بصولجتي وعباءتي ولكن ساست اوقفني وعلى ثغره ابتسامة قائلا :

– ليس من هذا الطريق يا سيد مصر . انني لا استطيع ان انقلك اليها بالجسم رغم مهارتي السحرية بل يجب ان تذهب اليها بالروح.

لاحظ الساحر مـا ارتسم عـلى وجهي من علامـات الدهشة فاستطرد في حديثه قائلا :

– الا تذكر اذن القوة التي لدي والتي اريتها اياك في منف . انني استطيع بتلك القوة ان اساعدك على رؤية نح – تل – كا امنية قلبك وترى ماذا تفعل في هذه الساعة .. اما مخاطبتها او سماع صوتها او لمسها فلا استطيع ذلك فهل ترضى بهذا ام لا ؟

فأجبته قائلا :

– ان اقل شيء خير من هذه الحيرة . فقط احذر من سحرك يا ساست مخافة ان يتبين انه فوق طاقتنا .

فضحك الساحر وقال :

– لا يصيبني اذى من سحري ولو انني اذكر ان بعضهم اخبرني ان ساحراً آخر مسه اذى بسبب سحره . ولكن تعال . اتبعني .

سار ساست امامي الى غرفـة سرية صغيرة في برج شيد فوق احـد الافنية الداخلية .

وكان في سقف هذه الغرفة كوات نحو السماء ثم رأيت طاولات عليها آلات عديدة وكرة كبيرة من البللور وصوراً مرسومة على الجدران وخرطا تبين حركات الشمس والاجرام السماوية مثل التي تعلمتها في منف .

وبينما كنت انظر الى هذه الاشياء كان ساست يعد سحره في خلوة صغيرة مخفية على انه عاد في الحال وامرني ان اجلس امام الطاولة .

جلست وجلس الساحر مقابلي ثم وضع اناءاً كبيراً من النحاس مملوءاً بالماء

امامي . وكان الى جانبه مبخرة طويلة وضع فيها بعض قطع من الفحم المتقد ثم رسم خطوطاً حولنا على ارض الغرفة وامرني ان أخلي افكاري من كل شيء عدا التي اهواها وبعدها اخذ يصلي بصوت مرتفع ويلقي تراتيل وتعويذات بتلك اللغة القديمة الغريبة التي كانوا يتكلمون بها فيما مضى وقد وضع حولها سياج لكي لا يفهمها احد .

سكت الساحر بعد هنيهة ثم القى شيئاً في المبخرة التي بجانبه فامتلأت الغرفة عندها بدخان اصفر زكي الرائحة .

قال ساست :

– انظر في عيني اي رعمسيس ملك مصر .

نظرت الى اعماق عينيه الغريبتين وكان يلوح بيديه امام وجهي في حين كانت رائحة الدخان الزكية تملأ جسمي شيئاً فشيئاً الى ان خيل الي ان جسمي صار خفيفا كالهواء .

سألني ساست قائلا :

– من تريد رؤيته :

فأجبته بصوت غريب لا يشبه صوتي قائلا :

– أريد رؤية نح – تل – كا احدى كاهنات آمون في مدينة نيامون .

فهت بهذه الكلمات مكرها بحيث لو اردت ان اقول غيرها لما استطعت . وفي الواقع خيل الي ان روحا اخرى كانت تتكلم على لساني .

قال ساست :

– انظر الى وعاء الماء الموضوع امامك .

نظرت فرأيت ان المــاء الذي كان صافيــاً متبلوراً تحول الى لون دموي ثم تحول اللون الاحمر الى لون قرمزي والقرمزي الى ازرق ثم رأيت أمواجاً وسحباً غريبة تمر من فوق سطح الماء – الى ان ظهر في النهاية مشهد يدل على الحياة تجلى بوضوح في الماء .

رأيت دهليزاً طويلا مضاء بمصابيح ، يؤدي الى غرف عديدة علمت انه لا بد ان يكون دهليز من الدهاليز التي تجري تحت هيكل آمون العظيم . وكان يسير في هذا الدهليز صف من الكاهنات بثيابهن البيضاء ومع انني حاولت ان اتفرس في وجوههن فانني لم أستطع رؤية التي أبحث عنها لأنه كان يخيل الي أحياناً ان سحابة غريبة معلقة في الهواء .

وقفت الكاهنات اخيراً امام باب مقوس نحت فوقه تمثال « مآت » الهة الحقيقة برموزها المقدســة فخرج من هــذا الباب جماعــة من الكهنة – لانني عرفت سورفاست بينهم – وكانوا يرتدون ثيابهم الكهنوتية . والظاهر انهم كانوا يخاطبون الكاهنات والعذارى الاخريات في الهيكل لانني رأيت شفاههم تتحرك ولو انني لم استطع ان اسمع ما يقولون .

سارت الكاهنة الاولى بعد ذلك مع الكهنة وتقدمت الى الامام مجتازة هذا الباب المقوس . وكانت تعود بعد قليل لتتلوها أخرى .

وبينما كان هــذا يجري نظرت فيما حــولي فرأيت شخص ساست واقفــاً في زاوية من الدهليز . ثم ماذا ! رأيت نفسي واقفاً الى جانبه دون ان يرانا احد وفي الواقع مرت احدى العذارى من المكان الذي كنا واقفين فيه فأدركت لدهشتي اننا لسنا منظورين – او ان روحينا هما اللتان كانتا واقفتين هناك .

اضطربت حواسي فجأة وترددت انفاسي في صدري . وقد اردت ان اصيح فرحاً لو استطعت اذ رأيت في طرف صف الكاهنات نح – تل – كا وهي واقفة شاحبة الوجه – ومع ذلك كانت هي الفتاة بملاحتها النقية الفتانة .

لم تتحول عيناي عن عينيها وهي تبدو قريبة مني عـلى هـذه الحال ولو انها كانت بعيدة عني وكدت ابتلعها بعيني الجشعتين .. وبينا كان صف الكاهنات يقترب من الباب المقوس شيئاً فشيئاً رأيت عينيها لا تتحولان عن النظر الى الزاوية التي كنا واقفين فيها وقد بدت في عينيها علامات الدهشة والحيرة كأنها ترانا . على انها لم تبد اشارة عندما ابتسمت لها ولو انها كانت تشعر بوجودي في قلبها على ما اعتقد .

اخيراً وقفت نح – تل – كا امام الباب وهي تضطرب من تأثير عاطفة قوية ولما عادت العذراء التي تقدمتها وجاء دورها دخلت انا وساست معها أيضاً

وجدنا أنفسنا داخل مقصورة صغيرة مزينة زينة بديعة ، اعدت « لمآت » آلهة الحقيقة والعدالة ، بداخلها مذبح صغير من الحجر عليه بعض رموز مقدسة . وكان حرحور واقفاً الى احد جانبي المذبح واوسر وغيره من الكهنة في الجانب الاخر في حين كان الكتبة يدونون على الواحهم في المؤخرة .

تفرس الجميع اولا في وجه نح – تل – كا الشاحب ثم رفع حرحور يديه الى تمثال مآت المقدسة واخذ يلقي على ما يظهر قسما للفتاة .

وقفت شفتا حرحور اخيراً عن التحرك فأحدق الجميع النظر الى الفتاة وهي واقفة امامهم بثوبها الابيض . وقد حاولت الكلام مرتين ولكنها لم تستطع وبعدها وضعت يدها على الرموز التي امامها واقسمت بشفتين متقعتين تلك اليمين التي القاها عليها حرحور في حين كان الكتبة يدونون كلماتها .

تولاني العجب الشديد ولم ادر مـا تلك اليمين ومـا معنى كل ذلك – وبينا كنت حائراً في عجبي اذ أخذت الغرفة ومـا بهـا تتلاشى ببطء وتبدو مكانهـا سحب حجبت جميع المشهد عن ناظري .

ألقيت نظرة واحدة على نح . تل . كا وهي ذاهبة الى الباب وعلى شبح ساست وهو واقف في الظل . ومن الغريب انني رأيته في هذه المرة وحيداً ولم

ار شبحي بجانبه .. اخيراً وجدت نفسي أحدق النظر الى وعاء الماء وكان سطحه يتحرك بقوة سرية .

فركت عيني دهشة وامسكت رأسي – وكان يؤلمني ألماً شديداً – بين يدي وكان ساست جالساً مقابلي مغمض العينين جامد الجسم فناديته باسمه .

ارتعدت أجفان ساست بعد هنيهة ثم نظر الي وعلى فمه ابتسامة وقال :

– ان روحك ضعيفة اي فرعون فقد اخذت تفكر بامور اخرى ولذا تركتني وحيداً هناك .

فسألته وقد تولاني العجب .

– كيف وقع ذلك ؟ هل رأيت حقاً ، او هل كنت في منام ؟ فقال الساحر :

– كلا لقد رأيت حقاً او على الاقل رأت روحك « كا » وهو شيء واحد لانها تخبرك بكل شيء عند عودتها ولكن بقيت روحي « كا » في النهاية وحدها لانك كما قلت سمحت لافكارك بالتجول .

مكثت بضع دقائق لا استطيع التفوه بكلمة ، اخيراً سألته قائلا :

– ما معنى كل ذلك ؟ هل تظن انهم عرفوها ؟

– كلا . هدىء بالك . اظن انها ليست في خطر الى الآن – الى حد ما سمعت .

– هل استطعت ان تسمع شيئاً اذن ؟ انني لم استطع . ما هو القسم الذي القاه حرحور على الكاهنات الواحدة بعد الاخرى !

في وسعي ان اسمع ما لا يستطيع سماعه آخرون ، كما انني استطيع الذهاب الى حيث لا يستطيع آخرون – ولكن لا يجوز لي ان اتكلم بعد عودتي وعلى

كل حـال ثق انهـا في سلام الان . خير لك ان تطلب الراحة الان اي فرعون لانك لا تستطيع وأنت غير متعود ان ترسل روحك « كا » الى رحلة دون ان يتحمل جسمك شيئاً من التعب .

وفي الواقع شعرت بدوار شديد في رأسي وألم في عيني ورغبة شديدة في النوم وعلى ذلك شكرتك عـلى تخفيف مخاوفي بهذه الحال وذهبت الى غرفتي .

على انني بينما كنت اتأهب للنوم بمساعدة عبيدي فكرت طويلا في الامر واقسمت يمينا مغلظة ان لا ادع نح . تل . كا بعد الان في ايدي الكهنة ولو اخبرني ساست انها في سلام وكذا لم أر في اختطافها ما يخالف قسمي كما قررت ذلك في نفسي اليوم وعولت عليه من قبل – على شرط ان يتم ذلك دون ان يكتشف امري احد .

كان تتويجي ملكا على البلاد أمراً محققاً بعد ثلاثة ايام ففي وسعي بلا مراء ان اكتم الامر هذه المدة الوجيزة . ولمـا كنت قـد فقدت ما عرضته علي تنزو ففي وسعي ان أحب نح . تل . كا دون ان يمس قسمي شيء ، هذا ما لم يأت احد آخر ويعرض علي ما يماثل ما عرضته علي ابنة حرحور .

وعلى ذلك نمت في فراشي وأخذت احلم بمساء الغد عندما احمل حبيبتي من حديقة الهيكل وأجلسها الى جانبي على عرش مصر الى الابد .

٢٠

لم استطع ان اتفرغ في اليوم التالي كله الى شيء ما، اللهم الا ما استقر عليه رأيي في الليلة الماضية، فكانت نفسي تتوق الى القيام بتلك الخطوة العظيمة التي يتوقف عليها كل مستقبل سعادتي . وفي الواقع خيل الي ان واجباتي واعمالي اثناء النهار – وهي اصدار اوامر تتعلق بتشييع جنازة والدي فرعون في اليوم التالي بمظاهر الابهة المعتادة – كانت مثل ظلال غامضة يتجول في وسطها على غير هدى شخص كان انا نفسي ولكن لم يكن مع ذلك انا .

ولا عجب فكم تاقت نفسي الى انقضاء النهار وحلول الوقت الذي اشرع فيه بوضع الخطط اللازمة لتنفيذ مشروعي . ولعمري لم اهتم بانذارات ساست لي اثناء تناول طعام الظهر وقوله ان اتوخى الحذر غداً لان السكان مضطربو الفكر من نحو النبوة التي اذيعت وواثقون من ان آمون سيعطي اشارة للقبول او الرفض .

استطرد الساحر في حديثه قائلا :

– انك تعرف ماهية عقل الشعب وتعلم انهم يعتقدون ان كل شيء اشارة فاخشى ان يتحول الجميع ضدك عدا المخلصين لك . اتوسل اليك ان تكون على حذر أي فرعون فلا تعطي انت اشارة بغلطة ترتكبها او بكلمات سيئة

تفوه بها ولنتوسل الى الالهة ان لا تحجب السحب اشعة آمون لانني كنت استطيع ان اقول ان هذا امر طبيعي فان بعض الناس يعــــدون ذلــك علامة على انني اخشى ان يكون الامر خدعة دبرها حرحور او اوسر .

تذكرت ما قالته نح . تل . كا عن محاولات اوسر فقلت بغضب .

– ارجو ان التقي باوسر في حومة الوغى لكي اسقيه الردى فلا ...

فقاطعني ساست ببطء قائلا :

– كلا . ان اوسر لا يموت على يديك واظن انه سيموت بسحره كما اوحي الي تلك الليلة وكذا لا اعمر طويلا بعده كما اوحي اليه بلا ريب كذلك . عــلى انني اتوسل اليك ايها المليك ان تتوخى الحذر مخافة ان ...

فقاطعته قائلا :

– انني اعرف . اني اعرف . سأتوخى الحذر بلا ريب ... الان هل لك ان ترسل الي امينمحعت وخوبو قائد الحرس لأنني اريد مخاطبتهما .

لما مثل الرجلان بين يــدي أخيراً شرحت لهما مــا انوي عمــله وكيف انني عولت على اختطاف نح . تل . كا عنوة هذه الليلة ثم امرتهما ان يعدا رجالا امناء من الجنود والعبيد مع الفؤوس والمعاول لكي يحفروا حــول مدخل النفق الحجري وان يتوخوا الكتمان ما استطاعوا فلا يذاع من امرنا شيء حتى اتوج في سلام .

لم يقل خوتو قــائد الحرس شيئاً غير الاذعــان لاوامري . أمــا امينمحعت فضحك بابتهاج وقال:

– لعمري ان قلبك مثل قلبي بصرف النظر عمــا يقوله شقيقي ساست بارد القلب ، ولو انه مما يرثى له انك لم تفعل هذا منذ البداية ولم تقل « نعم » لتنزو كذلك .

على انه انتقل الى موضوع آخر قائلا :

– بيد انني لا اقول شيئاً آخر يتعلق بهذا الامر . لقـد سمعت اوامرك أي فرعون منبع حياتنا وسأطيع . انني معجب بروحك فلا اعارضك في شيء لأنني أراك عاشقاً ولهاناً . وجدت ليلة امس هنا في القصر فتـاة أرادت . . .

على انني قطعت عليه الحـديث لأنني رأيت بالاختبار ان قصصه الغرامية طويلة ثم أمرتها ان يقابلاني قبل غروب الشمس بساعتين ومعها كل شيء معـد وبعدها ذهبت لاستريح اذ رأيت ان امامي شيئاً كثيرا من الافراح والاتراح .

ذهبنا في الساعة المعينة للقيام بمهمتنا وكنا اثني عشر رجلا – انا وامينمحعت وخوتو واربعة من الزنوج الغلاظ مع الفؤوس والمعاول وخمسة من الجنـود ممن اشتهروا بضرب السيف .

وضعت الجنود عند وصولنا في الاحراج وحولها ثم أمرت العبيد ان يحفروا حول الحجر وهي مهمة تبين فيما بعد انها شاقة نظراً لجذوع الاشجار .

كشف العبيد بعد اشتغال ساعة بطانة الاخشاب التي تغشي جدران النفق ولم تمض بضع دقائق اخرى حتى ظهرت امامنا فتحة تسع الرجل . وكان ضوء الغروب لا يزال ينير قاع النفق فرأيت لطخة سوداء حيث كانت جثـة ميناس ملقاة منذ ثلاثة شهور تقريباً فتألمت نفسي لهذه الذكرى المحزنة .

اوقدت بعد ذلك مصباحاً ثم ناديت جنديين ودخلنا نحن الخمسة النفق من الفتحة ثم سرنا بلا خوف ولا وجل واثقين ان الكهنة لا يرتابون في اننا اجتزنا النفق على هذه الحال ومع ذلك اضطرب جسمي خوفاً عند ما توصلت الى تلك البقعة المروعة التي قاتلت كهنة آمون فيها دفاعاً عن نفسي في الظلام .

وضعت احد الجنود عند المدخل السري الى الدهليز الذي هربت منه في تلك الليلة لكي لا يباغتنا احـد مرة اخرى ثـم وضعت الجندي الآخر في

منتصف درجات السلم لانذارنا وبعدها وصلنا الى الحديقة فاخفيت امينمحمت وخوتو خلف بعض شجيرات قريبة وامرتهما ان يكونا على استعداد للقدوم والقبض على الفتاة وحملها الى النفق عند اول اشارة معينة تبدر مني .

ولما فرغت من ذلك اختفيت وراء سياج طويل من الازهار واخذت اترقب مجيء نح . تل . كا لانني كنت واثقاً في قلبي انها لا تزال تمشي كل ليلة الى ذاك الكوخ الصغير منفردة حيث تمتعنا بقابلاتنا الماضية السعيدة .

بقيت منتظراً على هذه الحال الى ان شعرت في النهاية بخفيف ثوبها الابيض بين الشجيرات والازهار وهي تتقدم رويداً رويداً الى ان صارت على مسافة خطوات قليلة مني فرأيت مرة اخرى ان نح. تل . كا جميلة كما كانت ولكنها كانت شاحبة الوجه من تأثير اضطراب فكري كما رأيتها في المقام السحري ليلة امس تماماً .

ناديتها بصوت مبحوح قائلا :

— نح . تل . كا .

ثم وقفت من وراء الشجيرات في حين كان قلبي يدق بشدة بحيث كاد يخترق اضلاعي ابتهاجاً برؤية وجهها ثانية .

احدقت الفتاة الي النظر دهشة ثم وضعت يدها على صدرها وترنحت وكادت تسقط على الارض لو لم اقفز وامسكها بين ذراعي .

بقيت الفتاة لحظة كاملة ساكنة بين ذراعي وعيناها السابلتان مملوءتان فرحاً ودهشة في حين كنت ادللها بمس جدائل شعرها الناعم الطويل .

اخيراً رفعت الفتاة يدها ببطء وجست وجهي لكي تتحقق على ما يظهر من انني انا ولست روحاً ثم جذبت رأسي بلطف الى رأسها وقبلتني قبلة حلوة لذيذة على شفتي وانا اضم قوامها الجميل الى صدري .

اخذت نح . تل . كا تتمتم قائلة :

– اي رعمسيس حبيبي وحياتي ! هـل انت ... انت حقـاً . . هنـا ... تضمني الى صدرك او هل ما ارى ليس الا اضغاث احلام كاحلامي التي رأيتهـا مراراً في خلال هذه الاشهر الاخيرة ؟ .

– نعم انا هو يا حياتي ، انني انا حبيبك .

– آه . شكراً لك ايها المعبود آمون على رحمتك بي انا التي اخطأت اليك . اواه لم اخاطبك أي رعمسيس منذ تلك الليلة المروعة التي صليت فيهـا لاجلك بحرارة .

– نعم لقد ساعدتني صلواتك ايتها الحبيبة .

ثم اخذت في الحال اقص عليها ماجرى وكيف خيل الي ان صوتها يخاطبني ويرشدني الى الطريق التي يجب ان اسلكها .

اصغت الفتاة الى قولي بدهشة وكذا سمعت قصتي عن لعنة اوسر ومـا تلا ذلك وكانت سمعت بمعظمه على لسان الكهنة . اخيراً سألتني قائلة :

– كيف اذن جئت الى هنا ؟ .

فلما اخبرتها امتقع وجهها استياء وقالت :

– اذن لاتستطيع المجيء الى هنا ثانية لانهم يفحصون المـدخل والدهليز كل ليلة . ولعمري زعمت انك اكتشفت طريقاً جديدة .

فهززت رأسي وقلت :

– لم تعد في حاجة الى شيء من ذلك .

– ولم لا ؟ .

– لانني لا اذهب من هنا ايتها الصغيرة الا بك . ايتها الحبيبة نح تل . كا اتوسل اليك الآن كما توسلت اليك مرة ان تأتي معي بعيداً عن كل ذلك ، لم اعد اميراً مزعزع الحق بل انا فرعون مصر الآن او سأكون ملك البلاد الحقيقي في غداة دفن أبي أي بعد غد . تعالي معي وشاطريني عرشي وفوزي وانتصاراتي . ان كل ما امتلك من ثروة وسلطة وجاه وما فعلته في هذا العالم وما اناضل لاجله والغاية التي ارمي اليها – كل ذلك بدونك ليس الا وعاءاً فارغاً منقوشاً ولكنه وعاء في وسعك يا نح . تل . كا . ان تملئيه الى حافته بخمرة الحب . انك حياتي الحقيقية الوحيدة . أنت كنزي ،انت هنائي انت سعادتي في الحياة . لا استطيع الحياة بدونك وهذه الحقيقة لم ادركها الا بعد ان حالت بيني وبينك يد النوى . القي كل شيء جانباً . ان الحب اعظم سلطان في العالم لان مملكة الحب في كل قلب . قولي كلمة يا نح . تل . كا قولي كلمة صغيرة . قولي انك ستأتي معي .

فهزت الفتاة رأسها ببطء ولكن عينيها كانتا مغرورقتين بالدموع .

سألتها بتألم قائلا :

– الا تحبينني اذاً ؟ .

رفعت رأسها ونظرت الي بعينيها الساحرتين لحظة فنظرت الى اعماقها فرأيت ما اخجلني فقلت :

– اذن لماذا لا تريدين المجيء معي ؟ .

– السبب اي رعمسيس حبيبي انني احبك حباً لا مدى له بحيث أسبب لك المتاعب وهي حقيقة لا مرية فيها اذا صرت انا الكاهنة المنبوذة زوجتك . ان مركزك ليس ثابتا على رغم قوته امام حرحور وحزبه ، ان عرشك لا يقوى على حملك وحمل فتاة لا يجري في عروقها دم الملوك فتاة نقضت عهود آمون بل يسقط لمجرد لمسة فيهوي بي وبك انت الذي تستطيع الجلوس عليه وحدك آمناً مطمئناً . انني لا اجر عليك غير الحزن الشديد والشقاء .

– ان كل شيء معك يكون سعادة وهناء .

– هذا ما يقوله الانسان دائماً وهو تائه في احلام الحب ولكن الا مندوحة من انتهاء الاحلام وبعدها يأتي عالم الحقيقة فتخرج من دائرة السعادة لتقع اعيننا على صحراء قفراء مجدبة . انني اؤثر ان اكون غير سعيدة واعلم انك سعيد على ان نكون معاً داخل دائرة ضيقة من السعادة الكاذبة . ثم عهدي ...

– ستتغير افكارك ايتها الحبيبة متى صرت داخل القصر . اما عهدك فلا تكونين أنت التي نقضته .

– كيف ذلك ؟ .

– لأنني انا الذي سأنقضه . اعلمي ايتها الحسناء وسيدة العذارى ان لدي هنا قائدين سينقضان عليك عند اول اشارة ويحملانك الى الخارج – الى الحرية ، الى السعادة، الى الحب ، وسواء رضيت او لم ترضي فانك لا تستطيعين المقاومة .

انسلت الفتاة من بين ذراعي ببطء ونظرت الي دهشة وقالت :

– رعمسيس ؟ انك لا تجرأ على مثل هذا العمل .

فاجبتها بصوت مبحوح من شدة الشوق والوجد قائلا :

– نعم ، نعم أجرأ على اغضاب جميع الالهة الابدية لاجلك . اقول لك انك لا تعرفين افكاري ولكنها ستعلن لك .

ثم رفعت يدي لاعطي الاشارة لانني صممت – مهما قالت – على ان تأتي الليلة معي ، مكرهة أو مختارة ، الى القصر .

على ان الفتاة هرعت الى الامام وتعلقت بيدي وقالت :

– كلا يا رعمسيس . كلا . اتوسل اليك ان لا تفعل ذلك : اتعتقد حقا انني لا اعرف افكاري ؟ .

فقلت بغضب :

– نعم . أية امرأة عرفت افكارها ؟ انك لا تعرفين هل تحبينني اكثر من العهود والمواثيق .

فاتقدت عينا الفتاة وصاحت قائلة :

– انني احب العهود والمواثيق اكثر من نفسي ومن سعادتي ولكني احبك فوق كل عهد وقسم ومعبود .

– ومع ذلك لا تنقضين هذا العهد .

– اواه يا لك من رجل ابله ! من اين لك ان تعرف حب المرأة انت الذي لا تعرف غير حب الرجل ؟ ان حب المرأة لا يسعى وراء السعادة . انها تمنح السعادة وتبتهج بمنحها وفي ذلك تنال جزاءها .

– اذن امنحيني هذه السعادة يا نح . تل . كا وتعالي معي .

– انني اود المجيء معك بابتهاج ما دمت تريدني وتعد كل ساعة نقضيها معاً من اسعد أوقات الحياة لان الحب لا يعرف قيوداً الا قيـوده ، واذا كان الحب صادقاً كانت قيوده اقوى قيود في العالم . ولكن اذا كان قدومي سيجلب لي السعادة انا التي اعيش لاجلك دون سواك فان نقض هـذا القسم لا يجلب لـك سعادة ولا هناء بل الشقاء . وعلى ذلك فـالامر اذن يتعلق بيميني وسعـادتي لا بيميني وبك – وعلى ذلك يجب ان احافظ على يميني ومواثقي .

فصرخت بغضب قائلا :

– مواثيق . مواثيق . من اكون بجانب عهدك .

فهدأت الفتاة فجأة وقالت :

– لم اشأ ان اخبرك اما الان فلا بد من التكلم ... كلا لا تقطع علي حديثي

بل دعني اتكلم .اعلم ان الكهنة مكثوا اياماً طويلة يبحثون بين الكاهنات عن الفتاة التي تهواها لكي يمدوا اليك يد الاذى من طريقها . وقد علمنا صباح امس ان جميع الكاهنات سيقسمن قسما رهيبا على الرموز المقدسة للمعبود « مآت » آلهة الحقيقة والعدالة . اما القسم فهو اننا لم نتحدث معك وانه ليس بيننا من تحبك . ارادوا بهذه الوسيلة معرفة المذنبة واثقين ان كاهنات آمون لا يحنثن في ايمانهن . وقد وعدوا ايضاً أن لايمسوا من تعترف باذى لانهم كانوا يريدون الايقاع بك قبل كل شيء .

فقاطعتها بصوت متوتر قائلا :

— ومتى يفعلون ذلك ؟ .

ثم لم ألبث ان ذكرت فجأة المشهد السحري الذي اراني اياه ساست ــ صف الكاهنات حرحور والقسم ، ثم هيكل المعبود « مآت » .

— لقد فعلوا ذلك ليلة امس . وقــد أقسمت ، انا التي تقــول ان المواثيق والعهود اعظم منك لدي ، وحلفت بحرمة الرموز المقدسة امام الجميع انني لم اتحدث معك وانني — وهنا انخفض صوتها حتى صار همساً — وانني لا أحبك .

ساد السكون بيننا هنيهة عادت الفتاة بعدها الى الكلام فقالت:

—يا لك يا رعمسيس من رجل غبي اعمى انظر الان قيمة اليمين والعهود والمواثيق بالنسبة اليك . انظر . امامك الفتاة التي وقفت على حبك وسعادتك وجرت لاجلك العار والاحزان على نفسها . ثم انظر ايضــاً الى التي تريدك حتى قبــل شرفها ومع ذلك رفضت الذهاب معك اكراماً لسعادتك . انني لا احجم الان عن نقض عهــد آمون نفسه لاجلك اي رعمسيس اذا كان في نقضه فرحــاً لك أشرفا او حياة — ولكن للأسف لا يعطيك عملي هذا شيئاً من ذلك .

عقد لساني فــلم استطع التكلم هنيهة وبعدهــا جثوت على ركبتي امامهــا

وقبلت هدب ثوبها واخذت اتمتم بصوت متقطع قائلا :

– نح . تل . كا ، ايتها المحبوبة . لقد ادركت الان فقط مبلغ حبي لك . يا عجباً ! لقد صار حبي لك نقياً خالياً من كل زغل ولامعاً كالذهب ... ليس في وسعي القيام بهـذا العمل ولا استطيع اخـذك على رغم ارادتك . كلا . لا افعل ذلك ولا اسعى الى عمل شيء من هـذا القبيل الى ان تأتي الي من تلقـاء نفسك . فأشكر بتاح العظيم – نعم وآمـون وازيس ايضاً – لتحول قلبي عن هذا العمل ولكن اواه يا نح . تل . كا ، انني احبك ... انني اهواك ...

فتبسمت الفتاة ووضعت يدها بلطف على رأسي وقالت :

– اعرف ذلك حق المعرفة يا ضياء عيوني . الم تقم البرهـان والدليـل على حبك ؟ سأقضي على حياتي قبل ان ادعهم يعرفونني ويمدون يد الاذى اليك . انني لا اخشى هؤلاء الكهنة ومع ذلك هناك شخص آخر .

فقاطعتها قائلاً :

– من ؟ اوسر ؟

– كلا . انني اخشاه بحـالة اخرى ولسبب آخر . ولـكني اعني بالشخص الآخر تنزو ابنـة حرحور ...

فصحت دهشة ! فقالت :

– ماذا ؟ اتعرفها ؟

فوقفت على قدمي واجبتها قائلاً :

– نعم . واعني بذلك انني رأيتها مرة .

ثم تولتني الحيرة والارتباك لانني لم اذكر كلمة واحدة لها من قبل عن تنزو .

قالت الفتاة ببطء وقد بدا في عينيها نور جديد .

ـ انك لم تخبرني عنها شيئاً ؟

فتمتمت قائلاً :

ـ رأيت ان ذلك ليس بذي بال . ولكن ما شأنها معك ؟

نظرت الفتاة الي هنيهة بحال اضطراب على انها لم تلبث ان عادت الى حالتها الاولى واستطردت في حديثها قائلة :

ـ تكلمت تنزو معي صباح اليوم كما تكلمت مع غيري من الكاهنات في قصر الهيكل وتحدثت عنك كثيراً . ولعمري أشعر بخوف من نحوها لان المرأة تستطيع ان تقرأ قلب غيرها حيث لايستطيع الرجل، ما لم ترد المرأة ان تطلعه على سرها ولذا اخشى ان ... عندما تتكلم عنك .

قطعت كلامها فجأة مرة أخرى ثم ارتدت الى الوراء ونظرت الي قلقاً وسألتني في الحال قائلة :

ـ هل لها علاقة بك ؟

فصحت قائلا :

ـ هل هي ... نح . تل . كا ؟ كيف تقولين مثل هذا القول . لم أخاطبها غير مرتين ولا علاقة لي بها ولم تكن لي علاقة بها ولن تكون .

فتبسمت الفتاة وتقدمت نحوي وقد فتحت ذراعيها فضممتها الى صدري ونسينا كل شيء بين نسيم المساء وسحر القبلات وتدليل جدائل شعرها الاملس الملتصق بخدي ...

أخيراً تنهدت تنهداً عميقاً عالماً انه حان الوقت لذهابي ـ وذهابي وحيداً كما

جئت . ومع انني كنت حزين القلب لفشلي فيما كان قد استقر عليه رأيي فقد كنت مبتهجاً بحالة ما لعلمي انني سلكت الطريق السوي .

تمتمت قائلاً :

ـ سأذهب الآن ايتها الحبيبة .

على انها زادت تشبثاً بي فمكثنا على هذه الحال لحظة اخرى ثم قبلتها ثانية بحنان وسرت بين الشجيرات ونزلت درجات سلم النفق وسرت حتى خرجت الى الاحراج . ولم اذكر ـ حتى وقفت تحت الاشجار ـ انني تركت امينمحعت وخوتو خلفي او انهما هناك . ولما التحقا بي في النهاية هما والجنديان نظرا الي دهشة ولكنهما لم يفوها بكلمة وقد عجبت لذلك لانني كنت اتوقع كلمة من امينمحعت .

وفي الواقع لم يفه امينمحعت بكلمة حتى نزلنا الى البر على الضفة الغربية للنهر اذ قال :

ـ أرى على رغم مهارتي في ميدان الحب انك علمتني درساً هذه الليلة اذ يظهر ان هناك بعض النساء ـ على رغم جهالتي ـ هن اكثر مني ألعوبة في يد الجندي .

٢١

في بكور اليوم التالي ارتديت ثيابي الرسمية بشاراتها ورموزهـا لان هـذا اليوم كان موعد نقل جثة ابي فرعون العظيم من غرف التحنيط السرية في هيكل آمون العظيم في شمال اوبي ثم يعبر بهـا النهر الى « اواس » ومن ثم تحمـل في موكب رسمي الى المقبرة التي أعدت له في « وادي الظلال » ومعها جميع رجال البلاط وحاشيتي والجنود الذين في نيامون ــ وكلهم من انصاري ــ وعدد كبير من الكهنة المرتلين وغيرهم من كهنة الهياكل العديدة في المدينة .

على انني تركتهم ــ على رغم كل هذه الحوادث الخطيرة ــ يساعدونني على ارتداء ثيابي الملكية دون ان اهتم بمـا يجري أمامي . ولا عجب فقـد سبحت روحي بعيداً الى تلك الحـديقة الجميلة وصارت وحيدة مـع حبيبتي التي يظهر وا أسفاه انني لم أضمها الى صدري ثانية .

ومع ان هذه الحفلة كانت الاخيرة في الطقوس الخاصة بجنازة أبي وبعدهـا تأتي روحه « كا » لتراقب جثته في ذلك القبر المظلم الموحش ، ومع انني سأتوج في الغد وتكون لي الغلبة على حرحور الى الابد وأصل الى الغاية التي ناضلت للوصول اليها كل هذه المدة الطويلة ، ومع ان فوزي صار مني على مقربة ــ فقد كان كل ذلك في عيني كاذبا وباطلا وفي الواقع كانت ثروتي وما أتمتع به من قوة

وسلطان وسطوة وجاه من المظاهر الفارغة الخداعة دون ان تكون الفتاة التي احبها قلبي الى جانبي والتي علمت الان انني اعبدهاأكثر من اي وقت مضى .

لم اجد في قلبي غير بارقة أمل واحدة وهي انني اعلم انها لا تزال تحبني ، باقية على عهدي وانها هنا في نيامون على مقربة مني .

صليت ان يحدث شيء ما يحولها نحوي ،وتوسلت بحرارة وبكل ما لدي من قـوة . ولعمري كم كنت اود في تلك اللحظة ان انبذ تاج مصر المزدوج ومـا ينتظرني من جاه وقوة وسلطان لاجلها ولاجل الحب الصادق.

وبينما كنت افكر على هذه الحال اذ دخل عـلي ساست وكانت تبدو عـلى وجهه سيماء القلق فاخبرني ان الاشاعة الخاصة بالعلامة التي سيظهرها آمون اليوم رائجة في المدينة والجميع يعتقدون بها ويؤمنون .

ثم استطرد في حديثه قائلا :

ـ لم استطع ان انزع من ادمغتهم هذا الاعتقاد ولا ريب عندي في ان هناك دسيسة مـا وراءهـا لان كهنة آمون يتحدثون سراً معـاً وأرى عـلى فم اوسر ابتسامة فوز تنطوي على الخبث والخداع . اواه . اتوسل الى الآلهة ان لا يقـع شيء في هذه الساعة الاخيرة لانك ستصير غداً فرعون مصر الحقيقي اذا سار كل شيء في مجراه الحسن . فاحذر يا ابن الشمس من ان تفعل شيئاً بعيداً عن محجة الحكمة والصواب .

على انني لما كنت مرتبك العقـل بأفكاري الخاصة ، شعرت بعدم اهتمام بمـا سيجري واجبته كيفما اتفق . فنظر ساست عندها الي دهشة ثم ذهب ليرتدي ملابسه الرسمية كذلك .

لم اكـترث كثيراً بالطقوس الدينية التي سبقت تأليف مـوكب الجنازة في هيكل آمون وحمل تابوت ابي الكبير واخراجه من غرف التحنيط وفي الواقـع

كانت تراتيل الكهنة ورجال الموسيقى واناشيد الحزن التي كان يرتلها الشعب في الجنازة والثياب الرسمية والاعلام وسير الجنازة الرهيب ببطء وبخطوات ثابتة منظمة - كانت كل هـذه تقع على حواسي كانها مناظر واصوات بعيدة تتراءى لشخص مذهول .

على انني لاحظت - عندما اقتربنا من نهر « سيحور » المقدس حيث اعدت الزوارق المزينة التي ستقل الجثة والمشيعين الى مكان الراحة الابدية - ان عدداً كبيراً من الناس ينظرون الي بحالة غريبة وان كثيراً من الكهنة يحدقون النظر الى هودجي ويتهامسون فيما بينهم وعـلى ذلك رفعت صدري - وقـد ذكرت كلمات ساست - استعداداً للقيام بواجباتي كما يجب .

نزلنـا الى البر عـلى الضفة الغربية فبدأ الموكب يسير في شوارع « اواس » وكان نعش فرعون ابي يسير امامي محمـولا عـلى عربة تجرها ثيران سوداء وقد اسدلت عليها ستائر لامعة . وكان التابوت منقوشاً نقشاً بديعاً من تاريخ الالهة وكتبت عليه جميع القاب ابي رعمسيس - اوزوريس واسمائه .

نظرت طويلا الى الالوان التي كانت تسطع في نور الشمس ولم البث ان قلت في نفسي بحيرة اليس ابي وقد صار الآن من سكان وادي الموت اهدأ بالا - على رغـم اللعنة التي وقعت عليـه - وأسعد حظاً مني انا المعبود الصالح ، فرعون مصر الحالي الذي لم يتوج الى الآن ولم يجلس تمامـاً عـلى عرشه - والادهى من ذلك انا فرعون الذي حالت يد الفراق بيني وبين التي احبها ؟

وكان يسـير خلف النعش رئيس سحرة آمـون وغيره من سحرة المعابـد الاخرى الموجودة في نيامون ثم يليهم حرحور الكاهن الاعظم والاباء المقدسون وكهنة آمون ومآت وخونس والمرتلون . وقـد خيـل الي انني ارى من مـكاني نح - تل - كما وهي سائرة بين الكاهنات وكنت ارقبها من وقت الى آخر كما يرقب البحار النجم المرشد في السماء .

كان امـام التابوت جماعـة من كهنة يحملون الاوعية المقدسة لاولاد هورس الاربعة الذين عهد اليهم بصيانة قلب أبي النبيل وغيره من الاعضاء في حين يمتد امـام هؤلاء صف طويـل من العبيد الذين يحملون « اوشابتي » (وهي تماثيـل صغيرة توسع في القبر لتعمل للروح وهي في العالم الاخر) واسلحة وكراسي ومرايا وادوات موسيقية وأوعية للطبخ وغير ذلك من الادوات التي يحتاج اليها فرعون في آمتي . هـذا غير الطعام والخمر وخواتم من حديـد وفضـة وذهب بكميات كبيرة .

وكان امام هؤلاء — خلف العلم وقرص آمون ذي الاجنحة حامي المدينة العظيم - كهنة آخرون يحملون ملفات عن يوم الموت وحشرات لويس وغيرها من الاوراق التي توضع في القبر في حين كان الكهنة والمرتلون ينشدون مـع الآلات الموسيقية من هذه الاوراق المقدسة بصوت عال .

وكانت اشعة شمس الاله المعبود آمون — رع الابدي القوي الذي يعطي الحياة وينزعها - يسطع على هذا المشهد الرهيب ، مشهد الموت والحياة ، وعلى الالوف العديدة من الناس الذين كانوا في نظر الالهة فوقهم كذرات الرمال مـع روح الحياة ، وعلى مظاهر الابهة والعظمة التي تجلت اليوم ولكنها ستتلاشى غدا ، وعلى مياه النهر الفضية والحقول الخضراء اليانعة ، وعلى تلال مصر العتيقة الابدية الباقية التي لا تفنى .

وصلنا عند الظهر الى وادي منازل الملوك الابدية المظللة دائماً حيث مثلت اذ ذاك رواية اوزوريس الغريبة اثناء حمـل نعش ابي ووضعه في تابوته داخـل قبره المنحوت الجميل . ولما فرغوا من الطقوس الدينية المعتادة وانتهت المحاكمة الاخيرة التي لم يتهم فيها احد فرعون بشيء في الحياة او في الممات - ختم القبر في النهاية .

ساد بعد ذلك سكون رهيب فجائي فسجد الجميع على الارض وانتظروا

بركة الروح « باي » التي رفرفت حول القبر هنيهة على شكل طائر بوجه مستور ثم طار نهائياً بحزن نحو الصحارى الغربية .

القيت بعد ذلك الصلوات وقدمت القرابين الى المعبود فرعون اوزوريس ـ رعمسيس المتوفي وبعدها تأهب الموكب للعودة الى المدينة ثانية .

وبينا كنا عائدين نحو « اماس » لاحظت ان حرحور واوسر كانا ينظران من وقت الى آخر نحو الشمس وكانت قد مالت الآن نحو الغرب فذكرت اذ ذاك النبوة الغريبة التي اذاعها رئيس الكهنة والتي كان السكان كلهم يؤمنون بها واعني بها ان آمون سيظهر في هذا اليوم نفسه علامة .

لم ادر هل كانوا يتوقعون نزول سحابة غير منتظرة تحجب اشعة آمون (الشمس) او كانوا ينتظرون ريحاً تهب فتحمل معها رمالا من الصحراء فيحولون ذلك الى فائدتهم الخاصة ولو انه لم تبد الى الآن علامة على وقوع مثل هذا .

على انه بينا اخذت طليعة الموكب تدخل ابواب نيامون اذ وقع هرج غريب بين الجموع الغفيرة التي تسير في الطريق في حين ترك كهنة آمون بثيابهم البيضاء الموكب واندسوا بين جموع الشعب وأخذوا يتنقلون بينهم بخطوات سريعة ومعهم كهنة رع وموت وخونس وغيرهم من كهنة المعبودات الاخرى .

وكان ساست يسير امامي فنظر الي باضطراب ظاهر واخذ القلق يستولي على الكثيرين . وكان هودجي مرتفعاً فوق الرؤوس فرأيت الوزير نيفر وخوتو وغيره من قواد حرسي قد ارتدوا الى الوراء بحجة ما والتفوا حولي ولاحظت امينمحعت بمؤخرة عيني وهو يهمس في اذن ميريس .

وكان الهواء شديداً حاراً . على انني بقيت جامداً لا اتحرك ولو انني كنت اشعر بأن هناك شيئاً غريباً غير منتظر يتكون . وفي الواقع استقر رأيي على

ان لا ابدي اي دليل على القلق امام هؤلاء الناس الذين صاروا في الحقيقة تحت امرتي . وفعلا حملت ذقني بيدي بسكون واخذت انظر امامي بجمود محاولا في الوقت نفسه الأهتمام بكل ما يجري حولي .

اخيراً تعالت الاصوات همساً بين الجموع وكان مصدرها الكهنة بلا مراء اذ سمعتهم يقولون :

ـ سيعطي آمون اشارة سيعطي آمون اشارة .

تعالى الهمس حتى صار ضجة ثم عاد فصار همسا مرة اخرى في اطراف الجمع المحتشد فكان ذلك بمثابة نذير عام فتحولت الوجوه نحو الغرب حيث كانت سفينة « رع » تسبح بجلالها العظيم .

وقع بعد ذلك حادث غريب ذلك ان السكون ساد على الجميع وظهر في الجو ظل خفيف غير محسوس وكان السكون تاماً بحيث لم يكن يسمع غير وقع الاقدام على التراب وجلجلة الدروع اثناء سير الموكب ببطء وهكذا كانت هذه الاصوات الخفيفة تزيد السكون رهبة وجلالا .

والظاهر ان السكون كان شديداً رهيباً وقاهرا بحيث عرقل سير عجلة الحياة فلم يغرد طائر اويصيح حيوان ولم يخاطب احد جاره بل جمد كل شخص في مكانه او تقدم بخفة الى الامام كأنه يخشى نقص المراقبة .

اخذ الظل الغريب يزداد شيئاً فشيئاً بحيث حجب كل شيء . وكان الجو مملوءاً بنور الشمس ومع ذلك كان الظل موجوداً فأخذ الرجال والنساء يظللون اعينهم بأيديهم محاولين النظر الى جلال آمون وقد تملكهم توقع امر رهيب .

وقف الموكب بعد ذلك فجأة ولا ادري كيف . وربما سقط رجل او خاف جواد مركبة فأحدث جلبة سد الطريق او ربما اوقفهم حرحور نفسه . لا ادري ماذا جرى غير ان الصفوف التي كانت تسير امامي ابطأت السير تدريجياً

الى ان وقفت تماماً .

وقف المشيعون والكهنة والجنود جماعات وصفوفاً وقد اتكأوا على رماحهم او عصيهم والتصق بعضهم ببعض ثم اخذوا ينظرون بخوف نحو السماء الى ان اضطر الذين يحملون هودجي هودج فرعون ـ الى الوقوف كذلك .

احاط بي بحر من الوجوه التي كانت تحدق النظر الى ثم الي السماء ثم الي ثانية في حين كان هذا الظلام الغريب في وسط النهار يزداد حلكة الى ان غشيت الارض كلها بنور معتم من غير هـذا العالم يشبه نور آمنتي بحيث خيـل الي ان النور لا ينبعث الا من نصف قرص آمون العظيم .

تعالت الاصوات من بعيـد ثم رأيت حرحور وقـد وقف بين هـذا الجمع المحتشد يحيط به الكهنة الذين لم يلبثوا ان غادروه وانسلوا بين الجموع في كل ناحية وهم يصيحون اثناء سيرهم . وكانت اصواتهم تقع في مسامعي موقعاً غريباً في هذا السكون .

علا الصوت وامتد بسرعة كالبرق الى ان خيل الي ان الجـو المعتم امتـلأ بصوت مبحوح واحد يقول :

ـ حجب آمون وجهه . اعطى آمون علامة . حجب آمون وجهه !

ثارت الزوبعة فاضطرب الجميـع ثانية وتولاهم الحزن بحالة غريبة .

هبت ريح خفيفة غريبة من ناحية الصحراء فجاءت معها بالخوف والرعب، وفي الواقع اخـذ بعض الرجال في طرف الموكب يفرون وهم يصيحون خوفـاً وفزعـاً في حين اخـذ الذين يقطنون الاماكن القريبة يهرعون الى منازلهم في « اواس » .

اما الذين كانوا واقفين على مقربة من المكان الذي وقف فيه هودجي فقـد ابتعدوا عني مخافة ان ينزل آمون علي انتقامه فجأة . ومع ان كثيرين ثبتوا في

اماكنهم من شدة الخوف أو العجب، فانه لم تمض مدة وجيزة حتى اخذ سيل من الرجال والنساء والاطفال يتدفق من شوارع المدينة ومن ابوابها وقـد تملكهم الخوف والرعب لما كان يلقيه الكهنة في آذانهم من الاقوال المخيفة المرعبة ولا انكر انني شعرت ايضاً بشيء من الهواجس لهذا الحادث المروع لأن الظل كان قد حجب نصف وجه آمون – رع اللامع .

وقفت في هودجي وناديت امينمحعت وخوتو وغيرهما من القواد وأمرتهم ان يجعلوا الجنود يلتفون حولي ويسيروا بنظام الى المدينـة ولما كانوا كلهم من الموالين لي فقد أذعنوا لامري بابتهـاج لانهم كانوا لا يهتمون سواء بالكهنـة أو النبوءات ثم أرسلت لواء من الجنود بقيـادة امينمحعت الى الشوارع وأبواب المدينة لمنع اضطراب الجماهير ولكي لا يصاب احدهم بأذى . وكذا أرسلت رسلا الى حرحور وأوسر–وكانا قد اختفيا على ما يظهر – وطلبت اليهما المثول بين يدي في القصر .

أمرت بعد ذلك الموكب بالتفرق ثم غادرت العبيد مع جياد المركبة وعدت الى المدينة بهدوء وثبات ما استطعت .

رأيت عنـد الأبواب جثث كثير من النساء والاطفال الذين قتـلوا تحت الاقدام وكذا شاهدت بعض رجال امينمحعت وهم يبذلون أقصى جهدهم لمنع الزحام فأرسلت فصيلة اخرى من حملة الرماح الى مساعدتهم .

وبينما كان عبيدي وجنودي يشقون لانفسهم طريقاً بين الشوارع المزدحمة بالجماهـير المضطربة – قـدم معظم الناس الي فروض الطاعة بشيء من الخوف والاضطراب ولو ان بعض الغوغاء كان قد تملكهم الخوف فاخذوا يوجهون الي كلمات السباب لان آمون لم يرض عني وقذفوا الحجارة على بعض رجال حاشيتي وجنودي فقبض على كثير منهم وجلدوا بامري لانني رأيت ان اظهر بمظهر الحزم والثبات ما استطعت ولو انني في الواقـع كنت اوجس خيفة من هذه الحالة التي كانت تزداد سوءا .

٢٢

لما وصلت الى القصر كانت الشمس قد عادت الى بهائهـا العادي فذهبت تواً مع عبيدي الى غرفة الاستقبال الخصوصية وهناك تحدثت قليلا مع نيفر الذي حار على ما يظهر من امر هذه الحالة الغريبة نظراً لشيخوخته .

أخيراً جاءني حرحور رئيس كهنة آمون واوسر وبسار وسورفـاست وبعض الكهنة والموظفين والضباط والقـواد . امـا ساست فلم اره لدهشتي ولم اذكر انني رأيته منذ أعطى الكهنة النذير بمجيء الاشارة .

بيد انه لما كان الجمع قد احتشد على هذه الحال فقد خاطبت رئيس الكهنـة قائلا :

– ارى أي حرحور ان جنازة أبي قد انتهت وانقضت معها ايام الحداد .

– هو ما تقول أيها الامير .

– يجدر بك ان تدعوني الآن فرعون .

– ايها الامير . انني رئيس كهنة آمون خادمك الوضيع ومع ذلك لا اقول هذا القول بحق وعدل حتى تتوج – ولو كان هناك من ينادونك بهذا اللقب .

ثم القى نظرة تنطوي على الخبث والدهاء على نيفر وبعض رفاقه .

تركت الامر يقف عند هذا الحد، لانني شعرت بان في الجو اموراً اشد خطورة من الالقاب والاسماء وعلى ذلك استطردت في حديثي قائلا :

ـ لما كانت ايام الحداد قد انتهت واتبعت نبوءتك وأجلت تتويجي فانني ارى من الملائم الآن ان اتوج غداً .

فاعترض اوسر قائلا :

ـ ألم تكن هناك نبوءة أخرى ايها الامير المبجل ؟ .

فقلت بغضب :

ـ انك مولع بالنبوءات وكذا باللعنات. اني اذكر بعض لعناتك ولعنات غيرك ايضاً فكن على حذر من سحرك يا اوسر اذا لم يخبرك بعضهم انك ستموت بسحرك في النهاية ؟ .

فلعق الساحر يديه بلسانه بسرعة وبشيء من الارتباك ثم لزم السكوت . اما حرحور فقال :

ـ لقد نطق اوسر بالصواب ايها الامير فان هناك نبوءة بان آمون سيعطي اشارة وقد اعطاها .

فقلت باستخفاف :

ـ لقد وقع شيء لا يمكن تفسيره بلا مراء ولو انني لا استطيع القول هل تعد اشارة او لا . فقل لي كيف تفسرها ؟ .

ـ اعلم ايها الامير انني لما لاحظت ارتياب الناس بك وشكهم في امرك طلبت الى آمون منذ بضع ليال ان يعطينا اشارة يبين فيها انك محبوب في نظره لكي اقنعهم بهذه الوسيلة واتوجك غداً برضى الجميع وموافقتهم ولكن واأسفاه أعطيت الاشارة فلم تكن كما رجوت او ظننت .

ثم استطرد في حديثه بخبث قائلا :

ـ فقد حجب آمون وجهه حتى في هذا اليوم الذي وضع فيه والدك في قبر وحللت مكانه . وهذا تفسير الاشارة : اعلم ايها الامير انـك لست محبوبا لدى آمون الذي حجب بهاءه في الوقت الذي ستصير فيه حاكم البـلاد . ان آمون لا يريد ان تصير فرعون مصر ـ ثم رفع يـده وقـال ـ والظاهر ان هناك آخرين يرون هذا الرأي . اسمعوا ! .

أصغيت فسمعت صوتا ضعيفاً في الخارج ، صوت غضب وصياح في الشوارع حيث كان بعض الغوغاء يصيحون ضدي بتحريض الكهنة بلا مراء حول ابواب القصر فارسلت اذ ذاك ضابطاً يسمى لتان وكان واقفاً على مقربة من العرش ـ الى الباب الخارجي وامرته ان يأخذ بعض الجنود اذا استطاع ليقبضوا على بعض المذنبين ويعاقبوهم عبرة لغيرهم .

حنى الضابط رأسه اذعانا لأمري فقلت بلهجـة ذات معنى :

ـ هذا جزاء الذين ينقضون الولاء . ويخيل الي أي حرحور ان قلة الكهنة تزيد ولاء الشعب .

تبسم حرحور بتبجح وقال :

ان الذين يصدقون اشارة آمون هم الموالون لآمون .

فاه رئيس الكهنة بهذه الكلمات بشدة وتحرك بسار واثنان غيره وراءه واذ ذاك احتشد انصاري خلفي كذلك . والظاهر ان سيف الكراهية قـد استل اخيراً من غمد الدسائس واننا وصلنا في النهاية الى مفترق الطرق .

قلت برزانة :

ـ اظن أي حرحور ان حفلة تتويجي ستكون غداً .

ـ يجب البحث اولا مع الآلهة لكي يعلموا هل انت الذي نبذك آمون وهل ...

فقاطعته بلهجة الحزم قائلا :

ــ سأتوج غــداً بصرف النظر عــن الاشارات ولو افضى الامــر الى دعــوة جنودي وخلع رؤساء كهنة وتعيين سواهم .

فتمتم انصار حرحور اذ ذاك غضباً في حين قال الكاهن :

ــ انني رئيس كهنة آمون ايها الامير وسأطيع آمون الذي خدمته قبل ان اكون في خدمتك ما دمت حيا . اما دعوة جنودك .

امسك الكاهن هنا عن الكلام هنيهة وقد بــدت على وجهه علامات القلق لان جميـع القوات التي كانت في نيامون موالية لي بفضل ما اظهرته من الحكمة واصالة الرأي بارسال الفرق الموالية لحرحور الى بلاد الحبشة ثم عاد الى الكلام فقال :

أما دعوة جنودك فهذا امر اتركه للآلهة .

لاحظت ان اوسر يبتسم ثانيــة فارتبت في الامر وقلت ربما كانت هناك حيلة اخرى لا ادري عنها شيئاً .

قلت برزانة :

ــ لقد سمحت لك بالانصراف . ولا تنس انك ذاهب من هنا وانت تعـلم حق العلم انني قد عولت على ان أتوج ملكا على البلاد غداً .

خرج الجميـع اذ ذاك من غرفة الاستقبال الصغيرة عدا أنصاري دون ان يكلف احد منهم نفسه مشقة تقديم فروض الاجلال لي لان الجميـع كانوا يعلمون ان اشهر الدسائس الطويلة قــد انتهت وان الحرب اعلنت بيننــا للاستيلاء على عرش مصر .

وفي الواقع اردت ان اقبض على حرحور واوسر وابعادهما من طريقي على

انني صممت أخيراً على تركهما يذهبان لانه لم يكن لدي في هذه الاونة غير فرقة واحدة من الجنود داخل القصر وخشيت ان اهيج الشعب في الخارج قبل ان تكون لدي قوة تكفي للوقوف في وجه أي هجوم .

سار حرحور وانصاره من بين يدي ومشوا بين جماعات العبيد الذين اخذ منهم العجب كل مأخذ والنبلاء الذين جمع كل منهم رجاله وامرهم بالثبات حسب الحزب الذي ينتمي اليه .

بيد ان الذين غادروا الغرفة كانوا أكثر من الذين بقوا فيها.وهكذا تركوني حائراً لا ادري كيف ولا متى تكون المقابلة التالية بيني وبين حرحور رئيس كهنة آمون .

ولما عدت الى غرفتي الخاصة مع عبيدي ارسلت في الحال رجلا يبحث عن ساست في القصر ولعمري اخـذ القلق يستولي علي لاجـله وفوق ذلك اردت مشورته ونصيحته فيما يتعلق بهذا التطور الخطير الذيطرأ على مجرى الاحوال.

أخيراً ظهر ساست فسألته قائلا :

– أين كنت يا ساست ؟

على انه لم يجبني على سؤالي وصاح فجأة بصوت ينم على الحزن قائلا :

ـ صفحاً عن خادمك أي فرعون .

فسألته بدهشة :

– اصفح عنك . علام اصفح عنك ؟

– لاجل هذه الاشارة التي حولت كل شيء ضدك .

– لعمري ليست هذه غلطتك.لا ادري لماذا ولا كيف وقعت هذه الاشارة ولكنها بلا ريب ليست من عمل الانسان . ومع انني لا أخشى هذا التطير كما

اخبرت حرحور بذلك الان الا انني أشعر في قلبي ان المعبود لا بد ان يكون غاضباً على لقتل كهنته أو لانتهاك حرمة هيكله فحجب وجهه بهذه الحال لانه لم تكن هناك سحابة ولا شيء في الجو . ولا عجب اذا كان الشعب قد آمن بهذه الاشارة لانني وأيم الحق آمنت بها كذلك ولو انني لا اعترف بذلك للكهنة .

فقال ساست :

– اعلم أي فرعون انك لست مثلي علماً او مثل رئيس سحرة آمون الذي رأى هذا النذير من قبل . ويحي من غر ابله لانني لم اعمل عمله ولكن لم يخطر ببالي ... اصغ الي اي فرعون : ليس الامر غير طبيعي ولو انه في الواقع غير عادي لانني تعلمت شيئاً كثيراً من ابي رئيس سحرة بتاح من قبلي واعرف اشياء كثيرة عن النجوم وحركات الشمس والاجرام الاخرى السماوية .

« ان ظلام قرص آمون يحدث في اوقات معينة وقد حدث في اعوام عديدة ولكني لا ادري كيف ولو انني اظن شخصياً ان الكواكب السيارة تحجب نور الشمس اثناء سيرها وبذا يحجب جزءاً من نور الشمس، كما تظلم النيران هنيهة عندما يلقي الانسان فيها حطباً جديداً واذا كان سحرة الالهة الذين يدرسون السحر وعلم الفلك لا يعلمون السبب بالضبط ولكننا نعلم يقيناً ان هذا الامر حدث فيما مضى وسيحدث في المستقبل . وفي كثير من الاحوال – بفضل المعلومات التي نقرأها في اوراق الحكمة السرية التي ورثناها عن اجدادنا – نستطيع ان نعين الوقت الذي يحدث فيه احتجاب قرص الشمس كما نستطيع ان نعين الساعات التي بعد انقضائها يطلع الفجر . وهذا ما فعله أوسر ! [1] .

– هل تعني ان تقول ان اوسر كان يعلم من قبل ان آمون سيعطي اشارة وان هذا الظل سيحجب وجهه ؟ .

---

(١) يؤخذ من ذلك ان قدماء المصريين كانوا متضلعين في علم الفلك ويعرفون حساب الكواكب السيارة والخسوف والكسوف وغير ذلك من علوم الفلك الحديثة   المعرب

– نعم وكان يجب علي ان اعرف مـا عرفه لو فكرت . لقد برهنت الآن على ذلك بما لدي من الآلات والخرط والمعلومات التي جئت بها معي من منف. على ان اوسر فاقني مهارة – وهذا ما لا اصفـح عنه مطلقاً – فـانتهز الفرصة وحولها لفائدتهم . ويلي من جاهل احمق جررت على رأسك كل هـذا الشقـاء على انه سيكون لي معه واقعة حال فيا بعد .

– ولكن اذا علم الشعب ذلك كما تقول فانها لا تكون علامة .

– ما الفائدة ايها المليك من اطلاع الشعب على ذلك اذا كنت انت على رغم حكمتك قد صدقت الاشارة وماذا ينفع بعد ان انقضى كل شيء . لقد نمت ايها السيد عنك وخنتك بغباوتي . اتوسل اليك ان تقتلني فانني استحق الموت .

ثم القى نفسه تحت قدمي . ولما رأيت الحزن قد اخذ منه مبلغاً عظيما لعدم استطاعته رؤية ما رآه رئيس سحرة آمون واستخدمه لفائدته قلت :

– كلا يا ساست . لقد صفحت عنك . اننا لم نخسر كل شيء بعد . فتشدد . انني اريد مشورتك ايضاً . تعال . ان الامور قد وصلت الى مايلي :

ثم أخبرته بكل ما دار بيني وبين حرحور محاولا مرة اخرى ان اطرد عنه احزانه واثير حميته لأجل قضيتنا قائلا ان الامور قد صارت الآن حربا علنية .

هدأ ساست بعد هنيهة ولو انه كان لا يزال كئيباً ثم قبل يدي وقال :

– لن انسى يا سيدي جميلك وسأوفي ديني لك .

فأمرته ان يكف عن مثل هذا القول ثم امرته ان يقص علي ما لديه من الانباء فقال :

– لقد بثثت جواسيسي في المدينة هذه الايام أي فرعون وقـد وصلوا كلهم الي الآن فقط وقدموا تقريرهم. وقد وصلت الحالة كما ارى الى الحد الآتي :

اضطرب الشعب اضطرابا شديداً بسبب هذه الاشارة والجميع يتمتمون ضدك ودبت بينهم الفوضى لأنك لم تسمع اصواتهم وهم يخشون غضب المعبود اذا انضموا الى جانبك الآن . ويتنقل الكهنة الان بين الشعب ويحثونه بكلمات شديدة على مهاجمة القصر وقتلك قائلين ان آمون قد غضب عليك على رغم انك ملك .

« ولعمري اخذ بعضهم يشيع روايات اخرى فقالوا انـك مغتصب وانك انتهكت حرمة عذارى آمون وانك تسعى للاستيلاء على العرش لتضع عليه ملوك الهكسوس ثانية وقصصاً كثيرة اخرى غير هذه يصدقها الشعب وهو على هذه الحال من الاضطراب .

اما حبهم لك فقد تغلب عليه خوفهم من حرحور والكهنة اذ تبين ان تمسكهم بديانته وطقوسه هو الاقوى ناهيك بهذه الاشارة . لقد زاد سخطهم عليك واخذوا ينادون بتولية حرحور فرعونا عليهم وقد هتفوا له الآن فقط عند مغادرة القصر .

وقد عاد امينمحعت ورجاله من مهمتهم في المدينة بعد ان وجدوا مشقة كبيرة في العودة دون اذى لأن هؤلاء الجنود معروفون بولائهم لك . وقد بلغني ايضاً ان الغوغاء هاجموا بعض جنود حرسك وقتلوهم خارج ابواب القصر وجرحوا لتمان الضابط الذي امرته بمعاقبة المشاغبين .

— ان هذا نبأ سيء ، بل اسوأ مما كنت اتوقع .

— نعم ان الحالة سيئة ولكنها ليست اسوأ مما يجب . ان الشمس تنير دائماً وراء كل سحابة . ان الفرق الست التي بالمدينة ...

— هل كلهم موالون لي ؟ .

— واأسفاه . ليس الامر كذلك فقد أغرى الكهنة فرقتين منهم وهما اللتان توجدان في « اوبي » الجنوبية وحملوا رجالها على ان يعدوا بنقض ولائهم اذا

اعطى آمون اشارة جلية ضـــدك وعلى ذلـك فهم الآن في طريقهم الى قصر حرحور لخدمته .

– يا لهم من رجال خونة ! اذن لدى حرحور هاتان الفرقتان غير الشعب ؟

– نعم ولكن لدينا اربع فرق . اثنتان هنا واثنتان في ضواحي المدينة .

– يجب دعوتهم الى القصر في الحال .

تحولت نحو نيفر وكان لا يزال مذهولا وأمرته في الحـال ان تأتي هاتان الفرقتان الى القصر وكانت احداهما بقيادة خوتو .

فقال ساست :

– هذا حسن لا يزال في وســع الرسل الخروج بلا ريب من الباب الجانبي الغربي لان معظم الشعب قـد احتشد امام المدخل الاكبر للقصر ولكن يجب الانتظار ريثما تصل هاتان الفرقتان قبل ان نكون في مأمن من شر الاعـداء وعندها يكون لدينا أربع فرق مدربة على القتال موالية لنا مقابل فرقتين فقط وجماعة من الغوغاء الغير المنظمين خارج الاسوار . وقـد توقعت أيها الملك حدوث شيء من القلاقل والاضطرابات فارسلت رسلا الى الموالين لنا في المدينة القريبة على النهر .

– انك تفكر بكل شيء يا ساست . وفـوق ذلك فـان معظم النبلاء في الاراضي السفلى الذين اقسموا يمين الطاعة لي في منف – موالون لي ايضاًولو انهم بعيدون عن هذه المدينة .

– نعم ولكن القلق يختمر هناك . وفي الواقع يخيل الي ان خداع حرحور مثل شبكة الصياد قد نشر بعيداً طولا وعرضاً . وقد التقيت اليوم بعد عودتي من الموكب برجل – وهو في انتظارك خارجا اذا شئت سؤاله جاء من منف فقال ان الرسل الذين ارسلتهم الى منف منذ ثلاثة شهور ليذيعوا خبر وفاة ابيك

لم يصلوا الى هنـاك واني واثق من ان حرحور قـد بث عيونه وارصاده حول الابواب فمنعـوا رسلنـا او قتلوهم كما قتلوا جميع الذين ارسلناهم لانـه بدلا من عودة رجالك جاء رسل بعثهم كهنة آمون قالوا كذباً ان حرحور نادى بنفسه فرعونا على مصر وانك تنازلت له عن العرش .

وهكذا اخذ الناس في الدلتا يتخبطون فبعضهم يقول شيئاً والبعض الآخر شيئاً آخر . وقد قام فريق منهم لاجلك بينهم اسبن حاكم تانيس (صا الحجر) في حين ثار غضب الآخرين لما زعموه خيانة منك فصمموا على قبول حرحور ملكا عليهم . وهكذا كانت النتيجة ان خططنا فشلت وساد الاضطراب . ثم زاد القلق بما وصل الى منف من الاشاعات القائلة ان الكاهن الاكبر لم يجلس على العرش بعد. لقـد نجحت الحيلة نجاحـا عظيما وصار الامر يتطلب القيام بضربة تنطوي على الحزم والحصول على فوز حاسم هنا في الجنوب قبل ان يصير الشمال في يدك مرة اخرى فاذا سار كل شيء في مجراه الحسن ولو اني اظن انه سيقع قتال كبير ...

لم يتمم ساست كلامـه لان ميريس دخـل اذ ذاك مسرعا وقال ان جندياً جريحاً يطلب المثول في الحال بين يدي فرعون لامر مهم .

سألت ساست قائلا :

ـ هل هو الرجل الذي جاء من منف ؟

ـ كلا ايهـا السيد . انـه ليس جنديا ولا جريحاً . ان هـذه مسألة اخرى فتمتمت دهشة قائلا :

ـ ترى ماذا يمكن ان يكون ؟ هل جاء بانباء اخرى من المدينة ؟

ذهبت الى النافذة واطللت منها عـلى ظلمة المساء التي اخذت تتجمع عـلى الابراج العديدة والمنازل والقصور والهياكل العظيمة في مدينة تيامون فرأيت

ان الامور صارت خطيرة .

وفي الواقع كان صليل السيوف يسمع في الخارج ورأيت جنودي يعدون اسلحتهم تأهبا للطوارىء وكذا ضوعف عدد الحراس ضد الشعب الذي كان متردداً في افـكاره . عـلى رغم ظهوره بمظهر العداء والتهديـد لا غرض له الا الهتاف لحرحور والمناداة بسقوطي والقاء الاحجار على جنودي . ولكن تبين لي انهم ليسوا في حاجة الا الى قواد، اذ ذاك يمتد لهيب الثورة وينشب القتال . على انني كنت واثقا من اننا نستطيع الثبات في وجوههم بسهولة الى ان تصل الينا الامدادات من خارج المدينة . هذا اذا لم يحدث امر غير منتظر .

اخيراً تنهدت ثم عدت من النافذة وقلت مخاطباً ميريس .

— مر الرجل بالدخول . ولما كان امينمحمت قدعادفمره ان يتولى قيادةالجنود في الفناء الخارجي للقصر ويخبرني اذا زادت الاحوال سوءاً . اما انت يا ساست فابق معي هنا لتسمع ما يقوله هذا الرجل .

٢٣

دخل علينا منهوك القوى رث الثياب يعلو وجهه وثيابه غبار السفر وكانت ثيابه ممزقة بحيث يستحيل معرفته ولم يكن معه شيء من الاسلحة اللهم الا خنجر في حين كان الدم يسيل على وجهه من جرح في رأسه .

حياني الرجل بصوت خافت واراد ان يسجد امامي ولكني رثيت لحالته وامرته بالجلوس وامرت له بكأس من الخمر لانه كان منهوك القوى الى درجة عظيمة .

جلس الرجل على كرسي من العاج والذهب امامي ثم تناول الكأس وشربها بسرور وبعدها اخذ يروي لي قصته قائلا :

اعلم ايها الملك حامي مصر انني من الحرس الشخصي للقائد رافحوتب وأحد جنود الجيش الذي ارسل الى بلاد الحبشة منذ ثلاثة شهور .

— آه ! ماذا اصاب رافحوتب ؟ هل كان على انباء سارة ؟

— كلا . واأسفاه . بل انباء سيئة . لانه لم تمض على وجودنا في بلاد الحبشة ايام قليلة حتى تكبدنا مشقة مع السكان الذين ثاروا في وجه بانشي الحاكم . ولما اراد رافحوتب اخضاعهم ثار بيانخي ابن حرحور وجميع الجنود — عدا الحرس وبعض الموالين — في وجهه وشقوا عصا الطاعة لانهم كانوا من حزب رئيس الكهنة وكانوا يبغضون ضباط

فرعون . وعلى ذلك اضطررنا الى الهرب الى قصر بانشي حيث مكثنا ثابتين في وجوههم بضعة ايام في وجه السكان الذين انضموا اليهم للقضاء علينا ... اواه اصفح عني ايها الملك لهذه الانباء السيئة التي حملتها اليك ...

لزم الرجل السكوت على انني اشرت اليه بقلب يفعم بالحزن ان يستمر في حديثه فقال :

– هذا ما بلغت اليه الاحوال اي فرعون : عندما وصل الامير سيتو من نيامون، اعلن انك تحاول الاستيلاء على العرش من حرحور صاحب الحق وحث الموالين لحرحور وآمون عن ان يقاتلوا لاجله . وعليه لما رأى رافحوتب ان الامور خطيرة الى هذا الحد ارسل ستة منا سراً تحت جنح الظلام لكي نبلغك حقيقة الحال .

– ولكن هذا كان منذ مدة بعيدة فلماذا لم اسمع عنهم شيئاً ؟

– بسبب الدسائس اي محبوب هورس . فاننا لما وصلنا نيامون منذ مدة طويلة وعلمنا بوفاة المعبود الاكبر ابيك اوقفنا حرس حرحور وكهنة آمون عند الباب الخارجي وكانوا يبحثون بلا ريب عن رسل من بلاد الحبشة ليحولوا دون وصولهم اليك وابلاغك حقيقة الحال . وقد قبض علينا هؤلاء الرجال ليقتلونا او يأخذونا عنوة ولكني فررت من ايديهم بعد ان جرحت جراحا بليغة فهربت الى قرية خارج المدينة حيث اهتمت بي امرأة وخبأتني عن اولئك الذين يبحثون عني . وقد حاولت على رغم مرضي ان ارسل رسلا آخرين ولكن لما كنت انا اول من اخبرك بهذه الانباء فانه لم يستطع احد الافلات من ايديهم والوصول اليك والآن لا تغضب على عبدك ايها الملك لانني جئت اليك بهذه الانباء السيئة .

– استمر في حديثك ... تكلم ماذا لديك من الانباء الاخرى ؟

– اعلم ايها الملك انه وصل صباح اليوم فجأة الى القرية التي كنت مريضا بها

والقرى المجاورة لهـا – جميع ذاك الجيش الذي تركتـه في بلاد الحبشة وعـلى رأسه الامير سيتو .

– ماذا تقول ؟ الامير سيتو والجيش الذي كان في بلاد الحبشة ؟ هل وصلوا الى هنا ؟

– نعم ايها الملك العظيم . انهم في القرية خارج المدينة ولكنهم يتوخون الحذر والتكتم الشديد .

– ولكني .. ولكني لم اسمع شيئاً من ذلك . لماذا لم يخبرني الحراس .. والرسل ؟

فقال ساست بغيظ .

– لقد احتاط حرحور للامر بلا ريب . وعندي كان يتوقـع ذلك فوضـع عدداً من رجاله لحفارة الابواب الجنوبية في هذه الايام ليتنا علمنا بذلك من قبل؟

لم اكد استطيع ادراك مبلغ هذه الكارثة الجديدة فقلت :

– كيف لم يقبض جيش سيتو عليك عندما كنت بتلك القرية ؟

– اختفيت ايها الملك في مخزن للحنطة من شروق الشمس الى ما بعد الظهر ثم هربت في الضجة التي وقعت بعد الاشارة المروعة التي اعطاها آمون ولكني لم انج من جرح جديد – مشيراً الى رأسه – ومع انني لا ازال ضعيفاً من المرض ملقـى في الفراش فقـد سرت بعيداً الى شمـال المدينة واختلطت بالجماهير ثم وصلت الى هنا .

سأل ساست قائلا :

– ماذا ينوي هذا الجيش عمله ؟

– سمعتهم يتحدثون عن مهاجمة القصر الليلة ليقتلوا فرعون ويضعوا حرحور

عـلى العرش قبـل وصول الامدادات . وفي اعتقادي ايضـاً انهم قتلوا بانشي ورافحوتب اللذين تركتها في حالة سيئة اذ يؤخذ من حديثهم ان بيانخي جعل نفسه واليا على بلاد الحبشة باسم والده حرحور . ان جيشهم قوي يا مولاي اذ لديهم ست فرق عدا جنود من الزنوج وعدوهم بالاموال وحكم بلادهم باللين والرفق متى صار رئيس الكهنة فرعون مصر .

خاطبت ساست بتبرم قائلا :

– اذن لديهم ثمان فرق غير الشعب وهؤلاء النوبيون . لعمري ان الامور سيئة جداً .

تحولت نحو الرجل لكي اشكره على اخلاصه وشجاعته بحمل هذه الانباء ولكنني رأيت انه قد أغمى عليه فأمرت العبيد في الحال بحمله الى غرفة اخرى والا عتناء به جيداً لانه برهن على شجاعته وصداقته وقد عولت في نفسي على مكافأته مكافأة عظيمة اذا انقضت الليلة بسلام .

بينا كان عبيدي يشتغلون بحمل الرجل اذ دخل امينمحمت . وكانت عيناه تلمعان ، تـدل هيئته الخارجية على ابتهاجه بقرب القتال ولعمري لم يخر عزمه عندما اطلعته على الانباء السيئة التي وصلتني فقد ضحك وقال :

– سيجد اسودنا غنا كثيرة لافتراسها . لقد وصل خوتو والفرقتان الاخريان الى القصر بعد مشقة كبيرة . ليس لدينا غير اربع فرق داخل القصر ومع ذلك في وسعنا ان ندفع جيداً اذا استطعنا الثبات في وجه الاعداء يوماً او يومين الى ان تصل الجنود الموالية لنا بطريق النهر فاننا سنراك تتوج اما اذا تغلب حرحور عليك الليلة واستطاع الاستيلاء على المدينة كلها فانه سيكون فرعون مصر مدة طويلة لانه اذ ذاك يكون حراً على العرش ، في استطاعته ان يقضي على كل فتنة او ثورة ضد حكمه .

– اذن يجب ان ندافع عن القصر الى النهاية . ما هي الاوامر التي اعطيتها

للحراس يا امينمحمت ؟

— امرتهم ان لا يسمحوا لاحد بالدخول من الباب الاكبر الذي اغلق الآن باحكام لان الجماهير هناك عديدون وهم يبدون عداءاً شديداً ولو انهم بلا زعيم . وليس بينهم احد من جنود حرحور وانما يوجد عدد كبير من الكهنة يحرضون الناس على الصياح ضدك . اما الابواب الجانبية حيث لا يوجد غوغاء كثيرون فقد امرت الحراس ان يسمحوا بدخول الناس افراداً لان هناك كثيرين من الرسل وغيرهم من الموالين لك يريدون الالتفاف حول عرشك . اما المشكلة الكبرى فلا تقع الا متى جاء سيتو بجيشه وحرحور بحرسه الى ابواب القصر الكبرى .

فرك امينمحمت بعد ذلك يديه وعلامات الابتهاج بادية على وجهه فقلت :

— مر الحراس بغلق جميع الابواب عدا الباب الجانبي الغربي وضاعف عدد الحراس ثم مر بقية الجنود بالتأهب والاستعداد في افنية القصر وارسل جميع الذين يريدون الدخول الى الباب الجانبي الغربي لانه يجب ان نمهد الطريق للذين يريدون الانضمام الينا ولكن لا تدع عدداً كبيراً من الرجال واذا تطلب الامر لا تسمح لاحد بالدخول . اما فيما يتعلق ..

دخل ميريس ثانية مسرعاً وقال :

— اسألك الصفح والمعذرة اي فرعون يا من لا تنتهي له حياة ولكن يوجد في الخارج من يريد مخاطبتك على انفراد .

أشرت الى امينمحمت فانصرف في الحال للقيام بمهمتـه ثم امرت عبيدي بمغادرة الغرفة وتحولت الى ساست . على انني قبل ان اخاطبـه هرعت الى الداخل امرأة ملتفة برداء طويل وفي اثرها رجل متنكر كان يطاردها على ما يظهر .

لم استطـع معرفة الرجـل او المرأة في النور الضئيل لان الشمس كانت قد

غربت ولان الخدم نسوا احضار المصابيح لما تولاهم من الخوف بسبب حوادث اليوم الغريبة وصياح الجماهير بالتهديد في الخارج وهكـذا فاتني هذا الامر فـلم ألاحظ عدم وجود مصابيح .على انني لم اكد اصدر أمري بانارة الغرفة حتى دخل عبد يحمل المصابيح وهو مضطرب ثم وضعها على طاولة ثم انسحب مع ميريس .

تحولت نحو الشخصين اللذين دخلا ولم البث ان شعرت برأسي يـدور بفرح فجائي. ولا عجب فقد رأيت حبيبتي نح . تل . كا واقفة امامي تحمل قناعها في يدها وهي ممتقعة الوجه ، تنتفض خوفـاً وفزعاً ، خـائرة القوى من كثرة الجري ، تبدو في عينيها الواسعتين السوداوين دلائل الخوف والفزع .
أخذت اقول متلعثما :

– ماذا ... نح . تل . كا ...

على انني لم البث ان رأيت الرجـل الآخر المتنكر قفز الى جانب الفتـاة فجأة ثم طوق خصرها باحدى يديه ورفع الاخرى فوق رأسها وما كان بها شيء ما . وبينما كان الرجل يقوم بهذه الحركة اذ سقط الرداء عن وجهه فرأيتني انظر في عيني اوسر ساحر آمون الصغيرتين الخبيثتين .

– صاح الساحر بصوت غليظ قاس قائلا :

– مكانك ... مكانك ايها المحتقر في عيني آمون .

ثم تحول نحو ساست وقال :

– وكذا انت ايها الساحر الحقير .

استولت علينا الدهشة وساد بيننا سكوت رهيب لحظة لم نسمع في خلالها حركة اللهم الا انفاسنا نحن الاربعة وهي تتردد في هذه الغرفة الصغيرة .

وضعت يدي في الحال على مقبض خنجري عندما رأيت يد الساحر الشريرة

وهي تطوق خصر فتاتي النحيل . اما ساست فلم يتحرك لانه كان اعزل .

صاح اوسر بصوت الامر مرة أخرى قائلا :

– مكانكما . الا تنظران ما في يدي ؟ .

ثم ضحك ضحكة خبيثة .

نظرنا فرأينا الساحر يحمل في يده المرفوعة فوق رأس الفتاة قارورة .

استطرد اوسر في حديثه فقال :

– اذا تجرأ احدكما على التحرك من مكانه قبل ان نذهب من هنا – انا وهذه الفتاة التي نقضت عهد آمون غروراً بالملك الكاذب – فانني اصب هذا السائل السحري على رأسها .

ثم ضحك تلك الضحكة المروعة وقال :

– انظر .

حرك الساحر يده التي تحمل القارورة جانباً ثم امالها قليلا بحيث سقطت بضع نقط من السائل الذي بها على قطعة من الجلد كانت مفروشة في ارض الغرفة فسمع في الحال ازيز وسحابة صغيرة من الدخان ثم لم نلبث ان رأينا ثقباً كبيراً اسود محترق الاطراف اخذ يتسع شيئاً فشيئاً وسط سكون مروع من تأثير هذا السائل القتال في حين اسود البلاط من تحته ببطء وذاب .

ارتددت الى الوراء رعباً وصرخت على رغم ارادتي قائلا :

– ايها المعبود اوزوريس ! ماهذا ؟ .

فقال الساحر بخبث :

أها ! يخيل الي ان لدى اوسر سحراً لا تعلمون عنه شيئاً . الان اذا تحرك

احدكما او كلا كما من مكانه او صاح طالباً المعونة او حمل علي لانقاذ هذه الفتاة من يدي فانني اصب ما في هذه القارورة على رأسها ... أهـا . ايها الامير رعمسيس ! فكر جيداً قبل ان تتحرك . فكر كيف ان هذا السائل سيأ كل لحمها الجميل الرقيق ، وكيف ان هذه الجدائل الناعمة ستسقط ، وكيف ان هذه الملامح الفتانة التي تهواها ستذوب وتتحول الى كتلة واحدة مخيفة . فكر كيف ان هذا الجسم السائل سيجري كالنيران المتقدة على هاتين المنكبين الرقيقتين وعلى هذا الصدر الابيض الجميل فيلتهمه كما تلتهم النار الحطب . فكر كيف ان هذا الجسم الرقيق المعتدل الذي تحب تقبيله وضمه الى صدرك سيلتوي ويعاني آلاما مبرحة فكر ايها الامير ...

صرخت قائلا :

– كفى . كفى .

ثم حجبت عيني بيدي وقد اضطرب قلبي عندما تمثلت امامي تلك الصورة المروعة التي وصفتها كلماته الرهيبة ، وارتد ساست على رغم ثباته الى الوراء رعباً . اما نح . تل . كا فكانت دموعها تنحدر ببطء على وجهها الابيض وهي واقفة ، لا ناصر لها ولا معين وجسمها ينتفض في قبضة يده وتنظر الي بعينين ملؤهما الذلة والمسكنة .

اخذ الساحر اللعين اوسر يحول ظهره نحو الباب ويجذبها معه فلعقت شفتي الجافتين بلساني ولكني لم استطع ان افوه بكلمة . ولا عجب فقد تملكني رعب شديد قيد رجلي ويدي وعقد لساني وشتت افكاري .

على ان ساست تقدم الا الامام خطوة فوقف اوسر في الحال وامال القارورة مهدداً بصب ما بها على رأس الفتاة ثم قال :

– تذكر . واقول شفقة بك . اذا حاولت اختطاف الفتاة مني فان السائل

يسقط على رأسك وعلى رأسها وهـذا موت محقق كما انـه مـؤلم مروع ولعمري الشجاع من يواجه مثل هذا الموت .

ثم ضحك ضحكة خبيثة مروعة .

أخيراً قلت وانا الهث لهول ما ارى :

– ماذى تريد منها او مني .

فتبسم اوسر بكآبة وقال :

آه . اراك قد استطعت التكلم في النهاية لقد هربت هذه الفتاة من هيكل آمون واظن انها هربت الى حبيبها ولكني اقتفيت اثرها ودخلنا كلانا الى هنا في سلام بفضـل حراسك الذين لا يزالون يسمحون بدخـول الناس الواحد تلو الاخر وسنخرج من هنا ايضاً سالمين كما ارجو اكراما لحبيبتك .

ثم نظر نظرةذات معنى الى الفتاة ثم الىالقارورة واستطرد في حديثه قائلا:

– ان سيف الهلاك مسلول فوق رأسك أيها الامير رعمسيس فلن تجلس على عرش مصر بل ستموت الليلة وستأتي هذه الفتاة الصغيرة التي نبذها آمون الي وتتعلم مني نوعاً آخر من السحر لا يعرفه السحرة الآخرون .

شددت الضغط في قبضة يدي وأردت ان انقض عليه ولكن تلك القارورة المرفوعة عاليـة في يده والموت الرهيب الذي تحويه للفتـاة – كبلتنى بقيود من الفولاذ .

صاحت نح . تل كا . قائلة :

– لا تكترث بي أي رعمسيس ! أظن ان ..

فصاح أوسر في وجهها قائلا :

– الزمي السكوت .

ثم أخذ يجذبها ثانية نحو الباب فاستسلمت الفتاة لارادته ولم تبد مقاومة . وكانت عيناها لا تتحولان عن النظر الي بحالة تنم عن التوسل والاستعطاف .

جمد عقلي وجسمي وخارت قواي تماماً لما ينتظر الفتاة من المـوت المحقق الرهيب بحيث لم أستطع القيام بعمل ما . ولم يكن ضعفي هذا ناشئاً عن خوفي على نفسي بل كان الخوف الرهيب على حياة نح . تل . كا . هـو الذي كبلني وقيدني بهذه الحال المذرية . وفي الواقع سواء حاولنا انقاذهـا أو حاولت هي النجاة او إستنجدنا بالحراس بعد خروجهما – فقد كتب عليها الهلاك بحالة لم أشهد لها مثيلا – واذا لم يقع شيء من ذلك فقد كتبت عليها حياة ربما كانت أشد رهبة من الموت ...

وقع في طرفة عين ما لم يـكن في الحسبان . فقـد تحفز ساست ثم قفز من مكانه كالنمر وانقض على الساحر فـنزع يده التي كانت تطوق خصرها ودفـع الفتاة بمنكبه فألقاها بعيداً الى زاوية الغرفة ...

اهتزت يد الساحر التي تحمل القارورة عالية وانقلبت لدى انقضاض ساست على غريمه فجأة بحيث ارتفعت النقط الاولى منها في الهواء .

طوق ساست جسم اوسر بذراعيـه الطويلتـين فسقط ذاك السائل المروع المجهول عليهما معاً وهما على هذه الحال ...

اخذ أوسر يصيح صياحـاً منكراً ويصرخ صراخاً مروعاً . أمـا ساست فكان يتأوه ويئن من الألم المبرح . وكانت أيديهما تمسك السائل الذي كان يشوي وجهيهما في حين كان يتصاعد من جسميهما المعذبين بخار ..

تقدمت الى الامام وقد دفعتني فكرة وجود حبيبتي بين ذراعي هذا الوحش الضاري كما تدفـع الرياح سفينة بلا ربان ثم رفعت خنجري ودفنتـه في صدر الساحر فخمدت انفاسه .

ملت فوق ساست وقد تملكني اليأس اذ رأيت أن ليس في مقدرة أحد من البشر انقاذه من الهلاك الذي اصابه . ولعمري رأيت في عيني صديقي شيئاً غير انساني ولكن كان بهما غير دلائل الآلام المبرحة – ما ينم على الفوز والفخار .

قال ساست وهو يلهث :

– لقد ... وفيت ... ديني.

ثم أشار الى صدره وفي عينيه ما يدل على التوسل .

أدركت غايته فلم أجد مناصاً من تلبية طلبه . وفي الواقع لم تكن لدي وسيلة أخرى انقذه بها من العذاب المروع الذي يذهب بصوابه والذي كان يأكل جسمه المضطرب .

همست في اذنه بصوت مضطرب من شدة التأثر قائلا :

– وداعا ايها الصديق الحميم .

ثم دفنت خنجري في صدره لاكفيه مشقة الآلام المبرحة التي كان يعانيها .

قمت بعد ذلك متوكئا على ذراع ميريس – وكان قد هرع الى الغرفة مع الحراس على اثر سماع صياح اوسر وساست – ثم احدقت النظر الى الجثتين : الى جثة اوسر الذي مات اخيراً بسحره ، والى جثة ساست الذي مات في وقت واحد مع اوسر وضحى حياته لانقاذ التي احبها ، الى الجثتين المحترقتين الملتويتين اللتين كانتا منذ هنيهة على قيد الحياة .

القيت الخنجر المخضب بالدماء بتبرم بعيداً عني ثم اشرت الى ميريس فأمر الحراس الذين استولى عليهم الرعب والهلع بحملها خارجاً – حمل الصديق الذي ادى لي اعظم خدمة جليلة اداها لي رجل في الحياة ، والعدو الذي حاول ان يصيبني بأروع ضربة في الحياة .

ادركت من الآلام المحرقة التي شعرت بها في اصابعي مقدار الالم المبرح الذي لابد ان يكون الساحران قد تحملاه ، وهو الالم القاسي الرهيب الذي كان قد اعد لجسم نح . تل . كا .

سمعت بعد ذلك صياح السكان وهم في ثورة غضبهم في الخارج فذكرت كل ما هنالك .

اخيراً تحولت نحو نح . تل كا ، بقلب ملؤه الاسى والحزن وكانت لا تزال ملقاة على الارض في زاوية الغرفة مغمى عليها .

حاولت مدة طويلة افاقة الفتاة من اغمائها بمساعدة زنجيين . ولم اسمح لاحد بامساكها بل ربضت بجانبها وجعلت ركبتي وسادة لرأسها الجميل مع جدائل شعرها الغزير . على ان الصدمة كانت شديدة بحيث كادت مجهوداتنا لا تظهر دليلا على الحياة في هذا الجسم الذي كادت تخمد أنفاسه .

وبينا كنت مشتغلا على هذه الحال دخل امينمحمت ليخبرني ان الجماهير لم تبد الى الآن حركةعدائية ولكن يظهران هناك قلقاً عاماً وان فصيلة اوفصيلتين من الجنود وصلتا مقابل الأبواب الكبرى .

لم اجبه بكلمة على انني اخبرته بكلمات قليلة متقطعة بوفاة شقيقه فاطرق عندها رأسه حزناً هنيهة لأن هذين الشقيقين كانا يحبان بعضهما بعضاً على رغم ما كان بينهما من التفاوت العظيم .

اخيراً قال أمينمحمت :

– اذن ذهب ساست الى اوزوريس الى حيث أظن ان كثيرين منا سيذهبون قبل ان نفرغ من مهمتنا هذه الليلة . حسن ، لم اكن لأتمنى له وفاة أشرف من هذه كما أرجو أي فرعون ان اقدم انا أيضاً اليك خدمة في النهاية ولكن ...

ثم اشار الى الفتاة المغمى عليها أمامي وقال :

– ولكن لماذا أتت هذه الى هنا ؟

– لا أدري مطلقاً اللهم الا انها قالت ، انها تريد مقابلتي على انفراد . على ان أوسر اللعين داهمنا قبل ان نتكلم وبعدها اغمي عليها من ...

– هل قالت انها تريد مقابلتك على انفراد ؟ حسن . ستفيق عما قريب ايها الملك . على انني اقول انه ليس في ثنية ذراع الرجل الواحدة مكان للسلاح والمرأة فاما ان تكون الذراع ملفوفة بحرير وأما بفولاذ فلا تستطيع أن تحب في وقت واحد بسيف وغدراء بل اذا جردت هذه يجب ان تضع الآخر في غمده.. آه . أرى أنها تتحرك . اذن يجب الذهاب الى الباب الخارجي وسأخبرك في الحال اذا آنست من جانب العدو رغبته في الهجوم .

خرج امينمحعت فسمعته يسأل ميريس خارج الغرفة أين وضعت جثة أخيه ثم تفرغت بعد ذلك للاهتمام بالحمل الجميل الملقى بين ذراعي .

٢٤

أخيراً رفرفت الأجفان الرقيقة ثم رفعت ،في حين تنفست الفتاة تنفساً عميقاً

تذكرت اذ ذاك أنهـا تريد مقابلتي على انفراد فصرفت جميع العبيد ثم أخذت اراقبها فرأيت احمرار وجهها يتسرب الى وجنتيها شيئاً فشيئاً ويطلع فجر الادراك والشعور في عينيها الساحرتين الى ان عادت اليها ذكرى ما جرى فنظرت الي نظرة استفهام صامت فأجبتها قائلا :

– مات كلاهما .

فاغمضت عينيها مرة أخرى لحظة ثم همست قائلة :

– اواه . كم كان شجاعاً نبيلا ! ولو انه قام بهذه المكرمة لاجلك لا لأجلي فقد رأيت ذلك مجسما في عينيه عندما وثب علينا . اواه من هول ذاك الموت المعلق فوق رأسي !.

على انها وجدت ان رأسها لا يزال على ركبتي فذكرت شيئاً آلمهـا على مـا يظهر، اذ رأيت علامات الحزن الشديد قد حجبت عينيها الجميلتين مثل سحابة ولم تلبث ان جلست ثم انسلت بعيداً عني ببرود فقلت :

– ما هذا يا نح – تل – كا ؟ ما هذا ؟

فقالت بصوت خال من دلائل الحب العادية :

– لدي رسالة لك ايهـا الملك العظيم الذي لا تنتهي له حياة وليس هنـاك وقت يمكن تضييعه وقد سمعت هذا النبأ الليلة اتفاقاً وهو : حذار من الامير سيتو . فقد انضم الى بيانخي بن حرحور الذي صار الآن حاكماً على بلاد الحبشة بعد ان قتل بانشي الزنجي . وفوق ذلك احدث فتنة وقتل رافحوتب القائد وقـد وصـل هذه الليلة فقط الى نيامون مع جميع ذاك الجيش الذي ارسل الى الجنوب ومعهم جماعة من النوبيين كذلك . وقد سمعت انه جاء لمهاجمة القصر وقتلك واجلاس حرحور على العرش . هذا كل ما لدي من الانباء وقد ابلغتك اياها لكي تفعل ما تراه ملائماً لك . الآن اعطني ردائي ودعني انصرف من هنا .

دهشت لهذا التطور الغريب والفتور الفجائي الذي ابدته من نحوي دون سبب،ولم البث ان صرخت قائلا :

– ولكن كيف تذهبين على هذه الحال . ماذا فعلت ..

– لقد ابلغتك رسالتي فلماذا التلكؤ ؟

– ولكن .. اما رسالتك فقد علمتها من قبل اذ جاءني رجل منذ ساعة واخبرني بها . ولكن لماذا تريدين .. ؟

فقالت الفتاة وهي تلهث .

– هل علمت كل ذلك من قبل ! اذن فعلت كل هذا عبثاً . يظهر ان الآلهة افسدت علي كل شيء فانني لما اعطيت كل شيء في النهاية اعطيت للاشيء .

ثم ضحكت ضحكة مرة مزقت فؤادي وغطت وجهها بيديها .

امسكت رسغيها بلطف وحاولت ان اجذبها بعيداً عن وجهها، على انها اظهرت تبرماً واستياء وابتعدت عني ثم صاحت قائلة :

– لا تمسني ايها الخداع .

ثم هرعت الى الباب . على أنني سبقتها اليه فرددت ذراعي وسددت الطريق في وجهها فقالت وقد اتقدت جذوة غضبها :

— افتح الطريق ودعني اذهب !

— كلا . لا اسمح لك بالذهاب حتى تخبريني بما هنالك . لقد اتيت الى هنا — انني لا ادري كيف استطعت ، انت المنذورة لآمون ان تغادري الهيكل — اقول انك اتيت الى هنا وعلى شفتيك رسالة عطف ومساعدة وفي قلبك ثورة غضب واحتقار . لم يكن هذا حالك عندما غادرتك ليلة امس فاخبريني ماذا جرى او ماذا جنيت حتى حولت قلبك عني بهذه الحال ؟

فضحكت الفتاة مرة اخرى ضحكة عالية رفيعة وقالت :

— هل استطعت ان تلقي هذا السؤال ، ثم تلقيه علي ? انت الذي تدعي زوراً وبهتانا انك تهواني ! وانا التي زعمت لجهالتي وحماقتي انك غيرك من الرجال فوجدتك انك رجل مثل غيرك من الرجال . ولكن اعلم انني لم اغادر هيكل آمون اجابة لطلباتك وتوسلاتك . كلا ولم انقض عهودي ومواثيقي لكي اكون العوبة في يدك ، تتمتع بها ساعة ثم تكسرها وتنبذها جانبا متى سئمت منها — او اكون موضع سخريتك وضحكك انت وتلك التي تهواها حقاً وستجلسها بجانبك على عرشك .

— نح . تل . كا ، ما هذا الذي تقولينه ? انك انت التي احبها وانت دون سواك وكل كلمة نطق بها لساني لك اثناء تلك الساعات اللذيذة التي قضيناها معاً سراً ، لا يشوبها ادنى شك او ريب .

نظرت الي الفتاة نظرة عجب ممزوجة بالاحتقار وقالت :

— هل تستطيع هذا القول — حتى الآن ! ولكن اذكر انني لم اعد جاهلة حمقاء حتى اصدق كلماتك بل اعلم انك وقعت في الشرك .

ثم دست يدها بسرعة بين طيات ثيابها وقالت :

— انظر الى هذا اذن . لمن اعطيت هذا ؟

ثم وضعت امام عيني ذاك الخاتم المصنوع من الياقوت الذي نقش عليه اسمي وهو الخاتم نفسه الذي اعطيته لساست واعطاه هذا الى تنزو .

قلت بدهشة شديدة .

— هذا خاتمي الذي كان لدى تنزو .

— نعم وايم الحق « هو خاتمك الذي كان لدى تنزو » . انظر كيف فضحت سر نفسك ! لقد رأيت ايضاً كلماتك الغرامية التي سطرتها ووقعت عليها باسمك كما رأيت خططك التي دبرتها للزواج بابنة حرحور والتي وضعتها كلها اثناء توددك الي . لقد اقسمت عندما سألتك عنها بكل مقدس انك لا تهواها وقد استطاعت — ككل امرأة اخرى — ان تقف على ما يكنه قلبي وتعلم انني .. انني احبك .. ثم اواه من هول كلماتها المرة التي امتهنتني واحتقرتني بها ! .. ليت آمون العظيم يقضي على جميع من هم على شاكلتك ويرسلهم الى « آميت » آكل الارواح .

— اصغي الي يا نح . تل . كا . هذا غير صحيح . لم اعط هذا الخاتم الى تنزو ولم ارسل اليها هذه الاوراق .. ولعمري في وسعي ان اقتلها في هذا العمل حتى في هذه الاونة .

اخبرتها في الحال بلسان متلعثم كل ما فعله ساست من الخداع والحيل وكيف اكتشف امره وكيف صفحت عنه . وكانت تصغي الى قولي بحالة تدل على الازدراء والكفر ولو انني في الواقع قرأت في عينيها انها تود ان تصدق قولي لو استطاعت .

اخيراً سألتني ببرود قائلة :

– هل تقول ان كل هذا صحيح ؟

– نعم واقسم بذلك . انك تعرفين ساست وقد اخبرتك كيف انه كان لا يهتم بشيء الا اجلاسي على العرش .

– من الغريب انك لم تذكر شيئاً عن كل هذه الدسيسة في محادثاتنا معا . وقد مات ساست الان فلا يستطيع تزكية اقوالك – وقد يكون هذا من حسن حظك .

فثارت حميتي واجبتها في الحال قائلا :

– ان موته كان من حسن حظك انت لا من حسن حظي .

شاهدت في الحال تورد وجنتيها خجلا عند سماع هذا الدليل الساطع على براءتي . ولما رأيت انني قد اصبت المرمى استطردت في حديثي وقد امدتني الالهة بروح من عندها فقلت :

– وفوق ذلك اليس موت ساست على هذه الحال برهان قاطع على صدق قولي ؟ الآن اسألك هل كان ساست يضحي حياته لانقاذك – لا اكراما لك بل اكراما لي كما قلت – اذا كان يظن حقيقة انك لست شيئاً في نظري وانني اهوى تلك الفتاة الاخرى ؟

اصاب سهمي الغرض . وفي الواقع لزمت الفتاة الصمت هنيهة واخيراً تكلمت بلهجة ارق قائلة :

هل تقسم لي بكل شيء في عينيك تقدس ان ما قلته صحيح وانك لاتحبها أبداً . أبداً ؟

فأقسمت « بأنح » المقدس وباسم بتاح وآمون ان ما قلته هو الحقيقة واستشهدت بروح ساست .

لزمت الفتاة السكوت مرة اخرى فقلت بلهفة :

– واذا كنت لا تزالين غير مؤمنة بما قلت فاذهبي الى امينمحعت في فناء القصر وسليه فقد حاول هو وساست ان يغرياني ضد ارادتي على الزواج بتنزو وقد كان معي ايضاً لما طلب شقيقه مني الخاتم بحجة كاذبة .

تنفست الفتاة الصعداء ولمعت عيناها كعادتها وقالت برقة :

– كلا . لقد صدقتك . ولو ان ذلك قد يكون جهالة مني لأنني لا اجد من نفسي الا رغبة في تصديقك . والان ألا تزال تحبني ، وتحبني دون سواي ؟ .

اخذتها بين ذراعي فلم تحتج بعدها الى جواب على سؤالها بل قبلتني بشغف وبكت وانتحبت وجداً وغراماً ورأسها على منكبي ثم رفعت الي وجهها فقبلته مراراً وتكراراً وهي متعلقة بي وكانت تدللني بيديها .

اخيراً همست في اذني قائلة :

– اواه . ما اسعدني الآن ، انا التي كنت في اسوأ حالة تعسة من قبل ! اصفح عني اي حبيبي رعمسيس لارتيابي فيك . ان الغيرة هي التي دفعتني وقد علمت الآن حق العلم انك تهواني وحدي دون سواي . اما انا فلا أزال اهواك بمجامع قلبي كما كنت دائماً ... ولكنني امقت . اواه . كم امقت تلك المرأة التي كبدتني كل هذه المصائب انتقاما منك وكم اود لو كانت الآن تحت يدي لكي اجعلها تتكبد عشر ما تكبدته من الآلام .

فذكرت كيف جاءت تنزو الي وكيف غادرتني منذ بضع ليال وعليه قلت :

– اظن انها تحملت آلاماً شديدة كذلك .

– ولكنها لا تحبك ولا تستطيع ان تحبك مثلي . اواه ما اشد الآلام المروعة التي عانيتها – وانا لا ازال احبك – عندما ايقنت انك لم تعد تهتم بي

وانك كنت تستخف بي . ولعمري لو كان الامر حسب زعمي ولم تستطع اقناعي لقتلت نفسي بهذا الخنجر — مشيرة الى خنجر صغير في منطقتها — ولقتلت تنزو ايضاً لكي لا تحظى بك لانك لي ولي وحدي دون سواي . ان جسمي الضعيف لا يستطيع ان يحتمل طويلا ثورة الحب والشمم والغيرة ... ولعمري لم يكن لدي انا التي نقضت عهدي غير وسيلة وحيدة هي الموت .

صرخت عندما ادركت مغزى وجودها هنا قائلا :

— لماذا غادرت الهيكل ! لا ادري ... ولكن الم تقولي ايتها الحبيبة انك لن تنقضي ...

— قلت انني لن انقض عهدي لاجلي او لاجل سعادتي ولكنني فعلت ذلك لاجلك اذ سمعت اتفاقاً بالدسيسة وبقدوم جيش الامير سيتو لقتلك وزعمت انك تجهل ذلك. ولما كنت استطيع دون سواي تبليغك هذه الرسالة ولم استطع ارسال رسول هربت الى هنا دون اهتمام بقسم او عهد لكي انذرك ولم ابال باوسر ومطاردته اياي . وهكذا ترى انني ما فعلت ذلك الا لاجل حياتك وسلامتك لا لاجلي ولو انني كنت اظن في ذاك الوقت انك لا تحبني .

فأجبتها بكآبة قائلا :

— لست واثقاً من حياتي او سلامتي اذ ليس لدينا هنا غير عدد قليل من الجنود في حين لدى الاعداء ثمان فرق عدا النوبيين والشعب . على اننا اذا استطعنا الثبات ...

فقاطعتني الفتاة قائلة :

— كلا . في وسعي ان انقذك . اصغ الي . انك تحبني كما احبك وليس لدي الآن شيء اريد الحياة لاجله الا انت لأن الموت محقق لي سواء عدت الى الهيكل او مكثت في المدينة واظن ان الموت محقق لك كذلك اذا بقيت في هذا القصر لان

قواتك اضعف من قوات الاعداء الذين يريدون قتلك مهما كان الامر . فعليك ان تتنكر الآن وتفر معي . ولا نزال في وسعنا الهرب من القصر دون ان يعرفنا احد فنركب زورقا في النهر ونذهب الى الاراضي السفلى حيث تجد الجميع موالين لك خصوصاً حاكم تانيس فقد سمعت ان لديه قوات كبيرة من الجنود وهو ذو نفوذ كبير يستطيع حمايتك ...

فتحت فمي لاقطع عليها الحديث ولكن قبل ان افوه بكلمة وضعت اصابعها الباردة على شفتي واسرعت فاستطردت في حديثها كأنما خطرت ببالها فكرة جديدة غريبة في حين كانت عيناها تلمعان كالنجم — فقالت :

« او خير لنا اي معبودي رعمسيس ان نفر مباشرة الى قرية بعيدة هادئة في احد الواحات اذ أرى الامور مضطربة وقد يصيبك شيء من الاذى غدراً وخيانة . نعم نفر من هنا خلسة الى احدى القرى البعيدة وهناك نعيش في الهواء النقي العليل واشعة الشمس الجميلة وابتهاج الحياة الريفية البسيطة الهادئة ونقضي حياتنا في الحب والهناء .

« لا تكن اذ ذاك ملكاً بل ابناً صغيراً لامك مصر تقتات من ثمرات ارضها السوداء الخصبة الجميلة التي تزف كل عام الى عريسها النيل الخصب في حين انا اليفك التي تجد فيها عضدك وعزاءك . آه . ما ابهج مثل هذه الحياة وما اسعدها . لعمري ستكون حياتنا اعجب العجب لانه لا شيء اعظم من ان يحظى الانسان بمن يحب ولا شيء يمكن مقارنته بالسعادة التي تشعر بها عندما تعلم انك محبوب لدى من تحب ... لقد أسر حبك فؤادي وتملكتني رقتك تماماً عندما أردت أخذي عنوة من الهيكل وعندي يحمل الحب الصادق الذي يكنه الرجل في قلبه—المرأة على بذل كل مالديها اعترافاًبالجميل.وقد بذلت في حبك كل شيء — من حب وشرف ودين وسلامة وعهد — نعم كل شيء عدا نفسي ، وهذه ايضاً سأبذلها ، ولعمري كم اتوق الى بذلها انا المحبة التي لا اعرف في سبيل

الحب عقبة او عاراً .

امسكت الفتاة عن الكلام لتستجمع قواها ولا عجب فقد اجهدت قواهـا بما فاهت به مدفوعة بثورة وجدهـا وغرامهـا . وكانت لا تزال متشبثـة بي ، ملصقة خدها المتورد – وكان لا يزال مبتلا بدموعها – بخدي . اما أنا فكانت في فكري حرب عوان فلم استطع التفوه بكلمة واكتفيت بأن طوقت خصرها بذراعي .

اخيراً عادت الفتاة الى ثورة وجدها فقالت :

– أي رعمسيس ، رعمسيس ، حبيبي وقلبي ، الان وقت الحب – فقد جرى الدم في الشرايين مسرعاً وتشعبت الحياة بالفرح والهناء . نعم حان وقت الحب فانبذ جانباً هذه المظاهر الفارغة ، مظاهر العظمة والملك . انبذ هذه المتاعب ومشاق الحكم ، وهـذا الخطر ، خطر الجروح والموت وتعـال معي ، وانا التي سأكون لك أمة رفيقة في كل ما تحب وتهوى ! ساحبـك اي رعمسيس حبـاً لم تشعر به امرأة نحو رجال من قبلك .

«تـكاد تموت وجـداً بي وغرامـاً ، نعم وتكاد لا تتكلم ولا تفكر ولا تحـلم بشيء الا بي ، انا التي سأحيا فقط لكي اكون طوع اقـل اشارة لـك . . ليس لدي غير القليل لاعطيه اليك ولكن اعطيه كله ، كلـه – بحريـة وصراحـة ، بالقلب والجسم والروح . لا غرض لي في الحياة الا ان احظى بـك واضمك بين ذراعي واكفل لك السعادة التي ترضاها اريـد اي رعمسيس ان اهب واعطي ثم اعطي الى ان اتوسل من الحب – ثم اعطي ثانية .

لا فائدة من الانتظار الى ان يجري الدم بارداً وتفقد الحياة والحب لذتها بل الان هو الوقت الوحيد ... ان وجودنا معاً ليلا ونهاراً ونهاراً وليـلا – اواه . ان مجرد الفكرة تملأ قلبي فرحاً يكاد يكون لشدته ألما ، ولكنه ألم لذيذ مطرب يوخز قلبي وخزاً .

ان الحب يساوي كل ثمن وكلما زاد الثمن كانت الصفقة غالية نفيسة . ان الحب يساوي كل شيء وبدونه تكون الحياة نفاية فارغة لا تساوي درهماً . لا اطلب اليك شيئاً اي رعمسيس ولا اتوسل اليك لتتنازل عن شيء ذي قيمة كلا ولا عن حريتك . بل خذني اذا شئت كما انا . لا اريد ان اربطك بي اذ لا يهمني ان اتزوج بك مادمت معبودة قلبك . انني لك، انني ملك يمينك فافعل بي ما تراه صالحاً لك وستكون مكافأتي ما استطيع اختطافه من سعادة . ولعمري لا يستطيع الانسان مهما كان الثمن ان يقدر مبلغ ساعة واحدة يقضيها في الابتهاج والسرور .

– سكتت الفتاة مرة اخرى عن الكلام اعياء وقد تولاها شيء من الخجل ومع ذلك كان يبدو في عينيها ما يدل على الفخر بحبها القاسي الشديد .

حاولت التكلم فقلت :

– نح . قل . كما انا ... انا ... هل تريدين ...

ولكن بينما كنت اناضل لادراك عمق حبها هذا العظيم الذي تفجرت ينابيعه هكذا امامي، اذ لبت نفسي نداءها . واتفق ان نظرت الفتاة الى عيني بقلق ثم قالت :

– ماذا يؤلمك ايها الحبيب ؟ انك لا تفقد شيئاً ببقائك هنا اما اذا فررت معي فانك تريح حياتك . انك لم تخسر شيئاً ولكنك ستربح كل شيء لقد اعطيت كل شيء ولكني ابتهج بالعطاء – هذا جوهر حب المرأة لانها لا بد ان تعطي ولا بد ان يأخذ الرجل . وهذه طريقتها التي كانت دائما ... تكلم . تكلم. مالي اراك صامتاً ؟ ماالذي اربك عقلك على هذه الحال. انك لا ترفض طلبي ولا ريب في انك ستجيب سؤالي . كلا . ان هذا مستحيل . اي رجل يختار الموت المحقق بدلا من حياة سعيدة كالتي امامنا ؟ اواه . انك تخيفني بسكوتك هذا .. قبلني . قبلني ايها الحبيب وضمني الى صدرك حتى اشعر بأنك قريب مني .

شفة لشفة وقلب لقلب . دعني اقرأ جوابك في عينيك – اواه . ماهذا الجمود . عليك انت ان تتودد الي ولكن ويحي انا التي ظهرت بهـذا المظهر فأعلنت حبي وغرامي وكشفت لك عمـا يكنه قلبي لـك من الحب الصحيـح . قبلني قبلني تذكاراً لموقفنا هذا وهيا بنا نفر في الحـال .. ماذا ؟ .. ماذا ؟ لا ريب في انك لا ..

تلاشى صوتها وتحول الى سكوت رهيب عندما امسكتها من منكبيها بلطف ونظرت الى عينيها الغريبتين المملوءتين توسلا واستعطافاً وكانتا مضاءتين بنيران لايراها الانسان الا مرة واحدة في حياته ولا يراها في عيني امرأة واحدة .

وكانت يداي تضطربان بحيث لم اكد استطيـع ايقافها ومـع ذلك نظرت بثبات اليها الى ان أحمر وجهها ببطء وارخت عينيها فحجبت اهدابها الطويلة ما كان يتجلى بها من السحر الجميل .

قلت بصوت متقطع مملوء بالحزن :

– نح . تل . كا . ان هذا تعذيب لي . ان هذا ..

فهمست بشفتين جافتين قائلة :

– انك .. انك لا ترفض طلبي ؟ .

– انني احبـك يا أمينـة قلبي فوق كل امرأة اخرى ولكن – ولكني كما اخبرتك اقسمت يميناً لما كنت في منف ..

– يميناً ! ما قيمة اليمين في نظر المحبين ؟ ما قيمـة اليمين في نظري انا التي اقسمت ايضاً ونقضت يميني وعهودي ؟ ألست انت اي رعمسيس الذي اغريتني تلك الليلة فقط على نقض عهودي .

– لاجلك ولاجل حبك ؟ لا ريب في انك لا تسمح الآن بأي قسم يقف في طريقك – في طريقنا ؟ .

– اواه ايتها الحبيبة . ان تلك اليمين المقدسة التي اقسمتها امام المعبود الذي شاء بعد ذلك ان يخاطبني قد نقضتها مرة بطريقة ما بسبب غلطتي وبسبب حبك وذلك لانني فضلت رغباتي وميولي على حبي لبلادي . وقد اقسمت بعدها امام ساست الذي توفى الآن لاجلنا ان لا أنقض يميني ثانية باية حالة فـلا بد لي من القيام بمهمتي . ولا مندوحة من حفظ هذه اليمين ما دام في جسمي حياة . انني فرعون مصر الشرعي ما دام دمي يجري في عروقي ولا بد لي لاجل مصر ان اقاتل هؤلاء الكهنة الذين يسعون وراء فائدتهم الخاصة واغتصاب السلطة . ان مصر اعظم من كل شيء ..

– كلا . ان الحب اعظم من مصر ! .

– لقد أعلى الحب مكانة مصر فيما مضى وصيرها عظيمة ولكنه جر عليها الاحزان كذلك . ولعمري كل حب يكنه قلب ملك مصر لا يكون لمصر نفسها يجر دائما الاحزان لان الملك الصالح يجب ان يرتبط ببلاده بأعظم رابطة مقدسة وعليه ان لا يعرف ذاك الحب الحقيقي الآخر الذي ينبذ كل شيء آخر ويغار من كل حب سواه .

– اذن لا تريد ..

– لقد اقسمت يا حبيبتي ان أضع مصر قبل كل شيء آخر – «قبل الكرامة الشخصية ، والهناء الشخصي ، والامنية الشخصية ، قبل حب كل رجل وكل امرأة ، قبل الرفاهية ، قبل السلامة ، قبل الحياة نفسهـا ! » فما دامت هناك حياة هناك امل وربما كان تحقيق غرضي فيه تحقيق قسمي . لا تنسي يا حبيبتي ان الموت لاجل مصر ذات الارض الخصبة السوداء – اذا شاءت ذلك هاتور – هو احسن خاتمة واجل نهاية يتمناها الرجل ملكا كان او صعلوكا .

– لا اريد ان تموت لاجل مصر او لاجل بلاد الحبشة او لاجل اي مكان

آخر بل اريد ان تحيي – ولا يهمني سواء كنت ملكاً او فلاحاً ، اريدك حبيباً لي ٠

– يجب ان اكون رهن اشارة مصر اولا أيتها الحبيبة وان اكون لها الخادم المخلص الأمين ما دمت حيا . لا استطيع ان اتخلى عن اصدقائي ونيران الحرب على وشك الاشتعال ولا تسمح نفسي بمغادرتهم وقت حاجتهم الي . ثم من يدري فقد أعيش حتى اتوج ملكا واصير فرعون مصر الحقيقي وانت ملكتها .

– اواه لا يهمني مات اصدقاؤك هؤلاء أو هلكوا . انني اضحيهم كلهم بابتهاج وفرح لاجلك ولاجل حياتك .. ولكن كفى .. كفى .. هذا الكلام وتعالي معي ! .

اخذت الفتاة تبكي ثانية فشعرت بالدعوة الحارة المنبعثة من جسمها الرقيق ورأيت عينيها مملوءتين بالدموع وهي تنظر الى وجهي وشفتاها مفتوحتان اشتياقا الى قبلة الرضى والقبول .

لو كانت امرأة اخرى لاستطعت مقاومتها اما نح . تل . كا فكنت احبها حباً جما ، بالجسم والنفس والروح ، حباً طاهراً ، قاهراً قلبياً . وقد اثارت فكرة مغادرتها في هذه اللحظة العصيبة ، وكلماتها الملتهبة وجداً وغراماً بي انا الذي احبها دون سواها وتحبني دون سواي ، ثم نبذ هذه اللحظات السعيدة التي تربط روحين يصبو كل منهما الى الآخر – اقول اثارت كل هذه نيران الوجد في صدري وضربت على اوتار التسليم والاذعان في قلبي .

اعطت نح – تل – كا كل شيء لاجلي ولم تكتم عني شيئاً حتى ولا اسرار قلبها الدفينة ونظرت الي الآن لكي لا آخذ لها في ساعة استسلامها الحلوة اللذيذة احاطت بي كل هذه العوامل القاسية فحنيت رأسي نحو شفتيها الرقيقتين وقد جذبت ملاحتها وحبها وشغفي بها – جميع حواسي نحوها . على اني انثنيت الى الوراء ثانية وتمتمت بصوت مبحوح قائلا :

– اواه لا استطيع ، والا فقد خسرت الى الأبد .. ان هذا تعذيب مروع لا يوصف اي امنية قلبي نح – تل – كا ، لاتظني انني أريد مـا لا مندوحة من القيام به . لا تغريني بعد الآن . ان هذه اصعب مهمـة ألقيت على كاهل رجل ولكن لا مندوحة من القيام بها ولا بد ان أقوم بهـا . يجب ان يكون حبي لبلادي اعظم من – حبي للمرأة – بل اعظم من حبك .

لم تفه الفتاة بكلمة بل ابتسمت في وجهي ابتسامة تدل على الثقة والتصقت بي باستسلام حلو ولكنـه ينطوي على الفوز والظفر ثم لفت ذراعيهـا اللينتين حول عنقي واخذت تجذبني بكل اغواء واغراء في جعبـة ملاحتهـا وجنسهـا ووجدها ، وتقيدني بها وهي واثقة كل الثقـة بفوزها النهـائي فشعرت عندهـا بدموع الشباب والرغبة المرة والشوق والقتال والرغبة الساحقـة في معاشرتهـا الدائمة وحبها والغضب الشديد من القدر وطرقالواجب الفارغة الموحشة .

همست الفتاة قائلة :

– لا اجهل أي حبيبي انك تداعبني وانك ستـدع هـذا الخطر والوعـود الـكاذبة بسلطة فارغة وانك ستأتي لنعيش معـاً الى الابـد . انظر الى اي حـد احبك واتعلق بك . لعمري لم تشعر أية امرأة بحب يعادل حبي لك ولم تظهر في عبادتها بمثل ما ظهرت بـه في عبادتك ولكن هـذه طرق المرأة احيانا مع من تحب وتهوى . انني اعبدك أي رعمسيس واحبك بكل قلبي . وسأدللك واهتم بك واجلك ليلا ونهارا والى الابد بكل ما وهبتني اياه الآلهة من قوة . سنعيش وحيدين أي معبودي بعيداً عن كل شيء حيث نغوص في بحـار الحب الهادئـة اللذيذة لعلها تخفي مثل اعماق هذا الوجد المتقـد ... ستجيب طلبي . ستجيب طلبي ... ارى ذلك مجسما علىوجهك . . قبلني ايها الحبيب . كم ...

لم تتم الفتاة حديثها اذ سمعت جلجلة الاسلحة فجأة خارج الباب في حين هرع امينمحعت الى الداخل واعتذر بسرعة. فتورد وجه الفتاة ثانية وهيتنظر

الي بلهفة وشوق ثم انسلت من بين ذراعي بسرعة وعضت على شفتيها حتى كادت تدميها . اما أنا فقد انتفضت ولهثت فجأة مثل رجل ألقي فجأة في نهر تثلجت مياهه .

على انه لم يلاحظ امينمحعت شيئاً على ما يظهر اذ صاح قائلا :

لقد وصلت جميع فرق حرحور الى هنا مع جيش سيتو ايها الملك . ويحمل فريق من الشعب اسلحة بقيادة الجنود اظن انهم ينوون مهاجمة القصر . وحرحور نفسه هناك ، اذ سمعتهم يصيحون باسمه ويدعونه فرعون مصر . وقد بدأ حملة القسي من الزنوج يقذفون سهامهم على الابواب فأصيب بعض رجال الحرس . اننا نتوق الى اظهار قوتنا ونريد ان نعلمهم اننا نستطيع القتال مثلهم . وعلى انه لا بد لنا ...

فقاطعته قائلا :

– سأكون معكم عما قليل .. ميريس . ميريس . احضر قميصي الزرد وخنجري .. وكذا سيفي وصولجتي وترسي .

ذهب امينمحعت فحدث شيء من الهرج والمرج بضع دقائق واخيراً ارتديت ثيابي وتأهبت للقتال ثم تحولت نحو عبيدي فأمرتهم بالانصراف من الغرفة ثانية وبعدها سرت نحو نح . تل . كا – وكانت جالسة في زاوية من الغرفة وقد لزمت السكوت والصمت – وخاطبتها قائلا :

– ها ترين ايتها الحبيبة انه لا مفر ولامناص – وان هذه هي خير وسيلة . ان يميني وشرفي وبلادي واصدقائي ينادونني فلا مناص من تلبية الطلب . يجب ان اذهب يا حبيبتي فتوسلي الى بتاح او الى آمون او الى اي معبود آخر ان يكتب لنا الفوز على الاعداء وعندها نتزوج في سعادة وهناء .

فاجابتني بصوت مبحوح قائلة :

– سأصلي واتوسل بحرارة لم اصل بها من قبل ولو انني لا ادري هل يسمع

آمون صلاة فتاة نقضت عهودها مثلي .

اذن صلي الى ازيس وهاتور ، الى آلهـة الحب التي ترعى من هم مثلنـا .. انك ... انك لست غضبى مني لانني ... رفضت ...

فاقتربت مني ثم طوقت عنقي بذراعيها وهمست في اذني قائلة :

اعلم اي حبيبي رعمسيس انني معجبة بك الى حد لم أشعر به من قبـل .. مع انني اغريتك على هذه الحال وتوسلت اليك بكل ما لدي من قوة وارادة لاجل سعادتنا مع ذلك - ما أغرب قلب المرأة - فقد كنت اظن طول الوقت انني ارجـو في قلبي ان لا تدعني لارادتي وان تتشدد فترفض طلبي وتحتفظ بقسمك لاجل وطننا المحبوب مصر . الآن لتكن هـاتور معك اي بهجـة قلبي ولتحرسك وتعدك الي سالماً لانني بدونك لا استطيع - كلا . لا استطيع ان احيى . ليتني استطيـع القتال وأموت - اذا تطلب الامر - الى جانبك كما قاتل النساء بجانب رجالهن في الايام الغابرة .

فقبلتها بشغف وتمتمت بكلمات حب متقطعة ثم تعلق كل منا بالآخر هنيهة وداعاً وبعدها تحولت نح . تل . وصارت تترنح الى ان وصلت متكأ فألقت نفسها عليه .

ألقيت نظرة على جدائل شعرها الاسود وعلى رأسها الصغير المنحني فوق ذراعيها الرقيقتين وبعدها جاءت سحابة فحجبتها عن ناظري فسرت من الغرفة وصولجتي في يدي وترسي في ذراعي ونزلت الى فنـاء القصر لاقاتل - ربمـا الى الموت ولكن على كل حال الى الشرف والكرامة .

٢٥

لما وصلت الى الباب الاخير وجدت انهناك حملة صادقة، ثم علمت من صياح القواد ان جنود حرحور المدربين قد حلوا مكان الغوغاء او على الاقل اخذوا يديرون اعمالهم وشرعوا يدقون الابواب الغليظة دقاً . فقد كان في وسعنا ان نرى الغوغاء وهم يحملون جذع شجرة ضخمة كانوا يدقون به الابواب فأخذوا رجــال الحرس يرشقونهم بسهامهم ولكنهم جاءوا في الحال بصفوف طويــلة من الجنود يحملون تروسا كبيرة لوقاية الذين كانوا يدقون الابواب .

وضع الاعداء كذلك فرقة من رماة النبال على مسافة بعيدة لتصوب نبالها الى الكوى الصغيرة التي كانت في قاعة الحراس والتي كان رجالنا يطلقون منها سهامهم على الغوغاء . وقد اصيب رجالنا من جراء ذلك بخسارة ليست قليلة بحيث اضطروا الى الرجوع .

رأيت بعد مضي مدة ما على هذه الحال اننا في مأزق حرج لان فناء القصر كان مزدحمــاً بجنود الذين كانوا متأهبين لصــد هجوم الاعداء في حين كان حمــلة النبال في الخارج يقذفوننا بسهامهم . ثم لم تمض مدة وجيزة حتى جاءني خوتو وأبلغني ان الابواب لا تلبث ان تسقط من تأثير الضربات الشديدة المتكررة وعلى ذلك استقر رأيي على الانسحاب من الفناء الاكبر الذي لا يليق مطلقا

للدفاع .

اخذت امينمحمت ورجاله من حملة القسي الابطال ووضعتهم على طول النوافذ العالية والمنخفضة المشرفة على الفناء لكي يطلقوا نبالهم على الاعداء اثنـاء هجومهم واندفاعهم اولا في الفناء الى درجات السلم الاولي .

امرت بعد ذلك بسحب جميع الجنود الى القصر نفسه واغلقت الابواب الضخمة الداخلية الموجودة عند نهاية درجات السـلم وكـذا الابواب التي عـلى اليسار في نهاية قاعة المحاكمة . ثم امرت الرجال باشعال كتل من الخشب في زوايا الفناء الخارجي لكي يرى رجالنا وهم في الظلام الاعداء فيطلقون عليهم السهام .. وبعدها امرت نيفر الوزير ان يشرف على جماعة العبيد والنساء والخصيان في القصر وان يأمرهم بحمل ما يزيد عن حاجتنا من السهام الى جناح القصر حيث توجد غرفي الخاصة لانني رأيت ان هذا الجزء يصلح اكثر من غيره للدفاع الاخير اذا تطلب الامر .

فرغنا من كل هذه التدابير ثم انتظرنا سقوط الابواب . اخيراً هوت الكتل الخشبية والتوت القضبان المعدنية تحت تأثـير الضربات الشديدة ولم تمض لحظـة حتى اندفـع اعداؤنا الى فنـاء القصر الخالي المضاء بالنيران المنبعثة من الكتـل الخشبية المشتعلة وكانوا يصيحون ويصرخون وقـد كادت شهوة النهب والقتـل تذهب بعقولهم .

رأيت اذ ذاك الفائدة التي جنيناها من قلة عددنا لانه لم تمض دقيقة واحدة حتى غص الفناء تحتنا ، بيننا وبين جدران القصر الضخمة بسيل جارف من الجنود والزنوج والشعب .

رفعت يدي عندها واعطيت الاشارة فسمعت امينمحمت في الحال يصيح معطياً اوامره فاخذ رجالنا يطلقون سهامهم ولم تمض لحظة حتى تغلب صفير السهام الثقيلة في الهواء عـلى صياح الجماهير الذي اضيف اليه بعـد قليـل انين

الجرحى . وفي الواقع لم يطش سهم واحد من سهامنا بل كان بعضها يخترق جسم رجلين او ثلاثة .

وبينما كانت نيران القتال تتقد في عروقي اذ تولاني الحزن فجأة عندما رأيت ابناء وطني المحبوب يساقون على هذه الحال الى القتل اطفاء لشهوة كهنة آمون . وقد خطر ببالي ان القي نفسي بين ايديهم فاضع حداً لهذه المأساة ولكني لما ذكرت ان حرحور يصير عندها ملكا لا يهتم ذرة واحدة برفاهية رعاياه رأيت انه خير لي ان اواصل القتال حتى انال النصر اذا استطعت فتنال البلاد الخير واكون قد حفظت العهد الذي قطعته على نفسي وبررت بقسمي .

وكان امينمحعت واقفاً في نافذة مجاورة لي وقوسه يغني اغنية الحرب كلما جذبت عضلاته الفولاذية وتره وتركته . وكانت علامات الابتهاج لا تزال مرتسمة على وجهه .

اخيراً خاطبني امينمحعت من فوق منكبه قائلا :

– لقد تغلبنا عليهم الآن . كم ابتهاجي عظيم لانني عشت حتى رأيت هذا اليوم . واذا كان نصيبي الموت فسيكون سروري شديداً اذ – اقول في وادي الموت انني قتلت في مثل هذا اليوم .

فأشرت قائلا :

– لا يزال هناك كثيرون منهم .

– نعم ولكن لا تزال كفتنا هي الراجحة . انظر الآن كيف يسد بعضهم طريق بعض وكيف ذهبت عقول الزنوج حباً بسفك الدماء كما هي عادتهم وكيف ان الغوغاء لعدم تدربهم على القتال قد ثار غضبهم وساد بينهم الهرج والمرج فأخذت تفتك بهم سهامنا . اما الجنود المدربون فيحاولون الانسحاب بنظام من هذا المأزق او الالتجاء الى مأوى لكي ينظموا صفوفهم .

وفي الواقع كان الامر كما قال،فقد كان المشهد مروعا في عيني شخص مثلي لم يشهد معارك من قبل . ولم يفكر حملة القسي الزنوج في جمع صفوفهم واطلاق سهامهم على النوافذ بل فقدوا عقولهم تماماً كما فقدها السكان الذين كانوا يموجون على غير هدى ويعرقلون أعمال الجنود المدربة .

وكان نبلاء المدينة يشاهدون هنا وهناك وهم يحاولون بمساعدة حراسهم تخفيف اضطراب الشعب وجمع صفوفهم ولكن الجماعات الصغيرة كانت تكتسح اكتساحاً .

وكانت الفرق الاخرى من الجنود في القاعة واقفين وقد اتكأوا على رماحهم واخذوا يضحكون للمذبحة التي تجري امامهم ولعدم وجود اعمال خاصة لهم .

استمرت المعركة على هذه الحال ونبال رجالنا تفتك بالاعداء الى ان دب الرعب في النهاية في قلوب بعض الغوغاء ففروا وفرقوا معهم الذين كانوا يريدون الدخول ثم تلاهم آخرون فدفعوا الجنود معهم . ثم دب الرعب كذلك بين النوبيين وامتد كاللهيب الى ان خلا الفناء من الجميع عدا جثث القتلى المكدسة والجرحى الذين كانوا يزحفون على الارض للبحث عن مأوى لهم .

اخيراً وضع امنيمحمت قوسه الى جانبه ثم مسح جبينه وضحك قائلا :

— ان هذه لقمة سيجد حرحور وسيتو مشقة في هضمها . لقد جنينا الثمرة الاولى من ثمار النصر على ما أرى . سأذهب الآن لآمر رجالي بالكف عن القتال لان النبال لا تنمو داخل اسوار هذا القصر مثل الحشائش .

ذهب امينمحمت فارسلت العبيد في الحال الى فناء القصر ليجمعوا ما يستطيعون جمعه من النبال من اجسام القتلى لان المخزون لدينا كان قليلا . اما حملة القسي فكان قد انهكهم التعب فرقدوا بجانب النوافذ في حين كان حملة

الرماح وغيرهم من رجال الفرق الاخرى يصيحون من ورائهم قائلين : لا تقتلوا الاعداء كلهم بل اتركوا لنا نصيباً .

وهكذا كانت روح الحماسة بادية على وجوه الجميع لما احرزنا من الفوز العظيم . على انني كنت اعلم ما لدى حرحور من القوات ولذا ايقنت اننا سنجد مشقة كبرى في الثبات في وجه الاعداء — على رغم الفائدة التي جنيناها — الى ان تصل الينا المساعدة المنتظرة من المدن الواقعة على النهر .

وبينما كنا نراقب حركات العدو وننتظر الحملة التالية على الابواب الداخلية واثقين انها ستكون حملة فجائية منظمة اذ سمعنا ضجة عظيمة قد ارتفعت من مؤخرة القصر حيث كانت جنود الضابط لتان من حملة الرماح يخفرون الابواب المختلفة فكانت صيحات الغضب والفوز وصليل السيوف وصدى الضربات على التروس تصل الى آذاننا جلية واضحة فأرسلت في الحال بعض الرجال ليروا ما الخبر .

مكثنا على هذه الحال هنيهة فكان حملة القسي لا يزالون في مراكزهم والعبيد يأتون بالنبال التي استخرجوها من جثث القتلى وجماعات الجنود في القاعة منتظرين صدور الاوامر اليهم .

تعالت الاصوات فجأة مرة اخرى من طرف القصر وجاء رجلان يسرعان نحوي فصاحا قائلين ان احد الابواب التي في طرف القصر وان بضعة رجال من جنود حرحور دخلوا الفناء الغربي . ثم حدث في اللحظة التي لفت فيها نظرنا بهذه الحال ان قام جنود مدربون من جيش سيتو بحملة اخرى صادقة من الباب الاكبر وتقدموا تقيهم تروسهم .

اجتاز الجنود الفناء ووصلوا الى درجات السلم والابواب الداخلية والنوافذ السفلى دون ان يصاب رجل واحد منهم فاضطر حملة القسي الى ترك قسيهم وتناولوا السيوف .

تعالى صليل السيوف من جميع جوانب القصر وعلى ذلك رأيت ان الاعداء حملوا علينا في وقت واحد من كل جانب . ولم تمض مدة وجيزة حتى ظهرت فجأة قوة من خصومنا في مؤخرة الردهة بقيادة قائد من المقربين الى حرحور يدعى اونام وكان قد شق لنفسه طريقاً من الفناء الغربي في حين جاء من المقدمة آخرون تغلبوا على جنودنا الذين كانوا يخفرون النوافذ بكثرة عددهم .

وجد رجالنا في الداخل مشقة في تنظيم صفوفهم قبل ان يحمل علينا العدو من الامام والخلف . ولم تمض دقائق قليلة حتى التحمت الجموع ودارت رحى القتال بشدة على نور المشاعل القليلة التي كانت حول الاسوار ولمعان النيران في الخارج في حين كانت جموع اخرى تتدفق علينا من الامام والخلف .

اختلط الحابل بالنابل فصرخت في جنودي لكي يرتدوا الى جانب قاعة المحاكمة الكبرى التي كانت ابوابها الضخمة المؤدية الى الفناء الاكبر لا تزال ثابتة لحسن الحظ وهي الابواب التي تؤدي الى الجناح الخاص بي في القصر . على ان صوتي لم يسمع وسط جلبة القتال وفوق ذلك لم اصح كثيراً لانهم هاجموني غير مرة واضطررت الى الدفاع عن نفسي . وعلى ذلك لما شققت لنفسي طريقاً الى قاعة المحاكمة — بعد ان اصبت بجراح كثيرة صغيرة لم يتبعني من رجالي غير النصف تقريباً في حين قاتل الباقون في الطرف الآخر بجوار الباب الداخلي والتفوا حول خوتو .

اما امينمحعت وكان آخر من ذهب الى حملة القسي عند النوافذ العليا فلم اره . ولم يكن ميريس جندياً ومع ذلك حمل سيفاً وقاتل قتالا مجيداً الى جانبي

اشتد وطيس القتال فاكتسحتنا قوات العدو بكثرة عددها وحملتها الصادقة . وقد سمعت صياح الجنود يتعالى من كل جانب قائلين « سيتو : سيتو » فرأيت اخي من ابي وقد ارتسمت على وجهه النحيل علامات الابتهاج بالقتال وهو يقاتل بشدة على رأس جيشه .

ارتددنا الى الوراء خطوة بعد اخرى الى ان وصلنا الى درجات السلم التي تؤدي الى غرفي الخصوصية وهنا استطعنا الثبات في وجه الاعداء ولو اننا كنا نرتد شيئاً فشيئاً لكثرة عددهم .

وبينا كنت احاول جمع جنودي اثناء فترة وجيزة في القتال اذ لاحظت نيراناً تشتعل في الدهليز الاكبر ، نشأت بلا ريب عن القاء بعض المشاعل ورأيت رجالا يهرعون لاخمادها . اما خوتو والشرذمة القليلة التي كانت معه فلم ارهم والظاهر ان الاعداء تغلبوا عليهم .

وكانت درجات السلم ملطخة بالدماء وستائر قصر فرعون وادوات الزينة ممزقة وملوثة ، والتماثيل والصور مهشمة ، والنساء والجواري رابضات في زوايا قاعة الحاكمة وخلف الاعمدة يقدمن حليهن وجواهرهن الى كل من يقترب منهن على امل ان ينقذن حياتهن على هذه الحال .

وكان السوقة والغوغاء من اهل نيامون قد جاءوا لنهب القصر وسلب مافيه وقد شاهدت جنود حرحور وهم يحاولون صدهم والمحافظة على النظام . ثم رأيت جثة امرأة مشوهة ملقاة على عرش فرعون المقدس والمصنوع من الذهب والعاج وسمعت صدى جلبة القتال وعويل النساء وصياح الجنود وانين الجرحى يتردد في جوانب القاعة التي كان يتردد فيها من قبل صدى اوامر فرعون العظيم .

وبينا كان خصومنا يتأهبون للقيام بحملة اخرى علينا اذ سمعت صوت امينمحعت الجهوري وهو يصيح خلفي قائلا :

— اجثوا على ارجلكم . سنطلق على الاعداء نبالنا .

جثوت على ركبتي في الحال وامرت جنودي ان يحذوا حذوي ولم تمض

لحظة وجيزة حتى سمعنا النبال الطويلة وهي تطير فوق رؤوسنا من أقواس جنود امينمحعت الذين جمعهم من النوافذ العليا .

اخذت نبال جنود امينمحعت تمطر الاعداء كوابل من المطر وتفتك بجنود سيتو فتكا ذريعاً . وقد رأيت بعضهم في وسط الدهليز يحاولون اقامة سياج من التروس وتصويب نبالهم الينا ولكن امينمحعت ورجاله كانوا في الظلام في حين كان الاعداء في ضوء المشاعل .

استمرت نبالنا تفتك على هذه الحال بصدور الاعداء الى ان دب الذعر في قلوبهم فجأة ، فتفرقوا بعد ان حاولوا الثبات هنيهة ثم ركنوا الى الفرار . وقد رأيت - سيتو - وقد اخترق ذراعه اليسرى نبل طويل - وهو واقف في العراء - لانه كان شجاعاً في الحرب - يأمر جنوده ان يحتموا بالاعمدة والتماثيل ثم التقط جندياً جريحاً على رغم جرحه هو وسار به طالباً الالتجاء الى مأوى يقيه شر النبال .

اخيراً خلت قاعة المحاكمة الكبرى من الاعداء عدا القتلى والجرحى واذ ذاك وقفنا على اقدامنا في الحال وصعدنا درجات السلم مسرعين وانضممنا الى امينمحعت فشكرته على خدمته وبسالته .

امرت الجميع بعد ذلك بالارتداد الى جناح القصر الخاص بي واخذنا نقيم سدوداً خلف ابواب الغرف العديدة ونقوم بالاستعدادات اللازمة لصد الهجمات التالية الى ان تصل الينا الامدادات .

كان مأزقنا في الحقيقة حرجاً جداً لانه لم يكن لدينا من القواد غير امينمحعت وذاك الضابط لتهان الذي شق لنفسه طريقاً مع جنوده الابطال الى ان وصل الينا ، ومن الجنود غير عدد قليل في حين كان لايزال لدى الاعداء مئات من الجنود . اما غوغاء المدينة فقد كانوا حلفاءنا اكثر منهم اعداءنا لما كانوا يقومون به من اعمال السلب والنهب ونزاعهم المستمر مع جنود حرحور .

٢٦

رأيت ان لدينـــا فترة سنقضيها في شيء من السلام والهدوء فأمرت نصف الجنود بمراقبة الاعـداء واتمام سد الابواب في حـين استراح الباقون واخـذوا يصلحون ما أصاب أسلحتهم من العطب ويضمدون جراحهم . وفوق ذلك تولى ميريس ولتمان تهدئة خواطر العبيد والخصيان ونساء القصر وازالة مخاوفهم ولم تمض لحظة حتى شرع النساء في تضميد الجرحى واخذ العبيد يحملون الينا الخمر والطعام والماء ويساعدون الجنود الآخرين في اقامة المعاقل والسدود .

أخذت اتنقل بين الغرف هنيهة ثم ذهبت الى رأس السلم وبعدها عدت الى غرفتي الخاصة حيث اجتمع ضباط جيشي . اما الغرف الاخرى فـكانت غاصة بالجنود .

وبينما كنت واقفـاً في معزل قليلا اذ شعرت بيد تمسك ذراعي فتحـولت فرأيت وجه نح . تل . كا الابيض وكانت تبدو عليه علامات القلق .

خاطبتني الفتاة قائلة :

— اواه ، ما أعظم ابتهاجي وفرحي برؤيتك سالماً أي حبيبي رعمسيس بعد ان كنت أظن عند سماع كل اصطدام انك في عداد الاموات ... الآن اشرب

هذه الكأس التي جئتك بها وجدد قواك ... وماذا ، هل انت جريح؟ انظر . ارى على فخذك دماً ... كلا . لا تتحرك سأضمده .

أردت ان احول اهتمامها واغير الموضوع بكلمة مضحكة أقولها ، على انها تغلبت علي بقوة ارادتهـا فنزعت سيفي من منطقتي ووضعت صولجتي جانبـاً ثم أمرتني ان استلقي عـلى ظهري فوق متكأ ، واخذت تضمد جراحي البسيطة بقطع من الكتان .

ربطت نح . تل . كا آخر عقدة وهي جاثمة بجانبي ثم مالت بسرعة فقبلتها وبعدها نظرت الي بعينيها اللامعتين ووضعت خدها الرقيق على خدي .

لم يكترث احد بنا لأن لتان كان راقـداً كذلك ، تضمد جراحه احـدى جواري القصر في حين كان الضابطان الآخران يتحدثان باهتمام فيما بينهما . وكذا كانت تضمد جراح امينمحعت ، فتـاة اخرى اذكر انني رأيتها معـه غير مرة في القصر .

نظرت الى عيني نح . تل . كا وقد لمعت عيناي بمعرفة السر اللذيذ الموجود بيننا ثم قلت فجأة :

— ان حبك يا نح . تل . كا في الحقيقة سعادة تستحق القتال لاجلها .

فهمست في اذني وقد أخفت وجهها قائلة :

— انه لك كا أخـبرتك قبل هذه الليـلة بجرأة . كم أشعر بخجل من هـذا القول ... ولكن ارى القتال يسير سيراً سيئاً . اليس كذلك ؟

— لم تسر المعركة كا كنت اشتهـي ولكن في وسعنـا الثبـات الى ان تأتينا

النجدات التي لابد ان تكون الآن في طريقها .

– كم اود ...

لم تتم الفتاة قولهـا اذ سمعنا فجأة جلبة القتال في الخارج فوثبت واقفاً عـلى قدمي وخطفت سيفي وصولجتي . ثم رأيت امينمحمت وقد قبل فتاته ثم خطف سيفه وهرع من الغرفة يتبعه الضباط الآخرون .

رفعت نح . تل . كا الي وجهها الجميل بلهفة فقبلتها وهمست في اذنها قائلا :

– تشجعي ايتها الحبيبة .

ثم هرعت كذلك من الغرفة . عـلى انني القيت نظرة عـلى الفتاتين قبـل خروجي فرأيتهن وقـد ذهبت كل منهما الى الاخرى وضمتها الى صدرها بدافـع غريب .

رأيت في الخارج حملة شديدة في السلم وحول السد الاول الذي كان ارتفاعه الى الصدر فقط ومع ان رماة النبال كانوا يصدون الاعداء مرة بعد اخرى فقد كانوا يحملون علينا بقوات جديدة .

اخيراً فرغت نبال جنودنا وتحول القتال الى ملحمـة شديدة . وكان اعداؤنا يستبدلون من حين الى آخر رجالهم الذين اعياهم القتال بغيرهم امـا نحن فـكان عددنا قليلا فلم نجد مندوحة من مواصلة القتال الى ان ارتددنا الى الوراء شيئاً فشيئاً عن السد الاول .

لم نرتد بسرعة وفي الواقع استطعنا ان نحمل معنا جرحانا اذ رأيتهم يحملون امينمحمت وقـد جرح جرحاً بليغاً وينقلونه الى غرفـة داخلية فهتفت اثنـاء مروره له هتافا حماسيا اشدد به عزيمته . ثم اتفق ان قمنا بحملة فجائية في وقت

كان يتوقع فيه الأعداء تقهقرنا فباغتناهم وقتلنا منهم عدداً كبيراً .

دار القتال بشدة عظيمة حول الباب الثاني وكان قد هيىء بحيث لا يدع الا رجلا واحداً يمر في وقت واحد ولذا لم نستطع الارتداد كلنا دفعة واحدة . وقد اصابنا الاعياء غير مرة فكانت نح . تل . كا وبعض الجواري يتقدمن بشجاعة من الغرف الداخلية حيث كن يراقبن القتال ويضعن في ايدينا النبال التي جمعنها من الاسوار وزوايا الغرف . وعلى ذلك تمكنا بفضل جنودنا من رماة النبال ان نصد حملات الاعداء .

رأيت الامير سيتو وسط جلبة القتال وهو يقاتل بشجاعة على رأس جنوده على رغم جرحه الكبير فحاولت الوصول اليه . ولم تكن مهمتي هذه سهلة لان بعض رجالنا كانوا في هذه الناحية من الباب والبعض الآخر في الناحية الاخرى .

بيد انه لما آنس سيتو مني هذه الرغبة وادرك اني اريد لقاءه في حومة الوغى لم يحجم وناضل هو ايضا للوصول الي — لى ان التقينا اخيراً .

وصاح سيتو بابتهاج قائلا :

— اخيراً .

فقرضت على انيابي واجبته قائلا :

— اخيراً !

لم يكد يواجه كل منا الآخر حتى كف الجنود من الطرفين عن القتال — كأن هناك اتفاقاً متبادلا — وافسحوا لنا الطريق خارج الباب وقد انتهز رجالنا بالطبع هذه الفترة فارتدوا وراء استحكاماتنا ولم البث ان وجدت

نفسي وحيداً امام السد في حين وقف مقابلي سيتو وقد اتكأ على سيفه واخذ يبتسم في وجهي .

لم يبد على وجه غريمي شيء من الكراهية بل اخذ كل منا يعجب بالآخر هنيهة .. ولعمري شعرت بشيء من الخجل عند ما ذكرت ان ساست حاول مرة اغتيال حياته غدراً وخيانة .

صاح سيتو قائلا :

– الان ايها الاخ سيحكم حرحور رئيس كهنة آمون على البلاد ويصير في النهاية فرعون مصر كما قال . ليس حرحور رجلا تستطيع انت او انا او اي رجل آخر اللعب به . ستموت الليلة كما امر خالي وكما قلت انا ، وسوف لا يعلم احد في العصور المقبلة انك وجدت على ظهر هذه الارض كلا ، ولا يعرف احد اسمك او انك حكمت ارض مصر هذه المدة القصيرة التي لم تتوج فيها ولا عجب فان هذا مصير جميع الذين يضعون انفسهم فوق آمون العظيم .

فصرخت في وجهه قائلا :

– صه ايها الخائن . انني لا احجم عن الموت اذا كان لا مندوحة منه ، ولكن هل انت على استعداد ايضاً ؟ اذ يخيل الي انك انت الذي كتب عليك الموت الليلة لا انا .

لم يفه الامير سيتو بكلمة بل رفع سيفه الكبير وتقدم نحوي ثم ضربني ضربة صاعقة ومع انني التقيتها بترسي فقد شقته الى شطرين وعندها علا هتاف الفوز من جانب رجاله .

حملت عليه بعدها بصولجتي ولكنه تحاشى الضربة بمهارة ثم حمل على

فتحاشيت ضربته كذلك فثـار غضبـه وصوب نحو جسمي الذي لا يقيه شيء ضربات شديـدة بحيث لم اجـد مندوحة من استخدام جميع مواهبي الحربيـة لتحاشيها .

اخيراً خفت علي حملاته . وبينما كنت واقفاً بجوار السد اذ وضع في يدي ترس فجأة من الحلب وسمعت بعض جنود سيتو وهم يصيحون غضباً قائلين :

— ارجعي الى الوراء ايتها العذراء . ارجعي الى الغرف الداخلية !

افعم قلبي اعجاباً وفخراً اذ علمت ان التي فعلت ذلك هي نح . تل . كا — ولو انني لم اجرأ عـلى ان احول رأسي لرؤيتهـا — وانهـا هي التي هرعت الى معونتي بهذه الشجاعة قبل الجميع .

صاح سيتو اذ ذاك غضباً ثم حمل علي حملة اخرى دارت بعدهـا المناورات بيننا في حين حبس الجميع انفاسهم واخـذوا يصيحون عند سقوط كل ضربة ثم يحبسون انفاسهم مرة اخرى .

أخيراً القى سيتو ترسه ووثب علي وقـد قبض على سيفه بكلتا يديه فوثبت عليه في اللحظة عينها وصولجتي المروعة تدور فوق رأسي .

سقطت الضربتان في وقت واحد دون ان تجدا ما يصدهما فشعرت بسيف سيتو وقد مزق قميصي المصنوع من الزرد ووصل الى لحمي من تحته فـأرتجفت ركبتاي وسال الدم من خاصرتي على ركبتي .

على انه شكراً لمنتو فقد اصابت ضربتي الغرض كذلـك اذ سمعت صولجتي الثقيلة وهي تصطدم بعظم رأسه فترنح وسقط على الارض .

مشيت أترنح وعلى فمي ابتسامة الظفر على انني لم ألبث ان سقطت كذلـك

الى جانبه فوق الارض المخضبة بالدماء وعندها سمعت اصوات جنود سيتو وقد حملوا ليقضوا علي بسيوفهم المسلولة . .

أيقنت اذ ذاك ان لا مفر من الهلاك غير انني شعرت برجل ألقى نفسه فوقي فجأة وسمعت المرة بعد الاخرى تأوهات خارجة من ذاك الجسم الذي بعثه بتاح ليكون درعاً لي ورأيت دم الحياة وهو يتدفق من مئة جرح فيه واخيراً سمعته وهو يلفظ النفس الاخير بشجاعة واقدام .

حمل رجالنا عند ذلك من الغرف الداخلية على الاعـــداء في حين شعرت بايدي رجالي تجذبني الى الداخل وراء خطوط استحكاماتنا وبعدها دارت رحى القتال مرة اخرى .

صاح الضابط لتان – وكان هو الذي جذبني الى الداخــل بمساعدة جنــدي آخر – بقلق قائلا :

– هل انت على قيد الحياة أي فرعون ؟ .

ثم اخذ يضمد جرحي الكبير الذي اصابني في جانبي وقال :

– هل انت مصاب بجرح بليغ ؟

فقلت بصوت خافت :

– نعم ولكن اخبرني من الذي ...

– انه ميريس رئيس تشريفاتك الذي القى نفسه فوقك وانقذ حياتك بهذه الحال عندما أرادوا ان يحملوا عليك بهذه الوسيلة المنطوية على الجبن. لعمري لم ار في حياتي عملا اكثر من عمله هذا نبلا وشجاعة .. هيا ايها العبيد احملوامليككم الى غرفته وضمدوا جروحه .

فحاولت على رغم ضعفي ان اقف على قدمي وقلت :

– كلا . اريد مواصلة القتال .

على ان الضابط لم يكترث بقولي لانه رأى ان جرحي بليغ .

حملني العبيد تحت اشرافه برقة ، بعيداً عن جلبة القتال الى غرفتي وبينما كانوا يجتازون بي احدى الغرف رأيت امينمحمت الشجاع ملقى على الارض وقد فارق الحياة : وكانت احدى يديه تمسك بسيفه وقوسه والاخرى ملتفة حول الفتاة التي يحبها وكانت تبكي وتنتحب فوق جثته فقلت في نفسي عندها : هكذا مات امينمحمت الجندي المقاتل – مات كما عاش ، ممسكا بسيفه وقوسه وفتاته .

هرعت نح . تل . كا الي عندما وصلت الى الغرفة الداخلية وقد ارتسمت جميع آلامها وملاحتها في عينيها وعلى شفتيها فاشارت الى العبيد فانصرفوا وكذا خرج لتان للانضمام الى رجاله في الخارج .

خلت الغرفة فقلت بصوت خافت :

– انك أنت الذي وضعت الترس بيدي .

فهزت الفتاة رأسها وقالت :

– يجب على المرأة ان تقوم بنصيبها حتى في حومة الوغى .

ثم جثت بجانب الفراش وهمست قائلة :

– اواه يا سيدي . شكراً لجميع الآلهة اذ رأيتك على قيد الحياة مرة اخرى . ولكن اخبرني هل هذه هي النهاية ؟ .

لم اجبها على سؤالها هذا اذ سمعت فجأة جلبة شديدة في افنية القصر وفي الخارج واصوات تهتف باسمي .

ما الخبر يا ترى وماذا جرى ؟

تعالت الاصوات وازدادت الجلبة شدة من كل ناحية وجانب . وقد استمر الحال على هذا المنوال مدة ليست وجيزة الى أن دخل علي الضابط لتان في النهاية وعلى رمحه رأس حرحور نفسه والى جانبه حاكم تانيس وكثيرون من نبلاء الاراضي السفلى واشرافها وقوادها ثم كهنة بتاح في منف ورئيسهم .

جلست فوق المتكأ وأنا خائر القوى ونح . تل . كا الى جانبي فتقدم لتان الي وقد حنى الجميع رؤوسهم اجلالا واكباراً ثم قال :

— لقد تم لك الظفر أي فرعون على أيدي أعوانك والمخلصين من رعيتك . ظن الأعداء أن نجمك قد أفل وأن يد القدر قد غدرت بك ونصرتهم عليك ولكن جاءتنا المساعدة بعد أن قطعنا كل أمل بوصولها بعد موت أبطالنا وتبديد شمل رجالنا . وقد أخذ انصارنا أعداءك من خلف واعملوا في رقابهم السيوف وفي أقفيتهم الحراب فانقذوا مصر من الويلات وانتشلوا الوطن من الكوارث والمحن التي كانت تهدده لو اتيح لهم النصر عليك . وها هو رأس حرحور الذي أراد اغتصاب الملك منك بخداعه وسحره وأضاليله نقدمه اليك رمزاً لولائنا وقد جاء رئيس كهنة بتاح مع جيشك ليضع على رأسك تاج مصر المزدوج وينادي بك ملكا على البلاد .

تقدم خور همت الشيخ رئيس كهنة هيكل بتاح اذ ذاك الي ثم باركني ووضع على رأسي تاج مصر ثم صلى علي رغم ضعفي ثم صلى الى الآلهة ودعا لي بالشفاء ولما فرغ تحول نحو الجمع المحتشد — وكان نور الفجر أخذ يفرد حلته البديعة على الارجاء — وقال :

— لقد بر الأمير رعمسيس بقسمه وحفظ عهده الذي قطعه على نفسه أمامكم في هيكل بتاح العظيم بمنف ولقى في تحقيق أمنيته والبر بوعده أهوالاً جسيمة

فاستحق ثناء الآلهة وخضوعكم لملكه واخلاصكم لعرشه .

ثم تحول نحوي وقال :

— تحية أيها المعبود فرعون ، رعمسيس ، ملك الاراضي العليا والسفلى ، النبيل من اسرة « ست — ان — خوتي »

فردد الجميع التحية ثم سجد وسجد الجميع .

انتهى الجميع من تقديم فروض الاجلال والاحترام فشكرتهم بكلمات وجيزة وصوت خافت ولما آنسوا ما كنت عليه من الضعف الشديد حنوا رؤوسهم وانصرفوا .

ابتهج قلبي بهذا الظفر الغير المنتظر ولو انني كنت واثقاً ان نهايتي ليست بعيدة وان حياتي لا تطول . ولا عجب فقد عشت بعد عدوي وارسلت الآلهة من نصرني على اعدائي فتوجت ملكا على بلادي المحبوبة وانقذتها من يد البوار والدمار وتزوجت بمن احب وتم لي ما اشتهي وأريد .

لقد بررت بقسمي وحافظت على عهدي اكثر من اي رجل عهد اليه بالمحافظة على عهده. اذ ألم انبذ كل شيء محافظة على شرفي ؟ الم انبذ سعادتي وهنائي وسلامتي وحياتي وحبي .

خيل الي مرة اخرى انني اسمع صوت المعبود العظيم يناديني قائلا :

— ان ما يبدو في عينيك ضائعاً اياه اربح !

نعم لقد بررت بقسمي وحافظت على شرفي من كل وصمة وعار ...

لقد اقسمت ان اضع مصر « قبل كرامتي الشخصية ، وهنائي الشخصي ، وامنيتي الشخصية ، قبل حب كل رجل وامرأة ، قبل راحتي ، قبل سلامتي ، قبل حياتي نفسها .

بهذا القسم الرهيب اقسمت .

وهكذا وضعت مصر قبل كل شيء .

الحب ابو العجائب . الحب عظيم لا يعرف قانوناً ولا قيوداً لانه في نفسه قانون وقيد !

الحب يبقى الى الابد – لان الحب اكبر من كل شيء ، اكبر من الحياة ، اكبر من الموت ...

نح . تل . كا ! – نح . تل . كا ...

لم يستطع ارثر رولي ان يتم كتابة الكلمة الاخيرة عندما داهمته المنية والقلم في يده .

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت – ص. ب ١٣٩٠

هذا الكتاب

هذا الكتاب يصوّر لنا تسلط رجال الدّين في مصر القديمة ، ويصف براءة الشعب واستسلام أبنائه لحكم من يتلاعب بعواطفه باسم الدّين .

قصّة صراع بين أمير له الحقّ بالحكم ووراثة العرش وبين كاهن يريد أن يمتلك العرش ويُقصي من له الحقّ فيه ، مُتّبعًا بذلك مختلف أساليب الخداع والمراوغة والدسائس والمؤامرات . شاب نبيل ينجو من المؤامرات ويقف ندًّا لأعظم سلطة في الدولة فيدل على بطولة رفيعة ورغبة بالتّضحية اكيدة .

نضالٌ في سبيل عرشٍ وسلطانٍ ونضال آخرُ يرافقه في سبيل قلبٍ نبيلٍ وحُبٍّ عظيم يعادلُ بعرشه سلطة العرش ومجد الانتصار .



منشورات المكتب العالمي للتأليف والترجمة
(دار مكتبة الحياة - بيروت)

الثمن : ٤٠٠ ق. ل. او ٥